المركز القومى للترجمة



المشروع القومى للترجمة

ملاحظات عن البدو والوهابيين

جرى جمعها خلال التجوال فى الشرق

الجزء الثانى

تــألـيـف: جون لويس بوركهارت
ترجمة وتقديم: صبرى محمد حسن
مـراجـعـة: محمد صابر عرب

1228

ملاحظات عن البدو والوهابيين

(الجزء الثانى)

المركز القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ١٢٢٨
- ملاحظات عن البدو والوهابيين (ج ٢)
- جون لويس بوركهارت
- صبرى محمد حسن
- محمد صابر عرب
- الطبعة الأولى ٢٠٠٧

هذه ترجمة كتاب :

Notes on the Bedouins and Wahabys,

collected during his travels in the east

By : John Lewis Burckhardt

Volume 2

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.Mail:egyptcouncil@yahoo.com **Tel.:** 27354524 - 27354526 **Fax:** 27354554

ملاحظات عن البدو والوهابيين

جرى جمعها خلال التجوال فى الشرق

(الجزء الثانى)

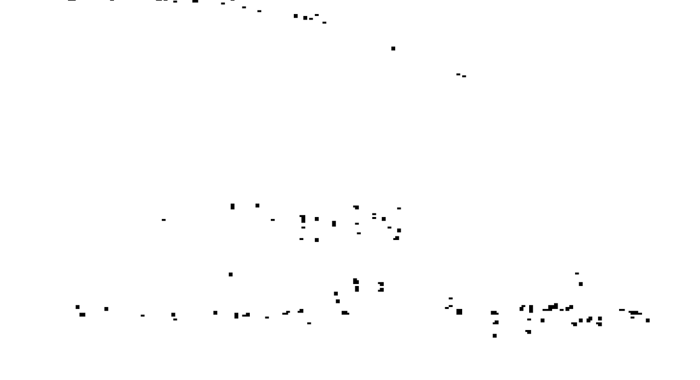
تأليف : جون لويس بوركهارت

ترجمة وتقديم : صبرى محمد حسن

مراجعة : محمد صابر عرب



٢٠٠٧



بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

بوركهارت ، جون لويس .
ملاحظات عن البدو والوهابيين : جرى جمعة خلال التجوال فى الشرق / تأليف جون لويس بوركهارت ؛ ترجمة وتقديم صبرى محمد حسن ؛ مراجعة محمد صابر عرب - ط ١ . - القاهرة .
٢٣٦ ص ، ٢٤ سم ؛ مج ٢ ؛ المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٧
١ - الرحلات .
أ - حسن ، صبرى محمد (مترجم ومقدم)
ب - عرب ، محمد صابر (مراجع)
جـ - العنوان ٩١٠

رقم الإيداع ٢٠٠٧/٧٠٧١
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 437 - 260 - 3
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

وصف البدو

تصنيفات القبائل البدوية

يعيش قسم كبير من قبيلة وِلد على في أعالي خيبر في جنوبي صحراء الجزيرة العربية .

قبيلة الحسين شيخ هذه القبيلة يدعى مهنا، وقد ولد في " الأراضي المنخفضة "، التي يطلق عليها أهل الصحراء هذا الاسم ، وتقع بين تدمر وأباة ، ينعت الناس هذه الأراضي المنخفضة بأنها " وديان " ، والبدو يميزون من بين هذه الوديان ثمانية وديان يعدونها الوديان الرئيسية في هذا الاتجاه ، وهذه الوديان الثمانية تشكل مراعي القبائل العنزية الكبيرة كلها في فصل الشتاء ، وتمتد هذه الوديان إلى مسافة تقدر بمسير خمسة أيام من الغرب إلى الشرق . ووادي الحوران الذي أتينا على ذكره في وصف سابق لهذه الصحراء يشكل جزءا من هذه الوديان الثمانية . كانت هذه الأرض طوال القرن الماضي مسرحا للصراع المستمر بين عرب الموالي - الذين كانوا شديدي القوة في ذلك الوقت ، لكنهم يعيشون حاليا في الصحراء المحيطة بحلب - وقبيلة بني خالد البَصْرِيَّة . اعتادت هاتان القبيلتان أن تلتقيا في هذه الأراضي الخفيضة في فصل الشتاء ، وتتنازعان حق الرعي في هذه المنطقة .

الجلاس أو الروالة

الفرع الثالث من قبيلة العنزية الكبيرة لا يسمى تسمية صحيحة باسم الروالة ، وإنما يطلق عليه اسم الجلاس ، الذين ينقسمون إلى قبيلتين رئيستين :

١ – **الروالة** (هذا الاسم يجب ألا يطلق على الفرع كله) : وهم يشملون كلا من القطيسان ، والدُغامة ، والفريج ، والنصير .

٢ – **الأمحليف** ، وشيخها يدعى المعجل وهى تشمل القبائل التالية : عبد الله ، والفرشة ، والبدور والسوالمة .

سبق أن قلت : إن السواد الأعظم من قبائل العنزة الكبيرة تحصل على إتاوة مرور من قوافل الحج الشامي، أو من قوافل الحج عموما. وعلى سبيل المثال تحصل قبيلة الحسين على صُرّه سنوية ، أو إن شئت فقل إتاوة مقدارها خمسين كيسا من النقود (أى ما يقدر بحوالى ألف جنيه إنجليزى) ، حيث يجرى تقسيم هذه الإتاوة على بعض أفراد هذه القبيلة . ويحصل ولد على على صُرّه بنفس القيمة . أما الفيدان ، الذين يعدون من أقوى القبائل العنزية ، فهم لا يحصلون على أى شيء من الحجاج .

كان الجلاس فى الزمن الماضى يتجولون حول نجد بصورة دائمة . والجلاس معروفون فى سوريا منذ نشوب المعركة التى دارت بينهم وبين القوات البغدادية فى عام ١٨٠٩م ، حول قطعة من الأرض على شكل ركن ، أو بالأحرى زاوية محصورة بين نهرى الفرات والخابور فى مواجهة الرهابة، وبعد أن استولى الجلاس على عدة بنادق صغيرة ، وبعض الخيام ، قاموا بنقل هذه البنادق الخيام إلى الدرعية العاصمة . وقام الجلاس ببيع غنيمة من الخيول تقدر بحوالى خمسمائة حصان إلى عرب عسير اليمنيين . هؤلاء الجلاس هم أشرس القبائل المحبة للحرب فى المنطقة الصحراوية الواقعة بين سوريا والبصرة. وقد تمكن الجلاس مؤخرا – بفضل أعدادهم الكبيرة وقوتهم الضخمة – من فرض إتاوة على كثير من القرى السورية .

البشر

ينقسم البشر إلى فرعين رئيسيين .

١ – **عرب طنا الماجد** ، الذين تنتمى إليهم بعض القبائل الصغيرة مثل الفيدان والسباع .

٢ – **عرب السُلقة**، القسم الأكبر من عرب السلقة يحتل منطقة كبيرة فى الإحساء على الخليج الفارسى ، والإحساء مملوكة للوهابيين . هؤلاء السلقة لهم ثلاث مجموعات فرعية: المضيَّان ، والمطيرف ، وأيضا القبيلة الكبيرة التى يدعونها أولاد سُليمان . وشيخ السَّلقة وابن هدَّال ، المؤيد العتيد للوهابيين . وابن هدَّال هذا شارك فى كل المعارك التى دارت فى الفترة من العام ١٨١٢م إلى عام ١٨١٥ م فى الحجاز ، ضد قوات محمد على ؛ وبفضل جهود ابن هدَّال وحدها أمكن وقف تقدم طوسون باشا وقفا تاما فى ربيع عام ١٨١٥ م ، من المدينة المنورة فى اتجاه القصيم .

لقد ازدادت فى الآونة الأخيرة قوة عرب الفيدان ، واستطاعوا هزيمة الحسين الذين كان يقودهم المهنا ، فى كثير من المواجهات التى جرت بينهما على الحدود السورية .

أولاد سليمان هم أحفاد قبيلة الجعافرة العريقة التى هى فى عرف المنقرضة حاليا ، هناك قبيلة أخرى صغيرة تدعى العواجى تزعم أنها منحدرة من قبيلة الجعافرة العريقة . وهؤلاء العواجة عادة ما يخيمون مع ولد على فى الحوران ، ويشغلون ما يزيد على مائتى خيمة ؛ وهم لا ينتمون إلى قبائل العنزة ، وقد انتقل قسم من هؤلاء الجعافرة إلى مصر أيام الفتوحات الإسلامية ؛ وأحفادهم مستقرون حاليا على ضفاف النيل الغربية فى الوجه القبلى ، بين القرى المتعددة فيما بين إسنا وأسوان . وهنا يجب أن نقول إن هناك شيئا غريبا حول نساء هؤلاء الجعافرة ، اللاتى يشتهرن فى كل من مصر ، والجزيرة العربية، بأنهن ينجبن توائم فى كثير من الأحيان . والمكان المعتاد لإقامة أولاد سليمان هو المنطقة المجاورة لخيبر ؛ وأولاد سليمان يشكلون قبيلة قوية جدا ومحبة للحرب ، وتشغل حوالى خمسة آلاف خيمة .

عرب السباع الذين يعيشون فى الوقت الحالى على الحدود السورية ، كانوا يقيمون قبل ذلك فى نجد . وقد تركوا ذلك المكان قبل اثنى عشر عاما ، مخافة تعرضهم لضغوط الوهابيين .

أهل الشمال

العرب السوريون يستخدمون هذه الكنية فيما يتصل بوضعيتهم الخاصة . وعرب الحجاز يصنفون قبيلة العنزة كلها ضمن أهل الشمال، الوعيل هم أسلاف العنزة ، وأحفاد وعيل ، أو بالأحرى بنو وعيل، معروفون في سجلات التاريخ بأنهم معاصرون وأعداء لمحمد ﷺ . ومجيء العنزة من خيبر ونجد إلى سوريا لم يمض عليه حتى الآن أكثر من مائة وعشرين عاما . والبدو يعللون تزايد أعداد قبائل العنزة وكثرة ماشيتهم على النحو التالي: يقولون إن وعيلا ، جدهم الكبير ، تمكن من خلال ضربة حظ ، من معرفة اللحظة الدقيقة لليلة القدر (ليلة الخامس والعشرين، أو السابع والعشرين من شهر رمضان ، التى يجيب الله فيها دعاء البشر) وضع وعيل يديه على أجزاء محددة من ناقته ، وعلى أجزاء معينة من جسمه ، وراح يدعو الله (أن يبارك تلك الأجزاء التى لمسها . وتقبل الله دعواته ؛ وأعطاه الله بسطة من الأبناء والبنات فى أسرته ؛ واغتنى أهله بفعل تكاثر الإبل . هذه القصة يرويها ويؤكدها كل فرد من أفراد قبيلة العنزة .

الموالى شيخ هذه القبيلة العظيم ذائع الصيت هو الجنج ، وهو واحد من أشجع شجعان سوريا ، وقد قتل غدرا فى حماه ، بواسطة باشا حلب فى عام ١٨١٣ م ، وتقلد ولده البالغ من العمر ستة عشر عاما منصب حامى وراعى صحراء حلب ، كان الموالى سادة متفردين بالبلاد الواسعة المحيطة بكل من حلب وحماه ، وكانوا يحصلون على صُرَّه (إتاوة) ، أو إن شئت فقل : إعانة سنوية ، من قافلة الحج التى كانت تمر فى أراضيهم . وقد جردهم العنزة من هذه المزايا ، وتحولوا الآن إلى مجموعات صغيرة محدودة الانتشار .

عرب الفهلى الدمشقيون ، هى قبائل اشتهرت بسلوكياتها المشينة ؛ وقد أمكن التأكد بشكل عام أن هذه الوصمة المشينة التى تلوكها ألسنة البدو كلهم تنطبق بحق على كثير من أفراد هذه القبيلة ، وهم يحاولون التخفيف من وطأة أخطائهم عن طريق

الكرم وحسن الضيافة . من هنا نجد أن كلا من الموالى والفهلى فى سوريا مشهورون بالخيانة ؛ لكنهم من ناحية أخرى مشهورون بتقديم أنواع الطعام لضيوفهم . والناس ينظرون إلى الفهليين نظرة احتقار لأنهم لا يتورعون عن السرقة من خيام أصدقائهم .

ترجع أصول الحويطات إلى قبيلة بنو عطية ؛ هذه القبيلة العريقة ينحدر منها أيضا كل من الحيوات (الذين يطلق الناس أيضا عليهم اسم اللحيوات ، والطرابين ، والمعازى فى المنطقة الصحراوية فيما بين السويس والقصير) ، وكذلك التياهة (القبائل التى تعيش على الضفة الشرقية من البحر الأحمر ، تحصل على مؤنها التموينية من القرى المحيطة بالخليل، وفى حال عدم وفرة الحصاد فى سوريا) نجد أن هؤلاء العرب يقطعون مسافة مقدارها مسير أربعة عشر يومًا، أو خمسة عشر إلى القاهرة ، التى يحصلون منها على احتياجاتهم الضرورية من القمح .

العمران على الرغم من ارتباطهم بتحالف مع الحويطات ، إلا أنهم لا ينتمون إليهم فى واقع الأمر ، لكنهم يشكلون قبيلة خاصة بهم . والعمران يعيشون فى المنطقة الواقعة بين جبال العقبة والمويلح ، على الضفة الشرقية للبحر الأحمر ، وهم قبيلة قوية جداً تتمتع بروح استقلالية عالية جداً . لقد اعتاد العمران على السلب والنهب؛ لذا فهم مصدر قلق ورعب للحجاج المتجهين إلى مكة (المكرمة) والذين يضطرون إلى المرور عبر أراضيهم . وفى الوقت الذى تمكن فيه محمد على باشا والى مصر، من إخضاع كل البدو الذين يعيشون على طريق الحج المصرى إخضاعا كاملا ، بقى العمران عقبة عنيدة أمام محمد على باشا . فى عام ١٨١٤ م هاجم العمران وسلبوا ونهبوا مفرزة من الخيالة التركية بالقرب من العقبة ؛ فى عام ١٨١٥ م وأغاروا على مقدمة الحج السورية ، عندما كانت فى طريقها من المدينة (المنورة) إلى دمشق . والحدنان واحدة من قبائل العمران الرئيسية .

الدبور والبدول قبيلتان تسكنان المنطقة القريبة من العقبة ؛ وهما متحالفتان مع قبيلة العمران والحويطات : وفى المنطقة نفسها يسكن أيضا السيايحة .

التياهة ، هم أيضًا من عرب الخليل ، أو إن شئت فقل : حبرون – والقبيلة الرئيسية من التياهة هى الحكوك – الطرابين – الذين يقودون القبائل من غزة وحبرون (الخليل) إلى السويس ؛ والعزازمة واحدة من قبيلة التياهة ؛ والوهيدى (أو الوهيدات) فيها أيضا قبيلة أولاد الفقرة . هناك أيضا قبيلة صغيرة أخرى تعيش حول غزة والخليل يسمونها الرتيمات ، وقبيلة أخرى يسمونها الخناصرة ، عرب غزة والخليل يجيئون فى فصل الربيع إلى حدود الترع المتفرعة من النيل فى الشرقية ، لكى يرعوا ماشيتهم على العشب الطيب الذى ينمو بفعل الفيضان .

عرب الطور ، أو الطوارة

هؤلاء العرب يسكنون جزيرة سيناء ، وينقسمون إلى ثلاثة أفرع : الصوالحة ، والمزاين ، والعليقات .

١ – الصوالحة ينقسمون إلى أربعة قبائل : أولاد سيد ،والعوارمة ، والقراشى ، والرحمى . هؤلاء الذين أطلقت عليهم اسم القراشى منحدرين من عرب قريش مكة القدامى ؛ والعرب ينطقون هذا الاسم "قريش" لكن الأوروبيين يقلبون "القاف" "كافا" ويقولون كريش، الصوالحة لديهم حوالى ثلاثمائة بندقية ، لكن ليس لديهم خيول ؛ والصوالحة شأنهم شأن بقية قبائل الطوارة كلها ، اتصالاتهم جد قليلة بجيرانهم الشرقيين .

٢ – المزين – منحدرين عن قبيلة تحمل الاسم نفسه وتعيش إلى الشرق من المدينة (المنورة). والمزين هم والعليقات يقيمون بصورة دائمة فى الأجزاء الشرقية والجنوبية من شبه جزيرة سيناء .

٣ – العليقات هم والمزين يمكن أن يشكلا قوة قوامها ثلاثمائة بندقية فتيلية . والعليقات الذين يستقرون فى النوبة ، أسفل الدر ، يُقال لهم عليقات سيناء . إنهم ينتمون إلى السلالة نفسها هم والتياهة والطرابين ، بالإضافة إلى القبائل الثلاثة الأخرى سالفة الذكر يرعون قطعانهم فى الأجزاء الشمالية من جبل سيناء . هناك

بقايا لقبيلتين فى هذه المنطقة ، وهم أصلا من البربارى ؛ هذه البقايا هم بنو واصل. وبنو سليمان. بعض من بنى واصل يعيشون فى الوجه القبلى على الضفاف الشرقية للنيل، مقابل مريَّت حيث تحولوا إلى زرّاع. وبدو الطور حاليا ليس لديهم خيول .

استكمالا لاستعراضنا لبدو الشرق يتعين علينا أن نورد أسماء تلك القبائل التى تتجول هنا وهناك فى المنطقة المجاورة للحدود الشرقية لدلتا مصر .

عرب الشرقية فى مصر

كان هؤلاء العرب يشكلون قبائل قوية جداً فى يوم من الأيام ؛ وخصوبة الأراضى التى أقاموا فيها هى التى جذبتهم من نواحى شتى ، أثناء حكم المماليك فى مصر . كان عرب الشرقية هم السادة الوحيدون فى تلك المنطقة، وكانوا يحصلون على إتاوة من القرى كلها ؛ وقرى كثيرة كانت ملكا لهم ، إلى حد أن الفلاحين كانوا يتقاسمون الإنتاج معهم . المنطقة المحدودة التى كان هؤلاء العرب يتحركون خلالها ، وكذلك اختلاطهم بالفلاحين (الذين كانوا يصاهرونهم عن طريق تزويج بناتهم لهم) ، كل ذلك سهل من إخضاع محمد على باشا والى مصر ، لهؤلاء العرب ؛ ومحمد على لم يخضع هؤلاء العرب فقط وإنما استأصلهم ؛ وهو عندما فعل ذلك أدى خدمة كبيرة للمصريين ، الذين كان هؤلاء العرب يسيئون معاملتهم . كانت قبائل الشرقية الرئيسة على النحو التالى :

الصوالحة ، وهم يرتبطون بقرابة مع صوالحة شبه جزيرة سيناء الذين أتينا على ذكرهم .

العيايدة، الذين شكلوا قبل قرن من الزمان قبيلة قوامها ستمائة خيال ، هؤلاء العيايدة يخيمون فى بعض الأحيان فى الجبال التى بين السويس والقصير ، لكنهم يوجدون بصفة عامة فى الأرض المنبسطة التى لا تبعد كثيرا عن القاهرة . وهم يشغلون حوالى مائة خيمة ؛ وقبائل العيايدة الفرعية هى السلاطنة ، والجرابنة

والمعازى ، لكن يجب عدم الخلط بين هؤلاء المعازى وبين المعازى الذين أتينا على ذكرهم من قبل . والعيايدة على عداء دوما مع الحويطات . وبعض مخيماتهم موجودة على الطريق السورى المؤدى إلى العريش .

الحويطات تربطهم قرابة بحويطات الشرق ، لكنهم تراجعوا وتدهوروا بعد اختلاطهم بالفلاحين إلى حد أصبح يتعذر معه تمييزهم عن هؤلاء الفلاحين ، والحويطات يتمثل عملهم الرئيسى فى النقل ما بين القاهرة والسويس ، وقبائلهم الفرعية هى : الموالى ، والغنايمة ، والشدايدة ، والزرعينة ، وإجمالى خيام هذه القبائل يصل إلى حوالى ستمائة خيمة .

الحتيم – هذه القبيلة واسعة الانتشار ، فى كل مكان من الجزيرة العربية ، وصلت أعداد كبيرة من أفرادها إلى الوجه القبلى فى مصر ، وراحوا يخيمون فى قوص ، وقفط ، أو إن شئت فقل : كوبتوس .

جهينة – هؤلاء جاءوا من الحجاز ، حيث لا تزال قبيلتهم الرئيسة هناك إلى يومنا هذا .

البلى من عرب الشرق أيضا : هذه القبائل كلها تأتى إما على شكل هاربين ، أو لغرض الإفادة من المزايا التى يجنيها اللصوص من البلاد الغنية مثل مصر . عرب الشرقية كلهم – باستثناء المعازى – يتكلمون اللهجة المصرية ؛ مما جعلهم موضع استهزاء كل بدو الجزيرة العربية ، يضاف إلى ذلك ، أن القبائل البدوية الصغيرة فى سوريا ، التى لم تغادر – على العكس من ذلك – الأجزاء المأهولة بالسكان ، والتى يحيط بها الفلاحون السوريون من كل جانب ؛ هذه القبائل الصغيرة لا تزال تحتفظ بلهجتها البدوية النقية ، وبدو سوريا لم يحدث مطلقا أن اختلطوا بسكان ذلك البلد ، مثلما اختلط البدو المصريين بالفلاحين ، الذين يعيشون بينهم .

العليقات : قبيلة تربطها صلة قرابة بعليقات سيناء . وأصلهما يرجع إلى الصحراء السورية .

الأزايرة : ينتمون إلى الحتيم ، وهناك الكثير من مخيمات الأزايرة فى الوجه القبلى .

قبيلة العمارات .

المعازى : يرعى المعازى قطعانهم فى بعض الأحيان فى مناطق قريبة من النيل ، لكنهم يسكنون بشكل عام فى الصحراء التى بين القاهرة والقصير ؛ والمعازى يشيع استخدامهم فى حرفة النقل بين القصير وقنا وهؤلاء هم الوحيدون الذين احتفظوا بلغة ، ولباس ، وعادات وأعراف بدو الشرق بكل نقائه . كان المعازى يقيمون قبل ذلك جنوبى العمران وشرقهم ، حول المويلح التى لا يزال إخوانهم فيها إلى اليوم . وطوال القرن الماضى ، وبعد المضايقات التى أصابتهم من أعدائهم ، تخلوا عن مواطنهم وبحثوا عن ملجأ لهم فى مصر . هؤلاء المعازى الذين سلكوا الطريق البرى ، وهم القسم الأكبر ، جرى قتلهم بأيدى الحويطات أثناء مرورهم عبر أراضيهم . بعض آخر من المعازى جاءوا بالبحر إلى الطور ، ونزلوا بسلام على أرض مصر ، ليجدوا الشرقية عامرة بالبدو ، ولذلك تراجعوا إلى الصحراء الموجودة شرق النيل . ونظرا لدخولهم فى الحرب مرارا ضد باكوات مصر ، ثم بعد ذلك مع باشا مصر ، فقد قلّت أعدادهم بشكل كبير ، وأقصى قوة لهم فى الوقت الحالى لا تتجاوز مائتى خيال . وهم دائما على خلاف مع بدو العبابدة ، الذين يسكنون المنطقة الواقعة جنوبى طريق القصير . وخلال العشرين أو الثلاثين عامًا الماضية زاد عدد قبائل عرب الشرقية زيادة كبيرة بعد أن أضيف إليهم كلا من :

الهنادى ، قبيلة من بدو المغربين ، الذين اعتنقوا لباس وعادات عرب الباربارى ، والعرب الليبيين . هؤلاء العرب كانوا يقيمون قبل ذلك فى منطقة البحيرة فى الدلتا ، كما كانوا يقيمون أيضا فى الصحراء الممتدة من الأهرام فى اتجاه الإسكندرية . وبعد أن هزمهم أولاد على ، وهم قبيلة أخرى من المُغْربين فى المنطقة نفسها ، وتفوقهم عددا ، اضطر الهنادى إلى التخلى عن الإتاوة التى كانوا يجبونها من قرى البحيرة ، متخلين بذلك عن هذه الميزة لمنافسيهم الأكثر منهم قوة ، وهنا تراجع الهنادى عبر نهر النيل

فى اتجاه الشرقية ، التى يقيمون فيها إلى يومنا هذا . إجمالى قوة قبائل الشرقية تقدر فيما بين خمسمائة وستمائة خيال . قبل ثلاثين عاما كان بوسع عرب الشرقية تشكيل قوة قوامها ثلاثة آلاف خيال فى أضعف الأحوال ، وذلك إن قدر لنا تصديق روايات هؤلاء العرب عن هذه القوة . باشا مصر يفرض حاليا إتاوة على هؤلاء العرب ، ويراقب تحركاتهم بيقظة كبيرة إلى حد أنه لا يسمح لهم بشن الحرب على بعضهم البعض ؛ وهذا هو أشق وأصعب المواقف التى يجرى وضع البدوى فيها . والمنطقة فيما بين بلبيس والصالحية هى أكثر المناطق التى يتردد عليها هؤلاء البدو ، الذين يمكن أن نضيف إليهم ثلاثة قبائل أخرى هى : الحواميد ، وأولاد موسى ، واللبادية .

ونحن إذا ما عدنا من حدود مصر فى اتجاه التخوم الشرقية للبحر الأحمر ، نرى أنفسنا نقتفى أثر مختلف القبائل إلى أن نصل إلى أقصى الجنوب فى كل من الطائف ومكة .

الحويطات والعمران ، (الذين سبق الإشارة إليهما) يمتدان إلى أن يصلا إلى منطقة قريبة من المويلح، ويوجد بين الحويطات والعمران – فى الجبال التى لا تبعد مسافة كبيرة عن البحر – بعض مخيمات البيلى ، وبعض مخيمات من قبيلة الحتيم ؛ وعلى بعد مسافة تقدر بمسير يومين فى اتجاه جنوب العقبة ، فى الوادى الخصيب الذى يسمونه "مقنع"، والذى يشتهر بوفرة النخيل ، نجد عرب المجانة الذين يعملون – إلى حد ما – بالزراعة .

إلى الشرق من العقبة ومجنة، وفى اتجاه طريق الحج السورى ، توجد قبيلة المعازى ، الذين هم فى حالة حرب مستمرة مع العمران . والمعازى يشكلون قوة تمتلك مابين أربعمائة أو ربما خمسمائة بندقية فتيلية ، وهم إخوان المعازى المصريين .

بني عُقبة ، هي القبيلة نفسها التى تسكن المنطقة المجاورة لكيريك ؛ وبنى عقبة هم الذين يمتلكون بلدة المويلح الصغيرة والمنطقة المحيطة بها . كما نجد أيضا جماعات من عرب المساعيد في المنطقة المجاورة للمويلح .

البلى : هؤلاء العرب يسكنون المنطقة الواقعة بين المويلح وقلعة الوجه ، والوادى الذى يحمل الاسم نفسه ، يعد محطة رئيسية على طريق الحج ، ويجرى إمداد هذه المحطة بكمية وفيرة من المياه . قلعة الوجه تقع على الجبل ، على بعد حوالى ثلاثة أميال عن البحر ، الذى يوجد عنده ميناء جيد ؛ والحامية مكونة من حوالى اثنى عشر جندى من المغربين : ويبدو أن هذا هو المكان الرئيسى الذى يقيم فيه البلى ، والبيلى الذين يعيشون فى كل من مصر وسوريا ، أقارب لهؤلاء البلى الذين يعيشون بالقرب من قلعة الوُجه . وفى فصل الربيع يعبر البيلى النيل مع أغنامهم وماعزهم فى قوارب صغيرة إلى الجزر القريبة من الشاطئ ، التى تجود الحياة النباتية فيها بفعل مياه الأمطار ، ويبقون فى هذه الجزر طالما بقيت مياه المطر بين صخور هذه الجزر ، وهناك بعض الحويطات يعيشون جنوبى المويلح ؛ ويطلق عليهم اسم حويطات القبلى تمييزا لهم عن إخوانهم فى الشمال .

الحتيم : يسكن الحتيم منطقة تمتد مسافة مسير ثلاثة أيام من قلعة الوُجه ، فى اتجاه الجنوب إلى جبل الحسّانى. والحتيم هم أكثر قبائل صحراء الجزيرة العربية انتشارا فى سائر أنحاء جزيرة العرب . ومخيمات الحتيم موجودة فى كل مكان : هذه المخيمات موجودة فى سوريا ، وفى الوجه البحرى وفى الوجه القبلى ، والحتيم موجودون أيضا على امتداد ساحل البحر الأحمر إلى اليمن ، وهم موجودون أيضا فى نجد وفى بلاد الرافدين . ولعل كثرة تجوالهم هى التى تقلل احترام الناس لهم عن سائر القبائل الأخرى . والبدوى إذا ما نعت رفيقه البدوى بأنه "حتيمى"، فتلك سبة خطيرة جداً ؛ والسبب فى ذلك أن الحتيم محتقرون ، باعتبار أنهم جنس أو عرق وضيع من البشر ؛ وغالبية القبائل لا يزوجون الحتيم أو يتزوجون منهم . يزاد على ذلك أن الحتيم يجبرون فى كل مكان على دفع إتاوة لجيرانهم البدو ، نظرا لسماحهم لهم

برعى ماشيتهم فى أراضيهم ؛ وأنا أرى ، أننا إذا ما استثنينا المنطقة الواقعة على حدود البحر الأحمر – التى تعد ملكا لهؤلاء الحتيم – نجد أن الحتيم لا ينظر الناس إليهم فى الأماكن الأخرى على أنهم ملاك للمكان الذى يعيشون فيه ، وذلك على العكس من البدو الخلَّص الحقيقيين . من هنا نجد أن الحتيم فى كل من مصر ، وسوريا ، والحجاز ، يدفعون إتاوة على شكل أغنام لكل جيرانهم . هؤلاء الحتيم تخلوا عن روحهم القتالية ، عندما أدركوا تدنى قيمتهم وتدنى نظرة الناس إليهم ، وأصبحوا مسالمين ، لكنهم مراوغون للغاية مما يزيد فى كراهية الناس لهم .

يشاع عن الحتيميات أنهن جميلات ، ومتحررات فى عاداتهن ؛ والعرب يقولون إن عبد الحتيمى لا يحاول الهرب مطلقا لأن سيدته (عمته) لا تتردد مطلقا فى السماح له بتقبيلها . ومع ذلك ، يجب القول إن الحتمان مشهورون بالكرم وحسن ضيافة الغرباء ؛ ولكن يجب أن نلاحظ أن هذه الفضائل فُرضت عليهم ، فى محاولة منهم لكسب حب جيرانهم إلى حد ما . والحتيم شأنهم شأن البدو الآخرين الذين يعيشون فى هذا الساحل ، يعملون فى مجال صيد الأسماك ، وهم يبيعون أسماكهم المجففة إلى بحارة السفن القادمة من الحجاز أو الذاهبة إليه . كما يصطاد الحتيم اللؤلؤ فى العديد من المناطق القريبة من الجزر . وهم يبتاعون مؤنهم وتموينااتهم من المويلح ، ومن الوُجه ، لكنهم يعتمدون على الحليب فى معيشتهم بصفة أساسية ،كما يعتمدون أيضا على اللحوم ، والسمك ، والعسل البرى . وهم لا يمتلكون سوى القليل جداً من الإبل ، وليس عندهم من الخيول شيئا على الإطلاق ؛ لكنهم يمتلكون قطعانا كبيرة من الأغنام ، وهم يصطحبون تلك القطعان لبيعها فى كل من الطور وينبع . البدو – بشكل عام – فقراء على هذه الضفة من البحر الأحمر ، والسبب فى ذلك أن أراضيهم هنا لا تجود فيها المراعى ؛ يضاف إلى ذلك أنهم يعيشون على بعد مسافة كبيرة من المدن ، الأمر الذى يحول بينهم وبين الإفادة من اتصالاتهم بالسكان .

بنو عبس : ما تزال قلة قليلة من بقايا القبيلة الشهيرة العريقة، التى نشأ وتعلم فيها عنترة بن شداد العبسى الشهير تسكن جبل الحسَّانى (الذى يبعد مسير ثلاثة أو أربعة أيام شمالى ينبع) ، وفى الجزيرة المقابلة لذلك الجبل ، التى يطلقون عليها

اسم " الحـرَّة " . هؤلاء هم البدو الوحيـدون الذين لا يزالون يحتـفظون فى الجـزيرة العـربيـة بالاسم "عـبس" ؛ وذلك على الرغم من وجـود كـثـير من القـبـائل التى تزعم انحدارها عن تلك القبيلة الشهيرة ، لكنها تعرف بكُنى أخرى . وبنى عبس شأنهم شأن الحتيم لا يحظون باحترام الناس ؛ يزاد على ذلك أن الاسم "عبسى" إذا ما أطلق على غريب من الغرباء فذلك يكون بقصد سب هذا الغريب، وهذا هو الحال نفسه مـع كلمة " حتيمى " . بنو عبسى يملكون العديد من السفن الصغيرة ، التى يستعملونها فى نقل المؤن والتـمـوينات إلى كل من الحـجـاز والسـويس ؛ وعندمـا يتـوقف سقـوط الأمطار يرعون أغنامـهم القليلة فى جزيرة الحرة سـالفة الذكر . مع بداية القرن الماضى كانت قبيلة عبس لا تزال كبيرة العدد ؛ وإلى يومنا هذا ، تحصل العائلات الصغيرة المتبقية من هذه القبيلة ، على إتاوة من قـافلة الحج المصرية ؛ هذه الإتاوة ، كانت مفروضة من قبل أسلافهم منذ زمن بعيد .

الجهين : المناطق التى تسكنها قبيلة الجهين العظيمة تبدأ من جنوب جبل الحسَّان (شمالى ينبع كما أسلفنا) ، وتمتد بطول ساحل البحر إلى ما بعد ينبع ثم تمتد شرقا إلى حـد إحـدى مـحطات طريق الحج السـورى . وبدءًا من ينبـع ، وفى اتجـاه المدينة (المنورة) يمتلك هؤلاء الجـهين أرضًا تمتد مسافة تقـدر بمسـير حوالى اثنـى عشـرة أو خمس عـشـرة سـاعـة ، والجـهين يمتلكـون أيضـا الوديـان المنزرعـة التى يسـمـونها "ينبع النخيل". هذه القبيلة بعضـها يشتـغل بالزراعة ، لكن السواد الأعظم من أهلها عـبارة عن بدو . والجـهين يكونون القسم الأكبر من سكان ينبع ؛ وعلى الرغم من أن الجهين لا يملكون من الخيل إلى قليلا ، فإن الناس يقولون إنهم يستطيعون تشكيل قوة قوامها ثمانية آلاف بندقية فتيلية . والجهين فى حرب وعراك دائم مع بنى حرب ؛ الذين استطاع الشـيخ الوهابى بفـضل مـسـاعدتهم ، إخـضـا ع الجـهين ، فى حين رفضت القـبـائل الأخـرى سـالفـة الذكـر ؛ والموجـودة جنوبـى العـقـبـة ، الخـضـوع لسـعـود؛ يضـاف إلى ذلك أن سـعـود كـان يرى أن الوقت لم يحن بعـد لمهاجـمة تلك القبـائل فى جبالها ، فى حين راح بين الحين والآخر يؤلب عليهم بعض جماعات السلب والنهب .

الجهاينة يعترفون من الناحية الاسمية بسيادة شريف مكة ؛ يزاد على ذلك أنهم أدوا خدمات كبيرة جداً لباشا مصر ، أثناء استيلائه على المدينة (المنورة) ، فى عام ١٨١٢ م .

الجهاينة شأنهم شأن كل القبائل سالفة الذكر ، والمقيمة جنوبى العقبة ، يحصلون على صُرَّه ، من قافلة الحج المصرية . ليس عندى ما أقوله عن قبائل الجهين الفرعية .

بعد أن وصلت إلى دائرة عرض العقبة ، سوف أمضى قدما فى حصر القبائل البدوية فى الصحراء الشرقية ، فى اتجاه نجد ، ومنها إلى المدينة (المنورة) .

بدو الصحراء فيما بين عقبة الشامى (أو العقبة السورية) والمدينة (المنورة) بما فى ذلك بدو نجد

أستطيع الحديث عن هذه القبائل من واقع ما سمعته عنها ، ومن واقع التقارير المدققة والموثقة ، فى الوقت الذى شاهدت فيه بنفسى أفرادا من كل قبيلة من القبائل التى أحصيها على هذه الصفحات ، وذلك بدءاً من نهر الفرات ، نزولا إلى كل من مكة (المكرمة) والطائف . القبائل التى سوف أبدأ فى وصفها كلها وهابية ، ولا يزال أهلها يعتنقون المذهب الوهابى حتى بعد الحملة التى شنها عليهم محمد على باشا .

المنطقة الصحراوية الواقعة جنوبى العقبة ، والممتدة إلى الحجر ، لا يسكنها سوى العنزة وحدهم . لكن مساقى هذه الصحراء قليلة ، الأمر الذى يجعل البدو لا يستقرون فى مقامهم على طريق الحج ، لكنهم يتخذون لأنفسهم مقاما فى الأجزاء الشرقية من هذه الصحراء ، فى اتجاه جبل الشمر والقصيم . وقبائل العنزة التى تسكن هذه المنطقة على النحو التالى :

أولاد سليمان : إحدى قبائل البشر ، ويشغلون حوالى خمسة آلاف خيمة فى المنطقة المجاورة لخيبر .

الروالة "الجلاس" : وهم أيضا مقيمون فى خيبر .

الفكارة وهم ينتمون إلى ولد على ، فى الحجر - هؤلاء الفكارة مشهورون بشجاعتهم . والقبائل التى نأتى على ذكرها هنا لديها أعدادا كبيرة من الخيول ، وتحصل على إتاوة من قافلة الحج .

بدو جبل الشَّمَّر

بنو الشَّمر شيخهم بن على ، وهو صاحب نفوذ كبير بينهم، وهم لا يملكون من الخيول إلا القليل ؛ لكن بوسعهم جمع ما بين ثلاثة أو أربعة آلاف رجل ، مسلحين جميعا بالبنادق الفتيلية . بعض الشمر من البدو ، والبعض الآخر من الزراع . وجزء من هذه القبيلة موجود فى بلاد الرافدين ، التى ينسون فيها عداءهم للوهابيين .

الدَّغيفات : يمثلون الفرع الأكثر عددا من بنى الشمر .

الجعافر .

الرّباعى : هؤلاء منحدرون من قبيلة بنى ديغام القديمة ؛ التى يطلقون على شيخها اسم عرار الدغامى الذى يتردد اسمه فى حكايات البدو .

الزُّقيرات : وهم منحدرون أيضا من بنو ديغام ،وهم زُرَّاع يقيمون على مقربة من الإمام الحسين . هناك فى جبل الشمر، وفى نجد قبائل بدوية أخرى متعددة ، إضافة إلى القبائل سالفة الذكر ، لكنى لم أستطع التأكد من أسماء هذه القبائل .

بدو القصيم وأجزاء أخرى من نجد

ليست هناك قبيلة واحدة من قبائل الجزيرة العربية الكبيرة بلا مخيم لها فى نجد . وهذا يعنى أن سكان المدن كلها والقرى فى هذا البلد منحدرة من قبائل بدوية ، هم يشبهونها فى عاداتهم وأعرافهم . ومن بين تلك القبائل التى تتجول حول هذا الجزء من البلاد على مدار العام :

السلقة : واحدة من القبائل الفرعية الكبيرة لعرب البشر ، الذين ينتمون إلى العنزة . وابن هدَّال هو شيخ السلقة ، وهو صاحب حظوة عند الوهابيين .

السَّحُون : مشهورون بشجاعتهم ونشاطهم كخيَّالة ؛ وبوسعهم تجميع قرابة المائة خيال .

بنو لام : تربطهم صلة قرابة بمن يحملون هذا الاسم نفسه ، يرعون قطعانهم على ضفاف شط العرب ، وهم لا يشكلون سوى قبيلة صغيرة .

الحتيم : هذه القبيلة لها وجود هنا مثلما لها فى سائر أنحاء الجزيرة العربية .

بنو حُسَّين : قبيلة من العرب الجائلين ، وهى مثل الفرس ، من أتباع سيدنا على ﷺ . تعهدوا باعتناق المذهب الوهابى ، لكنهم ظلوا فى السر موالين للفرس أو بالأحرى للمذهب الشيعى.

الزّعاب : قبيلة لا وزن لها ، تعيش فى كل من نجد والأحساء .

العقيل : كانت العقيل فى الأزمان السابقة قبيلة شديدة البأس ، انحدرت من بنى هلال ، والعقيل ينتشرون حاليا على شكل جماعات صغيرة بين قرى نجد . لكن هناك قبيلة أخرى تدعى أيضا بنو عقيل تأسست وتشكلت منذ حكم السلطان مراد . وعرب نجد كلهم سواء أكانوا مستقرين ، أم بدو ، والذين يترددون على بغداد ، ويستقرون فيها ، يصبحون أعضاء فى قبيلة العقيل البغدادية ، التى لها نفوذ كبير فى ذلك المكان ، كما تعد فى واقع الأمر أقوى مساندى الباشا فى حروبه مع البدو

المحيطين به من ناحية ، وضد ثوار ومتمردى مدينة بغداد من ناحية أخرى . شيخ قبيلة عقيل البغدادية يكون دائما من مواطنى الدرعية ، يجرى اختياره من بينهم ، ويعتمد الباشا ذلك الاختيار . هؤلاء العقيل مشهورون جدا بشجاعتهم . وهم الذين يقودون القوافل من بغداد إلى سوريا ، كما قاموا فى كثير من الأحيان ، بصد الكثير من هجمات القوات الوهابية المتفوقة . والعقيل يقسمون أنفسهم إلى طبقتين فى بغداد .

١ – الزقرته : وهم يشتملون على أفقر الفقراء، والباعة الجائلين .

٢ – الجماميل ، الذين يقودون القوافل . ونجد بين طبقتى العجيل هاتين أشخاصاً ينتمون إلى قبائل كثيرة مختلفة ومناطق مختلفة، مثل الأحساء ، والعارض ، والقصيم ، وجبل الشمر . هؤلاء السكان المستقرون فى سدير (التى تشكل جزءا من نجد) ، والذين يجيئون إلى بغداد ، لا يسمح لهم بأن يكونوا أعضاء فى هذه المجموعة من السكان . يضاف إلى ذلك، أن أعضاء القبيلة الجنوبية من وادى الدواسر ، بالقرب من حدود اليمن ، ليس لهم وجود أيضا بين هؤلاء العقيل .

المطير (أو الإمطير كما ينعتهم الآخرون فى بعض الأحيان) : هى قبيلة قوية ، لديها ألف ومائتا خيال ، وحوالى ستة أو ثمانية آلاف بندقية فتيلية . والمطير يعيشون فى نجد وبخاصة القصيم ؛ ويمتد تواجدهم من القصيم إلى المدينة (المنورة) . وهم ينقسمون إلى أربعة قبائل فرعية أساسية ١ – العَلَاوة ، وشيخهم الدويش ؛ الذى كان حليفا لطوسون باشا فى حروبه مع الوهابيين . ٢– البوراى ، وشيخهم يدعى المريخى ٣– الحرابشة ٤– البورسان، وهناك أيضا بعض من المطير فى بلاد الرافدين ، وهم جميعهم أعداء للعنزة .

من القصيم فى اتجاه المدينة ومكة

باستثناء الجزء الذى يعيش فيه المطير ، وبعض مخيمات الحتيم ، نجد أن هذا الجزء من البلاد تسكنه قبيلة حرب العتيدة ، التى تجىء من حيث العدد بعد العنزة ، كما يشكل الحرب أيضا أقوى اتحاد بدوى فى الجزيرة العربية بعد البدو .

بنو حرب

يمكن من بين هذا التجمع تشكيل جماعة تضم عددا من الرجال ما بين ثلاثين وأربعين ألفا ، مسلحين ببنادق فتيلية ؛ وهذا هو الطابع المميز لبنى حرب ، إذ إن كل قبيلة من القبائل يمكن أن تكون جماعة مستقلة ؛ ومع ذلك فإن الروابط التى تربط الجماعة كلها إلى بعضها أقوى بكثير من الروابط التى تربط العنزة بعضهم إلى بعض . الحرب منهم المستقرون ، ومنهم البدو أيضًا . وكل قبيلة من قبائل حرب تجمع بين هذين الصنفين من البشر . وهم يحصلون على أرباح كبيرة من قوافل الحج السورية والمصرية ، ويمكن أن نطلق عليهم اسم سادة الحجاز . كانت الحرب آخر القبائل التى استسلمت للوهابيين . ولديهم خيول قليلة فى جنوبى المدينة (المنورة) ، لكن كل رجل من أبناء الحرب مسلح ببندقية فتيلية . العرب المنتمون إلى قبيلة حرب يقومون فى معظم الأحيان بحملات سلب ونهب ضد العنزة فى مخيماتهم، وفى سائر أنحاء الحوران بالقرب من دمشق .

امتداد قبيلة حرب شرقى المدينة (المنورة)

المزينة ، الذين يستطيعون تشكيل ما بين أربعمائة وخمسمائة خيّال ، يملكون ألفى بندقية فتيلية . وقد اعتنقوا المذهب الوهابى قبل القبائل الأخرى بزمن طويل ، والمزين (وهم جميعا من البدو) يُصنَّفُون على النحو التالى ، .

الوهوب ، والغربان .

الجناينة ،بعضهم مستقرون ، وزرّاع يزرعون الحقول التى بين التلال شرقى المدينة (المنورة) إلى مسافة يومين أو ثلاثة أيام ، ولعل اسمهم يكون مأخوذا من هذا الاسم .

بنو على : هؤلاء من سلالة فارسية ، وهم من أتباع سيدنا على ، ويصل عددهم إلى حوالى خمسمائة ، وكل واحد منهم مسلح ببندقية فتيلية ، قلة قليلة من الجناين هم المستقرون . والجناين يمتلكون بعض المساقى ، الواقعة فى بعض المناطق الخصبة ، التى يزرعون فيها القمح والشعير ؛ لكنهم يعيشون فى خيام ، ويمضون القسم الأكبر من العام فى الصحراء .

امتداد قبيلة حرب بالقرب من المدينة (المنورة) في اتجاه الشرق وفى اتجاه الجنوب

بنو سَفَر بن عمَّر : هذه القبيلة تضم ما بين مائتين وثلاثمائة بندقية فتيلية ، وحوالى ثلاثمائة خيَّال ؛ وهم يعيشون شرقى المدينة (المنورة) وجنوبها ؛ ويقال إنهم جبناء ، وأصحاب عقيدة فاسدة ؛ الكثيرون منهم يعملون بالزراعة ، والمنطقة التى يسمونها الفراع (التى يجرى منها تصدير التمور إلى سائر أنحاء الحجاز ، والتى يقال إنها شديدة الخصوبة) ، مملوكة لبنى سفر ، شيخ هذه القبيلة يدعى الدوينى ، وقد انضم فى بداية الأمر إلى الجيش التركى ، لكنه انضم إلى صفوف الوهابيين من جديد فى القصيم .

الحاموى الحامدة : يوجدون أيضا شرق وجنوب المدينة (المنورة) ؛ ويتساوون من حيث القوة مع بنى سفر سالفى الذكر ، قلة قليلة منهم من الزرَّاع ؛ وشيخهم محمد بن مُطلب يعد حاليا شيخا لبنى حرب كلهم ، وقد جاء محمد بن مطلب خلفا للجيزى الذى جرى اغتياله فى المدينة (المنورة) فى العام ١٨١٤ الميلادى بإيعاز من الحاكم التركى .

بنو حرب يفرضون إتاوتهم فى المسافة ما بين المدينة (المنورة) ومكة (المكرمة) ، وهى إتاوة كبيرة ، أو إن شئت فقل صُرَّة ، من قافلة الحج السورية، وقافلة الحج المصرية ، ويقال إن الإتاوة التى يحصل الحرب عليها من قافلة الحج

المصرية تقدر وحدها بحوالى ثمانية آلاف دولار ، يتقاسمها الشيوخ فيما بينهم، هم وكثير من الأفراد الآخرين .

الحرب فى جنوبى المدينة (المنورة)

بنو سالم : يعيشون بين واديى الجديدة ،والسفرة فى منازل ينشئونها بين مزارع التمور ؛ لكن قلة من بين بنى سالم هم الذين يعدون من البدو ، وهم يشكلون قوة قوامها ألفان وخمسمائة رجل مسلحون ببنادق فتيلية ، ويقال إنهم جنود ممتازون ؛ وهم يحصلون على إتاوة كبيرة من الحج السورى نظير مرور الحجاج عبر أراضيهم .

الحواسيب هم الذين تنتمى إليهم الحمراء ، وهى قرية ذات حقول وبساتين ، وتقع بين الجديدة والصفراء , والقسم الأكبر من هؤلاء الحواسب عبارة عن بدو .

الصُبح : يستطيعون تجميع حوالى ألفين وخمسمائة رجل ، يحمل كل واحد منهم بندقية فتيلية ، ويقال إنهم أكثر قبائل حرب محبة للحرب . والصبح يمتلكون بدر هى والأراضى المحيطة بها . ولقد شاهدت هؤلاء الصبح وهم جالسون أثناء النهار فى دكاكينهم الصغيرة فى بدر (التى يقام فيها أحد الأسواق) ، فى المساء يركبون جمالهم لكى يعودوا إلى عائلاتهم فى الصحراء . البعض من هؤلاء الصبح مستقرون فى بدر بصورة دائمة ؛ وبدر كانت ملاذا لقبيلة حرب أثناء مواجهتها للوهابيين ، الذين لم ينجحوا مطلقا فى زحزحة الحرب عن هذا الجبل ، كما تنمو فى هذا الجبل أشجار عطرية ونبات السنّا . والصُبح ينقسمون إلى ثلاثة قبائل رئيسية : الشقبان، والرحالات، والخضيرة .

العوف : أكثر قبائل الحرب التى تتسم بالطابع البرى وعدم التحضر ، وهم يحتلون الجبال الواقعة جنوب صبح فى اتجاه رابغ ، ولم يخضعهم الوهابيون إخضاعا تاما ، واسم العوف من الأسماء المخيفة حتى فى مكة ، والحجاج يخشون العوف

بشكل خاص ؛ والسبب فى ذلك أنهم من اللصوص المحترفين ، والمعروف أن هناك جماعة من العوف يقدر عددهم ما بين ثلاثمائة وأربعمائة رجل اعتادوا أن يسرقوا بالقوة أثناء الليل أحمالا من الأشياء الثمينة من بين مخيمات الحجاج . من عادة العوف تعقب قافلة الحج عند عودتها أثناء الليل إلى مسافة تقدر بمسير أيام عدة من المدينة (المنورة) ، أملا فى سلب ونهب المتخلفين منها.

الهيب : فرع من العوف ، نزحوا - كما أسلفنا - إلى سوريا ؛ وهم يحتلون منطقة المراعى الخصبة التى على قمة جبل لبانون .

ذوى ظاهر : يعيشون فى المنطقة من رابغ إلى مكة . ويمكن العثور على مخيمات عدة من مخيماتهم فى المنطقة المجاورة للمدينة (المنورة) ؛ وهم يحتلون هذه المنطقة بما فى ذلك وادى فاطمة . وقد أدى شيخهم الغانم خدمات كثيرة إلى الجيش التركى فى المدينة المنورة .

بنو حرب (فى الأراضى المنخفضة ، أو تهامة أو الغور ، فى المسافة ما بين الجبال والبحر) .

زبيدى - يمتلكون المنطقة الساحلية الممتدة من ينبع إلى جدّة، والليث (من جدة وفى اتجاه الجنوب ، وفى اتجاه الليث يمكن مشاهدة مخيمات الحتيم أيضاً) .

عدد كبير من قبيلة الزبيدى من السكان المستقرين . والمحطة الرئيسة لهم ، تتمثل فى سوق خوليص ،والمنطقة الخصيبة المجاورة له ، على بعد مسافة تقدر بمسير يومين فى اتجاه شمال جده ، لكن فقر المنطقة التى يسكنها الزبيد، هو الذى يضطرهم إلى البحث عن وسائل إعاشة أخرى غير تلك التى تتمثل فى المرعى وحدها . والزبيد مهرة جدا فى صيد الأسماك : والكثيرون منهم بحارة ، ويعملون قباطنة فيما بين ينبع وجدة . وعلاقة الزبيد الوثيقة مع سكان مدن الحجاز ، وكذلك المهنة التى

كانوا يمتهنونها هى التى جعلت بقية قبائل حرب ينظرون إليهم نظرة احتقار وازدراء . وأى فرد من الصُبح ، أو من بنى سالم ، إذا ما نعته أحد بأنه " زبيدى "، اعتبر ذلك سبا خطيرا . يقال إن بعضا آخر من الزبيد مستقرون فى شط العرب ، أسفل بغداد . الخيول جد نادرة عند الحرب فى المنطقة التى تمتد من المدينة (المنورة) إلى مكة (المكرمة) ؛ والشخصيات الكبيرة من الحرب هم الذين يمتلكون قلة قليلة من هذه الخيول .

كنت قد تعرفت على السواد الأعظم من قبيلة حرب سالفة الذكر ؛ كما كانت أسماء أشخاص آخرين من القبائل الأخرى معروفة لى تماما ، على الرغم من عدم معرفتى أماكن إقامة تلك القبائل ، لكن لدى ما يقنعنى بأن تلك القبائل تعيش داخل دائرة عرض المدينة (المنورة) . وأسماء تلك القبائل هى السِّدَّة ، والجِمْلة ، والسعادين.

بدو المدينة (المنورة) بدءًا من المدينة ، وفى اتجاه مكة والطائف ، شرق سلسلة الجبال العظيمة

بنو حرب يسكنون هذه الجبال ، وفى الجزء الغربى المجاور لهذه الجبال فى اتجاه البحر ناحية الشرق من هذه السلسلة الجبلية توجد السهول التى تسكنها قبيلة عتيبة القوية ، التى تمتد أراضيها إلى أن تصل إلى جنوب الطائف . ومراعى عتيبة من النوع الممتاز . ولديهم أعداد كبيره من الإبل والأغنام ، كما أن لديهم خيول ومعروفون بشجاعتهم ، وهم فى حرب دائمة مع جيرانهم . قبل زمن الوهابيين كان العتبان ألد أعداء قبيلة حرب ، وكانوا يحصلون على إتاوة من الحجاج عندما كانوا يمرون عبر أراضيهم ، كان هناك طريقان للحج : أحدهما فى الناحية الغربية من المدينة (المنورة) ، وبالذات من المدينة إلى مكة عبر أراضى قبيلة حرب ، والطريق الثانية تمر

خلال أراضى عتيبة . وأنا على معرفة تامة بفروع عتيبة المختلفة . وقوة عتيبة لا تقل عن ستة آلاف بندقية فتيلية، ولا يمكن أن تزيد عن عشرة آلاف بندقية .

بدو مكة

البدو الذين يطلق عليهم اسم اللحيان يعيشون فى المسافة ما بين مكة وجدة . اللحيّان يرتبطون بصلة قرابة مع الهُذيل، والمطارفة، ويحتلون المحطتين الرئيستين على ذلك الطريق. حدّه ،وباهـزة عبارة عن مكانين يسكن فيهما قلة قليلة من الهذيل فى أكواخ ، كما أن الرحالة والمسافرين يتوقفون عند هاتين المحطتين . أما باقى الهذيل فيرعون قطعانهم فى الجبال المجاورة لهم . والهذيل – فى مجملهم – يستطيعون تجميع حوالى مائتين وخمسين بندقية فتيلية . والبدو المحيطون بمكة كلهم فقراء الحال؛ نظرا لجدب الأرض التى يعيشون عليها ، وارتفاع أسعار السلع، وخصوصًا التموينات، والمؤن فى سائر أنحاء البلاد . وبدو الطائف يعيشون على راحتهم ، ومتحررون من القلق .

من مكة جنوبا ، إلى تهامة ، أو الأراضى المنخفضة

يسكن هذه المنطقة بنو فاهم ، الذين يمدون مكة بالفحم النباتى والأغنام . وبنو فاهم مشهورون بمحافظتهم على نقاء اللغة العربية . وباستطاعتهم تجميع حوالى ثلاثمائة رجل كل منهم مسلح ببندقية فتيلية .

بنو جهادل يحتلون المنطقة الواقعة فى اتجاه الجنوب من بنى فاهم ، فى اتجاه وادى ظَلَمْ . وبنو جهادل يقودون قوافلهم فى وقت السلم من مكة إلى ساحل اليمن .

من مكة شرقا فى اتجاه سلسلة الجبال الكبيرة

فى وادى فاطمة ، ووادى زيم، أو بالأحرى وادى الليمون، يسكن بعض أشراف مكة ، الذين ينتمون إلى قبيلة ذوى بركات، التى يزرع أهلها تلك الوديان الخصبة ، ويخيمون أيضا فى الصحراء المجاورة .

قريش : لم يتبق من هذه القبيلة الشهيرة سوى ثلاثمائة رجل من حملة البنادق الفتيلية ، وهم يخيمون حول جبل عرفات . وعلى الرغم من اسمهم العظيم، وشهرتهم الذائعة ، فإن البدو الآخرين لا يقيمون لهم وزنا كبيرا . ومكة تحصل منهم على تموينها من الحليب والزبد .

الريشية : قبيلة صغيرة لا تستطيع تجميع أكثر من ثمانين بندقية فتيلية . وهم يعملون بحرفة النقل فيما بين مكة وجده ، وهذه القبيلة حديثة الأصل ، وليست ذائعة الصيت ، وينصبون خيامهم الصغيرة فى وادى النومان ، على الطريق من عرفات فى اتجاه الطائف ؛ وهم يزرعون بعض الحقول فى ذلك الوادى .

الكباكبة : يسكن الكباكيب فى المنطقة المجاورة لشدَّاد ، التى هى محطة خلف عرفات من ناحية الشرق ؛ ويستطيعون تجميع حوالى مائة وخمسين بندقية فتيلية .

العدوان : كان العدوان منذ أربعين عاما مضت يكوِّنون قبيلة كبيرة ، تضم حوالى ألف بندقية فتيلية ، وقد أدت حروبهم المستمرة إلى تقليل عددهم إلى ما يزيد قليلا على المائة عائلة ، وقد جرى استئصال شأفة الكثيرين منهم بواسطة محمد على باشا . كان العدوان قبيلة قديمة وعريقة ، ولم يكن لها مثيل فى الحجاز من حيث الشجاعة والكرم وكانوا يجيئون فى المقام الأول من حيث التقدير والاحترام ، يضاف إلى ذلك أنهم كانوا أصدقاء حميمين لأشراف مكة كان من عادة الشريف الحاكم وغيره من أسر الأشراف الآخرين أن يرسلوا أبناءهم ، ليجرى تعليمهم بين البدو ، وبخاصة فى قبيلة العدوان ، الذين كان أطفال الأشراف يظلون معهم إلى أن يتعلموا ركوب الخيل بخفة ومهارة . والمعروف أن محمد ﷺ نفسه جرت تربيته بالطريقة نفسها فى قبيلة بنى

. سعد. وقد أدى نظامهم السياسى الحالى إلى عداء مكة . وشيخ العدوان المرحوم عثمان المضايفة ، صهر الشريف غالب (الذى أسس المضايف، وقُطع رأسه فى إسطنبول) . كان الوهابيون قد عينوه شيخا لبدو مكة والطائف جميعهم . وعقب وفاة المضايفة تبددت القبيلة ؛ ولجأت البقية الباقية منها إلى العتبان، وراحت تعيش بينهم، وفى حمايتهم .

لم يكن للعدوان فى الماضى مراعى محددة لهم ، لكنهم كانوا يخيمون فى كل أنحاء المنطقة من جده إلى الطائف . وبذلك ذاع صيتهم إلى حد أن قال أحد أفراد قبيلة هذيل ذات يوم : " إلى أين نتطلع بحثا عن الكرم والشجاعة ، بعد أن ولّى العَدْوان ؟ " . هناك فرع صغير من هذه القبيلة يدعى " الحرَّث " كانوا كلهم من الأشراف ، من عرق بنى هاشم ، وفى نجد أيضا توجد بعض أفرع هؤلاء العدوان ، وهذه الأفرع ليست كبيرة العدد ، لكنهم يحملون الاسم نفسه .

بدو الطائف

يندرج هؤلاء البدو تحت مسمى " ثقيف " ، ومن بينهم هُذيل فى بعض الأحيان ؛ لكن الهُذيل بشكل عام لا يدخلون ضمن هذه التسمية .

يشغل الهُذيل المنطقة الجبلية المنحدرة على الطريق الواصل بين مكة (المكرمة) والطائف ، وبخاصة المنطقة المحيطة بجبل قورة . والهُذيل يستطيعون تجميع ألف بندقية فتيلية ، ويقال إنهم رماة مهرة ، والهُذيل قبيلة شهيرة ، ذاع صيت شجاعة أهلها . وقد قتل الوهابيون ما يزيد على ثلاثمائة رجل من رجالها قبل أن يخضعوها ويجعلوها تستسلم لهم . والهُذيل ليس لديهم سوى القليل من الخيول والإبل ؛ لكن لديهم أعداداً كبيرة من الأغنام والماعز . وهم ينقسمون إلى ثلاثة قبائل صغيرة : العلويين، والندويين ، وبنى خالد .

الطويرق : يعيش الطويرق جنوبى الهذيل على الجبل نفسه ، ويصل عددهم على حد قولهم إلى حوالى خمسمائة بندقية فتيلية . ويذيع صيتهم بأنهم من اللصوص المهرة ؛ لكن هذه التهمة لا تنسب إلى الهُذيل ، على الرغم من أنهم يعدون من أجرأ وأجسر قطاع الطرق .

ثقيف : واحدة من القبائل القوية جداً ، وتمتلك أرضا منتجة حول الطائف ، كما تمتلك أيضا بعض البساتين، وبعض المناطق الخصبة الأخرى على المنحدر الشرقى لسلسة جبال الحجاز . وبينهم عدد كبير من المستقرين . نصف سكان الطائف ينتمون إلى هذه القبيلة ؛ بعض آخر من ثقيف ما زالوا يعيشون فى الخيام . وهم - شأن سكان الجبال الآخرين - ليس لديهم سوى القليل من الخيول والإبل ، لكن لديهم أعداد كبيرة من الأغنام والماعز .

القبائل الرئيسية من ثقيف هى بنو سفيان ، الذين يحيون الحياة البدوية ؛ ويستطيعون تجميع ما بين ستمائة وسبعمائة رجل ، كل واحد منهم مسلح ببندقية فتيلية . هناك قبيلتان ثقيفيتان فرعيتان هما : مضر ، وربيعة ، وهما تسكنان مع ثقيف، وتشاركان فى مصالح، ومنافع ثقيف، على الرغم من شكى فى انتماء هاتين القبيلتين إلى ثقيف . قبيلة بنو ربيعة الفرعية هذه ، هى التى يحتل النازحون فيها جزءا كبيرا من النوبة ، والذين يوجد خَلَفُهم تحت اسم الكنوز (الذين يطلق عليهم اسم " البرابرة " بطريق الخطأ فى مصر) ، فى منطقة الشلال الأول . وثقيف يستطيعون تجميع حوالى مائتى بندقية فتيلية ؛ وهم الذين دافعوا عن الطائف بالوقوف فى وجه الوهابيين .

القبائل من الطائف فى اتجاه صنعاء فى اليمن

يمكننى الحديث عن هذه القبائل من خلال التقارير ، وسوف ينصب كلامى هنا على القبائل التى جرى وصفها ، أو تناولها فى ترحالى فى الجزيرة العربية .

من الطائف على طول السهل الجنوبى الشرقى

من الشمال إلى الجنوب

إذا ما اتجهنا من الطائف ، نجد فى عُسْمة قبيلة من عتيبة ، كما نجد أيضا قبيلة اليقوم القوية فى تربة ، واعتبارا من تربة وفى اتجاه الجنوب ، وعلى ظهر سلسلة الجبال الكبيرة نجد بنى أقلب . وفى رانية يوجد بنو سبيعة ، وحول وادى بيشة يوجد بنو سالم ، الذين يمتلكون حوالى خمسة آلاف بندقية فتيلية . وإلى الجنوب من بنى سالم نجد بنى قحطان ، وهى قبيلة كبيرة ؛ وهى أقوى القبائل بين عتيبة وحضر موت . ولدى بنى قحطان سلالة طيبة من الخيول ، وجمَّالة القحطان من أفضل الجنود الذين يعيشون فى السهول الجنوبية .

وبنو قحطان : ينقسمون إلى قبيلتين : السَّحامة ، وشيخهم قرملة ، الذى كان صديقا مقربا إلى ابن سعود ، وقبيلة العاسى وشيخها الحيشر ، أشهر المحاربين فى البلاد كلها .

بنو دواسر قبيلة برية ، وليس لها علاقة تذكر بالقبائل المستقرة . وهم من كبار صيادى النعام .

بعض أفراد القبائل سالفة الذكر مثل البجوم ، والسابيسة ، وبنى سالم ، يعملون بالزراعة ، أما الدواسر والقحطان فهم كلهم من البدو . والقحطانيون من أثرياء البدو من حيث الإبل فى الصحراء الشرقية . والقحطانى الذى ينتمى إلى الطبقة المتوسطة يمتلك فى بعض الأحيان عددا من الإبل يقدر بحوالى مائة وخمسين رأسا ، ومن يمتلك منهم أربعين رأسا يدخل فى عداد الفقراء . وإبل القحطان كلها سوداء اللون .

بنو كلب : يصفهم الناس بأنهم متوحشون وغير متحضرين .

بنو يام : يعملون بالزراعة فى وادى نجران ؛ وهم قبيلة مولعة بالحرب ، وقد عجز الوهابيون عن إيجاد الوسائل الكفيلة بإخضاعهم ، بعضهم يعتنق المذهب الشيعى ؛ والمتشددون من القحطانيين ينقسمون إلى أفرع صغيرة مثل : العكمان، والمرّة . وهناك قول مأثور عن محمد ﷺ يقول : " أردأ الأسماء كلها هما الحرب، والمرّة "(*)

بنو خولان ،يقيمون فى الأراضى المتاخمة لحدود إمام صنعاء .

من الطائف وبطول الجبال فى اتجاه الجنوب

بنو سعد . قال المسعودى فى كتابه المعنون " مروج الذهب " عن بنى سعد وعن القحطان (وأنا أذكرهما معا؛ لأنهما يتاخمان بعضهما فى اتجاه الحدود الجنوبية). إنهما يمثلان البقية الباقية من قبائل الجزيرة العربية البدائية . يضاف إلى ذلك أن السواد الأعظم من القبائل الأخرى المحيطة بمكة ، والطائف ، والمدينة (المنورة) شهيرة فى تاريخ الجزيرة العربية بدءاً من انتشار الإسلام ؛ بعض آخر من القبائل التى من قبيل هُذيل ، وقريش ، وثقيف ، وفاهم ، والمزين ، وحرب، كانت موجودة قبل مجىء محمد ﷺ . ولكن القبيلتين سالفتى الذكر (أى بنى سعد والقحطان) شهيرتان بقدومهما واعتناقهما الإسلام ، يوم أن كان القسم الأكبر من تاريخ الجزيرة العربية يستره الظلام الحالك .

الناصرة ، وبنو مالك ، والغامد ، والزهران . كل قبيلة من هذه القبائل تستطيع تجميع ما بين خمسمائة وألف رجل كل منهم مُسلّح ببندقية فتيلية ؛ أما الظهران فيستطيعون تجميع حوالى ألف وخمسمائة بندقية فتيلية .

(*) حديث ضعيف « المراجع ».

الشُمران ، واحدة من القبائل القوية جداً : والشمران موجودة أيضا فى كل من السهول الشرقية والسهول الغربية : ومنهم أيضا العصابلى ، وابن الأحمر ، وابن الأسمر ، وبنى شفرة .

العسير، يمثلون أكثر القبائل عددا، وولعا بالحرب فى تلك الجبال ، ولهم نفوذ كبير على جيرانهم، ويستطيعون تجميع خمسة عشر ألف رجل، كل واحد منهم ببندقية فتيلية .

الأبيدة ، والسنحان، ووادعة (قبيلة قوية) ، والسَّحَّار ، والباقم .

من هنا تبدأ أراضى إمام صنعاء ، والطريق من هنا يؤدى إلى صنعاء مارا بأراضى قبائل سفيان ، وحاشد ، وعمران، والحمدان .

قبائل هذه الجبال يعملون كلهم بالزراعة ، لكن الكثيرين منهم يعيشون فى خيام ، وفى فصل الربيع ينزلون إلى الوديان المجاورة لكى يرعوا قطعانهم ؛ وهم لا يملكون من الخيول والإبل سوى القليل ؛ وغلة أراضيهم وفيرة ، وهم يبيعون ما تنتجه أراضيهم إلى سواحل اليمن .

الخيول والإبل والجراد فى الجزيرة العربية

الخيول . (راجع المجلد الأول ص ٢٠٣ النص الإنجليزى)

هناك فكرة رائجة ، لكنها خاطئة، ومفادها: أن الجزيرة العربية غنية بالخيول ؛ فالخيول غير موجودة إلا فى المناطق التى تتوفر فيها المراعى الخصبة ، ولا تروج إلا فى هذه المناطق وحدها ، أما هؤلاء البدو الذين يسكنون المناطق فقيرة التربة فيندر أن يكون لديهم شيئا من الخيول . وهناك حقيقة مؤداها أن القبائل الغنية بالخيول هى تلك القبائل التى تسكن سهول بلاد الرافدين الخصبة إلى حد ما ، على ضفتى نهر الفرات ، وفى السهول السورية . الخيول فى هذين المكانين يمكن أن تعيش طوال

أشهر على الحشائش والأعشاب الخضراء، التى تنمو بفعل مياه الأمطار فى الوديان والأراضى الخصيبة ، وهذا النوع من الغذاء يعد أمرا ضروريا لنمو الخيول وحيويتها . وقد لاحظنا أن الخيول فى نجد ليست كثيرة العدد، كما هو الحال فى المناطق سالفة الذكر ، يضاف إلى ذلك أن الخيول يندر وجودها كلما اتجهنا صوب الجنوب .

فى الحجاز وبخاصة فى المناطق الجبلية منه ، وبدءا من الحجاز والاتجاه صوب اليمن ، يندر وجود الخيول ، وإذا ما وجدت هذه الخيول فذلك يعنى أنه جرى استيرادها من الشمال . قبائل العنزة على حدود سوريا لديهم ما بين ثمانية وعشرة آلاف حصان ؛ وبعض القبائل الصغيرة التى تتجول فى هذه المنطقة المجاورة للعنزة قد يكون لديها نصف ما لدى العنزة من هذه الخيول . وعرب قبيلة المنتفق وحدها التى تعيش فى الصحراء التى يرويها نهر الفرات ، فى المنطقة ما بين بغداد والبصرة، يملكون ما لا يقل عن ثمانية آلاف رأس من الخيول ؛ يضاف إلى ذلك أن قبيلتى ظفير، وبنى شمر أثرياء فعلا ثراء كبيرا فيما يتعلق بذوات الأربع التى من هذا القبيل ؛ فى حين نجد أن منطقة نجد ، وجبل الشمر ، والقصيم ، (أى من المنطقة المجاورة للخليج الفارسى ، إلى المدينة المنورة) ، لايزيد ما لديهم من الخيل على عشرة آلاف رأس .

القبائل الكبيرة التى تعيش فى منطقة البحر الأحمر ، فيما بين العقبة ومكة ، وفى الجنوب والجنوب الشرقى من مكة إلى اليمن ، نجد أن الخيول نادرة جداً عند هؤلاء الناس الذين يقيمون فى المناطق الجبلية . فى السهل الشرقى الواقع بين بيشة ونجران تتزايد أعداد الخيول بشكل كبير . وقبيلة القحطان التى تسكن هذه المنطقة شهيرة بسلالة الخيول الممتازة ؛ والشىء نفسه ينطبق على قبيلة الدواسر .

ليس من عادة السكان المستقرين فى كل من الحجاز واليمن تربية الخيول ؛ وأنا أعتقد أن متوسط ما يمتلكونه من خيول ما بين خمسة وستة آلاف رأس ، فيما يتصل بالخيول التى فى المنطقة الممتدة من العقبة أو بالأحرى ، الطرف الشمالى للبحر الأحمر فى اتجاه الجنوب إلى شواطئ المحيط بالقرب من حضرموت ، التى تضم

سلسلة الجبال العظيمة والأراضى المنخفضة الواقعة غربى هذه السلسلة الجبلية ، فى اتجاه البحر . والمعروف أن الحرارة الشديدة فى عُمان لا تناسب تربية الخيول ، التى لا تزال جد نادرة فى تلك المناطق . وأنا عندما أؤكد أن إجمالى عدد الخيول فى الجزيرة العربية (باعتبارها محددة بكل من نهر الفرات وسوريا) لا يزيد على خمسين ألف رأس (وهو رقم صغير جداً إذا ما قورن بأجزاء أخرى من آسيا أو أوروبا) فذلك يعنى أن تقديرى لا يقل عن الواقع بأى حال من الأحوال .

فى هذا الجزء من الشرق ، لم أر بلدا غنيا بالخيول مثل بلاد الرافدين ؛والقبائل الكردية هم والبدو يمتلكون فى هذه المنطقة أكبر عدد من الخيول فيزيد على أى مكان آخر فى الجزيرة العربية ، أو البدو مجتمعين ، والسبب فى ذلك أن وفرة مراعى بلاد الرافدين وجودتها تساعدان على تربية الخيول .

أفضل مراعى الجزيرة العربية لا تنتج فقط أكبر عدد من الخيول وإنما تنتج أيضا أفضل السلالات وأنقاها ، وأفضل سلالات الكحيل من بين السلالات الخمسة توجد فى نجد ، فى منطقة نهر الفرات وفى الصحراء السورية ؛ وفى الأجزاء الجنوبية من الجزيرة العربية وبخاصة فى اليمن ، لا توجد سلالات مهمة غير تلك السلالات التى جرى استيرادها من الشمال . بدو الحجاز ليس لديهم سوى قلة قليلة من الخيول ، وتتمثل قوة بدو الحجاز فى الجمَّالة، وجنود المشاة الذين يتسلحون ببنادق فتيلية فقط . والمنطقة كلها الممتدة من مكة إلى المدينة المنورة ، وبخاصة فيما بين الجبال والبحر ، مسافة تقدر بما لا يقل عن مائتين وستين ميلا ليس فيها – من وجهة نظرى – عدد من الخيول يزيد بأى حال من الأحوال على مائتى رأس ؛ وهذه النسبة يمكن ملاحظتها أيضا على طول البحر الأحمر بدءًا من ينبع وانتهاءً بالعقبة .

وصل إجمالى عدد جيوش شيوخ الجنوب الوهابيين الذين هاجموا محمد على باشا فى العام ١٨١٥ الميلادى فى بيسل ، إلى خمسة وعشرين ألف رجل ، لم يكن معهم سوى خمسمائة خيال فقط ، كلهم تقريبا من نجد ، بالإضافة إلى أتباع فيصل أحد أبناء سعود ؛ وكان فيصل ممن حضروا تلك المعركة .

معروف أن مناخ اليمن ومرعاه يشكلان خطرا على حياة الخيل : والمعروف أن كثيرا من الخيول تنفق فى هذا البلد ، الذى لا تتحسن أحواله ؛ واقع الأمر أن السلالة تبدأ فى التدهور اعتباراً من الجيل الأول . ونجد أن إمام صنعاء، هو وحكام اليمن كلهم يحصلون كل عام على مجموعة من الخيول من نجد ، كما يتلقى سكان ساحل البحر عن طريق ميناء سواكن أعدادا كبيرة من الخيول التى تجىء من البلاد المحيطة بالنيل . يزاد على ذلك أن الخيول التى استولى عليها عرب الروالة فى عام ١٨١٠ م ، من قوات باشا بغداد ، جرى بيعها كلها إلى تجار الخيول النجديين ، الذين قاموا بدورهم ببيع هذه الخيول إلى عرب اليمن ؛ ويجب التنويه إلى أنهم لا يعرفون كيف ينتقون السلالات الجيدة ، مثل جيرانهم الشماليين . بدأت الخيول أثناء حكم الوهابيين تندر عاما بعد عام بين أتباعه . لأنهم كانوا يبيعون الخيول إلى مشترين أجانب ، يقومون بنقلها إلى اليمن ، وسوريا ، والبصرة ؛ حيث كان يستعمل ميناء البصرة فى شحن الخيول إلى السوق الهندية ، مخافة أن يقوم سعود أو من سيخلفه بالاستيلاء عليها ؛ والسبب فى ذلك ، هو نشأة عرف يقضى بمصادرة فرس الرجل إذا ما ارتكب عملا مخالفا، أو لمجرد مخالفة أى أمر من الأوامر ، على أن تكون مصادرة الفرس لصالح الخزانة العامة . يزاد على ذلك، أن امتلاك فرس يحتم على صاحبه أن يكون مستعدا دوما للمشاركة فى حروب شيخه ؛ لذا لم يحرص الناس على اقتناء الخيول.

شاهدنا مؤخرا كثيرا من المخيمات فى جبل الشمر خالية من الخيل تماما ، والمعروف أن عرب المطير (فيما بين المدينة المنورة والقصيم) قللوا عدد خيولهم ، خلال سنوات قلائل ، من ألفى حصان إلى ألف ومائتى حصان فقط . كان المرحوم شريف مكة يمتلك سلالة أصيلة من الخيول : وجرى اقتياد أفضل الخيول الذكور من نجد لبيعها فى مكة ، وجرى العرف بين البدو بعد ذلك، على أن تقوم البدويات خلال موسم الحج بأخذ الخيول الذكور لتقديمها هدايا لشريف مكة ، مقابل الحصول على أقمشة حريرية ، وأقراط لآذانهن ، وأشياء أخرى من هذا القبيل .

فى حدود ما وصلنى من معلومات من مصادر وثيقة تمامًا ، أجدنى لا أتردد مطلقا فى القول ، بأن أفضل سلالات الخيول العربية موجودة فى سوريا ؛ وأن الحوران من بين أنحاء سوريا كلها هى موطن الخيول الأصيلة ، التى يجرى فيها شراء الخيول بأول سعر لها ، ويجرى انتقاؤها من بين مخيمات العرب أنفسهم الذين يحتلون هذه السهول فى فصل الربيع . أما الخيول التى يجرى جلبها من البصرة للسوق الهندية ، فهى خيول من الدرجة الثانية ، يجرى شراؤها من التجار البدو ، يضاف إلى ذلك أن العربى لا يمكن أن يوافق على عرض حصان أصيل للبيع فى سوق بعيدة ، دون أن يكون متأكدا من بيع ذلك الحصان . ولقد أكد لى الناس أن الخيول الأصيلة من السلالات الخمس يندر أن تشق طريقها إلى البصرة ؛ وأن السواد الأعظم من الخيول التى يجرى ابتياعها من البصرة ، إنما تكون من الخيول المملوكة لعرب المنتفق ، الذين لا يوافقون مطلقا على بيع السلالات الأصيلة . وأنا أنصح الدول الأوروبية الكبيرة أن يكون لها ممثلون مؤهلون تأهيلا جيدا لكى يقوموا بشراء الخيول من سوريا ، حتى يمكن إحداث نوع من التهجين بين السلالة العربية والسلالات الأوروبية . ويمكن أن تكون دمشق بمثابة أفضل الأماكن لإقامة مثل هؤلاء الأشخاص المؤهلين . وأنا تنتابنى الشكوك حول ندرة الخيول العربية الأصيلة ، وبخاصة أفضل السلالات ، وحول مسألة استيراد هذه الخيول بواسطة إنجلترا ، وذلك على الرغم من مرور كثير من الخيول السورية ، والخيول الباربارية، والخيول المِرِّية، تحت اسم الخيول العربية .

لدى البدو رأى مفاده أن تكاثر الخيول المصرية مع الحصان العربى الأصيل ينتج عنه سلالة جيدة ، وأن هذه السلالة الجديدة تكون أفضل من السلالات الناتجة عن الأفراس السورية ، التى ليست لها قيمة على الإطلاق ، حتى وإن جرى إكثارها مع الحصان الكُحيل . ومن الخطأ التسليم بأن سلالات الخيول الخمسة ، أو بالأحرى السلالات النبيلة ، هى كُلُّها كاملة ومكمَّلة من حيث الصفات والجمال . من بين خلف الحصان الشهير المدعو " الكسوف " نجد أن بعض الأنواع تستخدم فى جر العربات

أو الركوب ؛ كما شاهدت أيضا كثيرا من خلف الحصان الكحيل ، ولم أجد فى تلك الخيول ما يميزها عن الخيول الأخرى سوى الاسم فقط ، وذلك على الرغم من أن القدرة على التحمل صفة شائعة بين سلالة الخيول الصحراوية . ومع ذلك نجد أن الخيول الجيدة من السلالات الخمسة أكثر بكثير من الخيول العامة التى تنتمى إلى السلالة نفسها ؛ لكن من بين هذا الخيول ، لا نجد سوى قلة قليلة هى التى يمكن أن يطلق عليها اسم " خيول الدرجة الأولى " ، فيما يتعلق بالحجم ، والعظم ، والجمال والحركة ؛ والخيول التى لها مثل هذه الصفات العالية يندر وجودها وربما لا يتجاوز عددها ستة أو سبعة خيول فى القبيلة كلها . ومن العدل القول هنا : إن الصحراء السورية لا تقدم أكثر من مائتى حصان هى التى يتطابق وصفها مع هذه الأوصاف الراقية ، وإن هذه الخيول يتراوح ثمنها فى الصحراء ما بين مائة وخمسين ومائتى جنيه إنجليزى . هذه النوعية الأخيرة من الخيول لا يوجد منها سوى قلة قليلة ، وربما لم يصل أى منها إلى أوروبا ، على الرغم من أنه - من خلال هذه النوعية وحدها من الخيول - يمكن تحسين وتأصيل السلالة الأوروبية ، هذا فى الوقت الذى نرى فيه أن الخيول التى جرى تصديرها إلى إنجلترا هى خيول من الدرجة الثانية، أو الثالثة .

بدو الحجاز معتادون على شراء الخيول من قافلة الحج المصرية ، والسلالة التى تنتج عن إكثار الخيول الإناث المصرية مع الذكور جيدة الأصل ، يبيعها أهل مكة إلى عرب اليمن . وأنا لم أشاهد عملية الخصى فى داخل الصحراء .

فى مصر نفسها ، وعلى حدود النيل لا توجد سلالة متميزة بين الخيول . وأحسن سلالات الخيول فى مصر يجرى إنتاجها فى المناطق التى يزرع فيها البرسيم ؛ وهى موجودة فى الوجه القبلى حول طهطا ، وأخميم ، وفرشوط ، وفى الوجه البحرى (فى منطقة المنزلة) قلة قليلة من الخيول العربية التى تأتى إلى مصر ، وهذه ليست مسألة مدهشة ؛ نظرا لأن القدرة على تحمل المتاعب ، لا تشكل سوى مطلب ضئيل جدًا على ضفتى النيل .

الحصان المصرى كئيب المنظر ، خشن الملمس ، يشبه حصان جر العربات أكثر منه للسباق . وعيوب الحصان المصرى هى الأرجل غير المتناسقة ، والركب غير المتناسقة أيضا ، علاوة على عنقه القصير الغليظ ، رأس الحصان المصرى لطيف فى بعض الأحيان ؛ لكنى لم أر مطلقا حصانا مصريا أنيق الأرجل .

الخيول المصرية لا تقوى على تحمل التعب المضنى ؛ لكن الخيول التى يجرى تغذيتها جيداً تكون تحركاتها أروع كثيرا من الخيول العربية ؛ طيش الخيول المصرية يُزِيدُ الطلب عليها فى أعمال الخيالة الشاقة ، وهذه الخاصية وحدها هى التى أدت إلى ذيوع صيت الخيالة المصريين . والخيول المصرية تكون فى بداية الأمر أفضل من الخيول العربية ؛ لكن إذا ما تطلَّب الأمر القيام بمسيرات طويلة ، وإذا ما تطلب الأمر أعمالا فروسية خفيفة ، هنا يظهر أن الخيول المصرية أقل فائدة بكثير عن الخيول التى من سلالة الكحيل .

يحصل البدو الليبيون على احتياجاتهم من الخيول من سلالاتهم الخاصة ، ومن مصر أيضا ، فى المناطق الصحراوية الداخلية ، وأيضا فى اتجاه بربارى ، يقال إن هذه المنطقة تحتفظ بالسلالات العريقة من الخيول العربية ؛ لكن ذلك ليس هو الحال فى المنطقة المجاورة لمصر ، حيث يجرى تمييز السلالات الغريبة تمييزا طفيفا ، كما هو الحال فى مصر ، هؤلاء البدو الليبيون شأنهم شأن بدو الجزيرة العربية يركبون أيضا إناث الخيول .

فيما يتصل بسلالات الخيول العربية ، يتعين علىّ هنا أن أضيف، أن المناطق الداخلية من الصحراء لا يشير البدو فيها إلى سلالات خيولهم ؛ والسبب فى ذلك أنهم جميعا يعرفون سلالات خيولهم، بل أنسابها أيضا ، كما يعرفون أيضا السلالة النسبية لملاك هذه الخيول . لكن البدو عندما يصحبون خيولهم إلى السوق – فى أى بلد من البلدان – مثل البصرة ، أو بغداد ، أو حلب ، أو دمشق ، أو المدينة (المنورة) ، أو حتى مكة ، يحملون معهم شهادة نسب مدونة ، يقدمونها للمشترى ؛

والمناسبات التى من هذا القبيل يستحيل على البدوى فيها أن يكون بلا شهادة نسبية كتابية لفرسه التى يبيعها ؛ لكن فى المناطق الصحراوية الداخلية نرى البدوى يضحك سخرية واستهزاء إذا ما طلب أحد منه شهادة نسب لفرسه . ولعل ذلك يصحح تلك الرواية الخاطئة ، الواردة فى مكان آخر ، عن موضوع الشهادة النسبية التى من هذا القبيل .

فى الوجه القبلى فى مصر نجد عرب المعازى وعرب الحتيم ، الذين يقطنون الصحراء ما بين النيل والبحر الأحمر ، محافظين فيما بينهم على سلالة الخمسة . والخيل بين المعازى والحتيم مملوكة ملكية مشتركة بين الجانبين ، وذلك طبقا لما هو سائد فى الجزيرة العربية . والمعازى والحتيم يقسمون الحصان إلى أربعة وعشرين قسما ، أو إن شئت فقل : أربعة وعشرين قيراطا (طبقا للنظام تقسيم الأراضى فى مصر ، الذى يتم عن طريق وحدة القيراط) ، ويقوم أشخاص مختلفون بشراء ثلاثة قراريط ، أو ثمانية قراريط من فرس أنثى ، على أن يتقاسم الملاك بعد ذلك المزايا العائدة من بيع مواليد الفرس حسب النسب المحددة بينهم . والجنود فى مصر لا يعرفون إلا القليل جداً عن السلالة الحقيقية لخيولهم ، إلى حد أن قوات إبراهيم باشا عندما استولت فى عام ١٨١٢م على خمسة خيول من سلالة الكُحيل ، وكانت مملوكة للحتيم ، راح الجنود يبيعون هذه الخيول لبعضهم البعض ، كما لو كانت خيولا مصرية عادية ؛ فى الوقت الذى قدر ملاكها السابقون أثمانها بثلاثة أضعاف المبلغ الذى دفع فيها .

يمكن فى مصر شراء حصان جيد من خيول الفروسية نظير مائة دولار إسبانى . وأعلى ثمن يدفع فى حصان مصرى هو ثلاثمائة دولار ؛ لكن البدوى لا يدفع مطلقا خمسين دولارا ثمنا لمثل هذا الحصان . فى زمن سابق كان المماليك فى مصر يُقَيّمون كحيل الصحراء تقييما عاليا ، وكانوا ينفقون مبالغ كبيرة طلبا لزيادة سلالة الكحيل فى مصر . الحكام الحاليون فى هذه البلاد لا تشدهم العاطفة نفسها إلى

الخيول الأصيلة مثلما كان يفعل أولئك الذين جاءوا قبلهم ؛ الذين تبنوا بعض الأفكار العربية ، واستنوا سنة فيما بينهم للحصول على المعارف الدقيقة عن الخيول ، وأن يجعلوا من إسطبلاتهم منشآت فاخرة .

وأنا هنا سوف أورد أسماء بعض سلالات الخيول التى سبقت الإشارة إليها :-

الثامرية : وهو من سلالة الكحيل .

النزّاهى : من سلالة الحدابا، بعض القبائل تورد ذكور التراخى ضمن الخيول الأصيلة .

المنيكى ، والجلف: لا يدخلهما الناس ضمن السلالات الخمسة ، وبخاصة عرب نجد .

سلالتا الحدابا ، والداهمة : تقيمان تقييما عاليا فى نجد .

الخيول من سلالة المسنًّا (من سلالة الكحيل) لا تستعمل ذكورا مطلقا فى نجد .

يستعمل البدو كل خيول السلالات الخمس كذكور . وأول الذكور التى تنجبها فرس ، ويكون من سلالة غير السلالات الخمس ، لا يستعمل مطلقا فى التكاثر على الرغم من سماته الجميلة . والفرس المفضل عند ابن سعود التى كان يركبها دوما فى حملاته ، كانت تدعى "قراية" ، وقد ذاع صيتها فى سائر أنحاء الجزيرة العربية ، وقد أنجبت مهرا رائع الجمال والامتياز . ومع ذلك ، لم تكن تلك الفرس من السلالات الخمس ، ولذلك لم يسمح ابن سعود باستعمال ذلك الذكر فى عملية التناسل ؛ ولما احتار ابن سعود فيما يمكن أن يفعله بذلك الحصان ، أرسله هدية لشريف مكة . كانت الفرس قراية قد اشتراها ابن سعود من بدوى من عرب القحطان نظير مبلغ ألف وخمسمائة دولار .

حدث أن قامت فرقة من الخيالة الدروز بمهاجمة جماعة من البدو فى الحوران فى صيف عام ١٨١٥ م ، وطاردوهم إلى داخل مخيماتهم ، حيث جرى قتلهم نظرا للتفوق العددى ، فيما عدا رجل واحد أفلح فى الهرب ، وراح العديد من البدو

الراكبين يطاردون ذلك الهارب ؛ لكن فرس ذلك الرجل استمرت على سرعتها ساعات عدة على الرغم من النصب والإرهاق الذى أصابها ، الأمر الذى صعّب على البدو اللحاق بذلك الهارب ، وقبل توقف مطارديه عن مطاردتهم إياه ، نادوه واعدين إياه بالمقام والسلامة ، وراجين إياه السماح لهم بتقبيل جبين فرسه الممتاز ، ولما رفض الرجل ذلك ، توقف البدو عن مطاردته ، وراحوا يدعون لذلك المخلوق النبيل ، وكانوا يتعجبون وهم ينادون على صاحب الفرس قائلين : " اذهب واغسل أقدام الفرس ثم اشرب ماء الغسل هذا ". هذا التعبير يوضح مدى حب البدو للخيول التى من هذا القبيل ، ومدى تقدير البدو للخدمات التى تؤديها لهم هذه المخلوقات .

البدو لا يسمحون لإناث خيولهم بالتكاثر إلا بعد أن تمضى الفرس عامها الخامس ؛ ولكن الطبقات الفقيرة التى تتطلع إلى الأرباح والفوائد الناجمة عن بيع الأفلاء(*) لا ينتظرون إلى ما بعد العام الرابع .

فى نجد يدفعون دولارا إسبانيا نظير استعمال الحصان الذكر فى عملية التناسل ؛ ولكن صاحب الحصان قد يرفض تقاضى مثل هذا الدولار : إذا ما رأى أن من الأفضل الانتظار إلى أن تضع الفرس وليدها . وإذا ما أنجبت الفرس فلوة ، يصبح من حق صاحب الحصان المطالبة بناقة عمرها عام واحد ؛ وإذا ما أنجبت الفرس فلوا ، جاز له أن يأخذ جملا صغيرا مقابل الاستفادة من حصانه .

البدو لا يسمحون مطلقا للحصان الوليد أن يسقط على الأرض أثناء ولادته ، وإنما يستقبلونه فوق أيديهم ، وبذلك يُعزّونه ويقدرونه ساعات عدة ، وينشغلون بغسل وتنظيف أطرافه الصغيرة ، ويروحون يدللونه كما لو كان طفلا صغيرا . بعد ذلك يضعون ذلك الوليد على الأرض ، ويروحون يراقبون خطواته الضعيفة باهتمام بالغ ، مشخصين بذلك عيوب ومزايا رفيقهم المستقبلى .

(*) واحده " فلو " وهو المهر الصغير يفطم أو يبلغ السَّنة . (المترجم)

الناس فى نجد يغذون خيولهم على التمور بصفة دائمة ، فى الدرعية، وفى الأحساء يجرى خلط التمور بالبرسيم، أو نباتات البرسيم الجافة (الدَّريس) ليقدم بعد ذلك غذاءً لتلك الخيول . ومع ذلك ، يعد الشعير العلف الأكثر شيوعا فى سائر أنحاء الجزيرة العربية . السكان الأثرياء من أهل نجد يقدمون اللحم فى كثير من الأحيان لخيولهم ، وهذا اللحم يمكن أن يكون نيئا أو مطهواً ، كما يقدمون للخيول أيضا فضلات طعامهم . أعرف رجلا من بلدة حماة ، فى سوريا أكد لى أنه فى أحيان كثيرة ، كان يطعم خيوله لحما مشويا قبل بداية الرحلة الشاقة ، مستهدفا بذلك زيادة قدرة هذه الخيول على تحمل مشاق هذه الرحلة . هذا الشخص نفسه حكى لى أنه خشى أن يبدى حاكم البلدة إعجابه بحصانه ، ولذلك بادر الرجل بتغذية حصانه على لحم الخنزير المشوى طوال أربعة عشر يوما، الأمر الذى أهاج الحصان إلى حد تعذر التعامل أو السيطرة عليه ، وبالتالى لم يعد الحصان محطا لإعجاب الحاكم .

لقد شاهدت فى مصر خيولا رذيلة جرى علاجها من داء العض ، عن طريق فخذ خروف بعد إخراجه من النار مباشرة : من هنا يؤدى الألم – الذى يُحِسُّهُ الحصان وهو يقضم اللحم الحار ، بعد تكرار هذه العملية مرات قليلة ، إلى تخلى الحصان عن تلك العادة السيئة ، أو إن شئت فقل : عادة العض السيئة . الخيول المصرية أقل لطفا من الخيول العربية من الناحية المزاجية ، هذا يعنى أن الخيول المصرية تكون مشاغبة فى معظم الأحيان ، وتحتاج إلى ربطها بصورة دائمة ، فى حين تروح خيول الجزيرة العربية تتجول حرة، وفى هدوء حول المخيمات، شأنها شأن الإبل تماما . السُّيَّاس المصريون مشهورون فى سائر أنحاء الشرق بتعاملهم مع الخيول ؛ هذه الشهرة وصلت إلى حد أن الباشوات وعلية القوم فى سائر أنحاء تركيا الآسيوية، يجعلون فى خدمتهم دوما اثنين من هؤلاء السُّياس المصريين ، وهم يمشطون جلد الحصان لتنظيفه بمعدل أربع مرات يوميا ، وينفقون كثيرا من وقتهم وجهدهم فى هذه العملية ، إلى حد وجود عدد من السياس بعدد الخيول الموجودة داخل الإسطبل ، على أن يقوم السائس الواحد على أمر حصان واحد أيضًا .

الشيخ الوهابى ، الذى يملك – وبلا منازع – أحسن سلالات الخيول فى الشرق كله ، .لا يسمح مطلقا بركوب الخيول الإناث قبل أن تكمل عامها الرابع من العمر ، أما عامة البدو فيركبون الإناث من الخيول قبل أن تصل إلى العام الثالث من عمرها .

لقد منع محمد بن عبد الوهاب أتباعه أن يبيعوا ثلث الفرس الأنثى مثلما يفعل العنزة فى الشمال ، الرجل يعتقد أن هذا العمل يؤدى فى معظم الأحيان إلى ألاعيب الغش والخداع غير الشرعية : لكنه يسمح ببيع نصف الفرس بدلا من الثلث . (راجع الملاحظات السابقة عن الخيول فى الجزء الأول صفحة ٢٠٣ النص الإنجليزى) .

الإبل

(راجع الجزء الأول ص ١٩٤ النص الإنجليزى)

هناك فرق كبير بين سلالات الإبل فى المناطق الشمالية، والمناطق الجنوبية . فى كل من سوريا وبلاد الرافدين نجد الإبل يكسوها وبر كثيف ، وأحجامها بشكل عام أكبر بكثير من أحجام إبل الحجاز ، كما نجد وبر إبل الحجاز غير كثيف . والجمل النوبى وبره قصير مثل وبر الغزال ، وبالمقابل أيضا نجد صوف الإبل النوبية قصير أيضا ، الأمر الذى يحرم البدو النوبيين من العيش فى خيام (التى تصنع فى الجزيرة العربية من شعر الماعز ووبر الإبل) ، الأمر الذى يضطر هؤلاء البدو إلى أن يبنوا لأنفسهم أكواخا سهلة النقل يصنعونها من الحصير والبوص. إبل الجزيرة العربية غالبا ما تكون بنية اللون ، ومن بين هذه الإبل أيضا عدد كبير من الجمال سوداء اللون . وكلما توغلنا جنوبا فى مصر زاد تحول اللون من البنى إلى البنى الفاتح . وفى النوبة تكون الإبل فى معظمها بيضاء اللون ، وأنا لم أر قط جملا أسود فى النوبة .

أكبر الإبل حجما هى إبل الأناضول ، التى هى من السلالة التركمانية ، وأصغر الإبل التى شاهدتها حجما هى جمال اليمن . فى الصحراء الشرقية التى يشيع فيها صيت الإبل وقدرتها على الحمل ، نجد أن بنى طىء ، (فى بلاد الرافدين بالقرب من نهر الفرات) هم الذين يقومون بحرفة النقل هذه .

الإبل يندر وجودها فى البلدان الجبلية ؛ لكن من الخطأ القول بأن الإبل لا تستطيع صعود التلال . من هنا نجد أن الإبل تكون محدودة العدد فى الحجاز نظرا لندرة المراعى . أغنى المناطق بالإبل هى نجد بلا أدنى شك ، والإبل فيها موجودة بأعداد كبيرة ، الأمر الذى يجعل الناس يطلقون عليها اسم " أم الإبل"، و" أم الجمال " . ونجد هى التى تمد سوريا ، والحجاز ، واليمن بالجمال ، إذ أن ثمن الجمل الواحد فى هذه البلاد يعادل ضعف ثمنه فى نجد . أيام مقامى فى الحجاز ، كان الجمل يقدر ثمنه بحوالى ستين دولارا ؛ وقد أدى افتقار الحجاز إلى المرعى وندرة المؤن والتموينات إلى نفوق ما لا يقل عن ثلاثين ألف جمل كانت مملوكة لباشا مصر ، يوم أن كان مسيطرا على الحجاز .

والتركمان هم وأكراد الأناضول يشترون كل عام ما بين ثمانية أو عشرة آلاف جمل من الصحراء السورية ، والقسم الأكبر من هذه الإبل يجرى جلبه من نجد عن طريق التجار . هؤلاء التركمان والأكراد يستعملون هذه الإبل فى إكثار سلالة الإبل التركمانية التى يسمونها " المايا "(راجع الرواية السابقة) .

ليس من بين بلاد الشرق بلد أشهر من نجد فى مجال تكاثر الإبل ، وبخاصة فى سنوات الخصب والنماء . يضاف إلى ذلك، أن إبل نجد تعد أقل حساسية للأوبئة المرضية (وبخاصة مرض الجم ، الذى يخشاه الناس ويخافونه فى مختلف المناطق الصحراوية) ؛ والبدو يفضلون الإبل النجدية لهذا السبب ، ولذلك يجيء هؤلاء البدو من الأصقاع النائية فى الجزيرة العربية ، إلى نجد مستهدفين بذلك تجديد قطعانهم .

النياق مفضلة دوما عند البدو ، وقيمة الناقة أعلى من قيمة الجمل عند هؤلاء الناس . فى سوريا ومصر الأمر عكس ذلك تماما ، حيث يطلب الناس الذكور طلبا لقوتها وقدرتها على حمل الحمولات الثقيلة ، ومن هنا تكون قيمة الذكور أعلى من قيمة النياق ، سكان بلدان وقرى نجد لا يركبون سوى النياق أثناء القيام بالرحلات؛ نظرا لأن النياق تصبر على العطش أكثر من الذكور ؛ لكن البدو يفضلون الجمال الذكور فى الركوب ، الحمولة المعتادة لجمل الجزيرة العربية تتراوح بين أربعمائة وخمسمائة

رطل إنجليزى فى المسافات القصيرة ، وفى المسافات الطويلة تتردد هذه الحمولة بين ثلاثمائة وأربعمائة رطل . كانت الإبل المستخدمة فى العامين ١٨١٤ و ١٨١٥ لنقل مؤن وتموينات محمد على باشا فيما بين جدة والطائف ، لا تزيد حمولة الجمل الواحد منها على مائتين وخمسين رطلا ، والإبل المصرية جيدة التغذية والشرب ، تتساوى مع الإبل الأناضولية من حيث القوة ؛ والجمال كبيرة الحجم فى القاهرة يمكن أن تحمل ثلاث جوالات من البن ، أى ما يعادل ألف وخمسمائة وزنة ، أو ثقل من البن من مدينة القاهرة إلى المرفأ المائى ، على بعد مسافة تقدر بحوالى ثلاثة أميال ، هذا يعنى أن هذه الإبل تحمل حوالى عشرة آلاف وزنة أو ثُقل من القاهرة إلى السويس ؛ والمسافة بين القاهرة والسويس تقدر بمسير ثلاثة أيام . هذا يعنى؛ أنه كلما طالت المسافة وقل عدد الآبار التى على الطريق أدى ذلك إلى تخفيف حمولة الإبل ، وإبل دارفور شهيرة بقوتها وقدرتها على تحمل المتاعب الناجمة عن ثقل الأحمال ؛ وهى تتفوق فى هذا الصدد على إبل شرق إفريقيا كلها . والإبل التى تشارك فى قافلة دارفور المتجهة إلى مصر لا يحمل الواحد منها سوى أربعة قناطير ، أما جمال سِنَّار فيحمل الواحد منها ثلاثة قناطير ونصف القنطار ، لكن إبل سنار لا تتساوى مع إبل دارفور من حيث الحجم .

تتفاوت بين مختلف الإبل القدرة على تحمل العطش ، الجمل الأناضولى المعتاد على المناخات الباردة ، التى تحيط بها البلدان وفيرة المياه من كل جانب ، لابد من عرضه على الماء كل يومين ؛ وفى فصل الصيف إذا ما امتدت هذه الفترة إلى ثلاثة أيام فقد يتسبب ذلك فى نفوق الجمل عطشا أثناء الرحلة . أما فى فصل الشتاء ، وفى المناطق السورية وفى صحراء شمالى الجزيرة العربية يندر أن تشرب الإبل ، اللهم إلا إذا كانت قائمة برحلة من الرحلات ؛ ومعروف أن العشب الطرى يرطب أمعاء هذه الإبل فى هذا الفصل من العام . فى فصل الصيف يجب أن تسقى الإبل بواقع مرة كل أربعة أيام على أن تكون السقاية فى المساء ؛ والجمل النجدى إذا ما تعرض للعطش أكثر من اللازم خلال رحلة من الرحلات قد يموت عطشا .

وأعتقد أن أربعة أيام كاملة هى الحد الأقصى لتعرض الإبل للعطش، وتحمله فى سائر أنحاء الجزيرة العربية فى فصل الصيف ، وليس من الضرورى ، بل لا يجب تعريض الإبل للعطش فترات أطول من ذلك ، والسبب فى ذلك أنه لا توجد مناطق للسقيا على الطريق عبر الجزيرة العربية ، تقل مسافتها عن مسير ثلاثة أيام ، أو ثلاثة أيام ونصف اليوم . وفى حال الضرورة القصوى ، يمكن لجمل الجزيرة العربية أن يبقى بلا شرب طوال خمسة أيام ، لكن الرحَّال يجب ألا يعول كثيرا على هذه المسألة غير العادية تماما ؛ يزاد على ذلك أن الجمل عندما يمضى ثلاثة أيام كاملة بلا ماء ، يبدأ فى الكشف عن دلائل غضبه واستيائه .

الإبل المصرية المحلية أقل تحملا للمتاعب عن الإبل الأخرى التى أعرفها ؛ والإبل المصرية بحكم ارتوائها بالماء منذ طفولتها من ناحية والعناية بتغذيتها من ناحية أخرى على ضفاف النيل الخصيبة تصبح غير معتادة على رحلات الصحراء الطويلة ؛ يزاد على ذلك أن أعدادا كبيرة من هذه الإبل تنفق على الطريق أثناء رحلة الحج . ليست هناك إبل فى أى مكان آخر يمكن أن تتحمل العطش لفترة طويلة مثل إبل دارفور . والقوافل التى تفد من بلاد دارفور على مصر يتعين عليها قطع مسافة يقدر طولها بمسير تسعة أو عشرة أيام على طريق خال من الماء ؛ وهذه الإبل تتحمل حرارة الصيف طوال هذه المسافة . صحيح أن الكثير من هذه الإبل ينفق على الطريق ؛ وصحيح أن أى تاجر من التجار لا يقوم بأى رحلة من هذه الرحلات إلا ومعه جملان احتياطيان ؛ ولكن القسم الأكبر من هذه الإبل يصل إلى مصر . وليس هناك شك فى الحقيقة التى مفادها أن جمل الجزيرة العربية لا يستطيع القيام بمثل هذه الرحلة الشاقة ، ناهيك عن الجمل السورى أو الجمل المصرى ، هذا يعنى أن الجمال الإفريقية أقوى وأصلب من إبل الجزيرة العربية .

على الرغم من سماعى نكاتا كثيرة عن أعراب أصابهم كرب عظيم بسبب افتقارهم إلى الماء فى رحلاتهم الطويلة ، فإنى لم أسمع عن ذبح جمل أملا فى العثور على شىء من الماء فى معدته . وأنا دون إنكار لحدوث مثل هذا الأمر أجدنى لا أتردد

فى التأكيد على وقوعه ولكن بصورة نادرة تماما ؛ واقع الأمر أن المرحلة الأخيرة من العطش تجعل الرحال غير راغب، وغير قادر على تحمل مشقة السير إلى حد يجعله يواصل رحلته على ظهر دابته على أمل العثور على الماء؛ بدلا من تعريض نفسه للهلاك، بسبب ذبحه للحيوان الخدوم . لقد شاهدت مرارا إبلا مذبوحة ، لكنى لم أكتشف فى معدة أى منها أى شىء من الماء ، اللهم باستثناء تلك الإبل التى جرى سقيها فى اليوم نفسه . معروف أن قوافل دارفور تعانى الأمرَّين بسبب نقص الماء ، إلا أنهم لا يلجأون مطلقا إلى العمل سالف الذكر ، أى ذبح الجمل أملا فى العثور على الماء فى معدته . قد يحدث ذلك فى مناطق أخرى فى إفريقيا ، لكنه غير معروف فى الجزيرة العربية ؛ ولم أسمع مطلقا فى الجزيرة العربية أو النوبة عن خلط بول الإبل بالماء للتخفيف من عطش الجمل فى حال الهياج الشديد .

هذا الذى يسمونه فى مصر "الهجين" ، وفى بلاد العرب "ذلول" (هما مصطلحان يعنيان الإبل المدربة على الركوب) ، هما فى واقع الأمر السلالة نفسها التى تحمل الأثقال ، ولا يميزها عن إبل الحمل سوى أشياء طفيفة جدا من قبيل الأشياء التى تميز حصان الصيد عن حصان جر العربات . والعربى عندما يدرك أو يلاحظ فى بعيره الصغير دلائل صغر الحجم ، والنشاط الزائد عن الحد ، يبدأ فى تدريب ذلك البعير على الركوب ؛ وإذا ما كان الوليد أنثى ، حاول العربى مقارنتها بذكر (جمل) أصيل . واستعمال الجمل الذكر فى التكاثر يعطى صاحبه الحق فى تقاضى دولار واحد فى كل مرة ، وهذا عرف شائع بين بدو الجزيرة العربية ؛ وهذا هو الأجر أيضا الذى يعطى للحصان فى عملية التكاثر . والسلالات التى أتيت على ذكرها هى إبل حمل الأثقال ، إضافة أيضا إلى الإبل الخفيفة الأخرى التى تستعمل فى الركوب .

يقال إن أفضل إبل الركوب فى الجزيرة العربية كلها ، موجودة فى منطقة عُمان ويقال أيضا إن هذه الإبل هى الأسرع عدوا ، والأسهل خطوا . الذلول العمانى مشهور فى أغانى العرب كلها ، وقد تلقى محمد على باشا ، أثناء وجودى فى جدة ، اثنين من إبل الذلول هذه ، من إمام مسقط على سبيل الهدية وجرى إرسال هذين

الجملين إلى مصر بطريق البحر . من حيث المظهر يصعب تمييز هذا النوع من الإبل عن الإبل الأخرى فى الجزيرة العربية ؛ أرجل هذه الإبل أكثر استقامة عن الإبل الأخرى ، ولكنها أرفع من أرجل إبل الجزيرة العربية الأخرى ؛ لكن عيون هذه الإبل فيها شىء يدل على نبلها ، كما أن بنيتها العامة فيها ذلك الذى يميز السلالة الأصيلة عن السلالة العامة . الذلول الأخرى فى الجزيرة العربية ، التى هى من سلالات عالية القيمة ، موجودة لدى عرب الحويطات والسباع (عائلة من عائلات العنزة) ، والشرارات. ، فى شرق إفريقيا ، حيث يطلق على " الذلول " اسم " الهجين " نجد أن سلالة الإبل السِّنَّارية ، وسلالة إبل بدو النوبة هما السلالتان المفضلتان على السلالات الأخرى كلها فى الركوب ، و إبل دارفور ثقيلة جدا على نحو يجعل من الصعب استعمالها هجنًا للركوب .

الهجن النوبية طيبة، وقابلة للتعليم ، ولها حركة سريعة طيبة على نحو يعوض الحاجة إلى الخيول ، وذلك على نحو أفضل من الإبل الأخرى ؛ السواد الأعظم من الإبل النوبية يميل لونها إلى البياض ، ومن حيث السرعة نجد أن الإبل النوبية تتفوق على مختلف الإبل الأخرى التى شاهدتها فى سائر أنحاء الشرق.

اسم " العشارى " (الذى يعنى الجمل الذى يقطع رحلة الأيام العشرة فى يوم واحد) معروف فى كل من مصر والنوبة ، حيث ينسج الناس قصصا لا تصدق عن إبل اعتادت القيام بمهمات غاية فى الغرابة . وليس لدى ما يدعونى إلى أن أصدق هذه القصص من ناحية، أو وجود مثل هذه الإبل من الناحية الأخرى، اللهم إلا إذا كان ذلك فى أذهان رواة هذه القصص من البدو أصحاب الخيال الجامح . ولو قدر لى تكرار حكايات أولئك البدو العرب، والبدو النوبيين ، فإن الموقف سيبدو مشابها أيضا للحكايات التى يرويها الرحَّالة السُّذج عن إبل البارباى ، أو عن سلالة بعينها من تلك الإبل ؛ هذه الحكايات لا يمكن أن أصدقها إلا بعد أن أتأكد منها على نحو لا يقبل الشك ، ويثبت أنها حقيقية دامغة . روى لى بدوى عبابدى ذات مرة ، عندما كنت فى

أسوان ، أن جده انتقل فى إحدى المناسبات من أسوان إلى أسيوط وقطع المسافة فى يوم واحد ، وهى مسافة تقدر بما لا يقل عن مئتين وخمسين ميلا ؛ وأن الجمل الذى قطع هذه المسافة لم يتعب بأى حال من الأحوال . لكنى لم أتمكن قط من التأكد من هذه السرعة الفائقة ، وأنا على قناعة تامة أن الإبل المصرية والإبل النوبية لا يمكن أن تقوم بمثل هذه المهمة ، أو بمثل هذه السرعة.

وأعظم عرض للهجن على حد علمى ، والذى تأكدت منه عن طريق مصدر وثيق ، هو ذلك الجمل الذى كان يملكه مملوك بك الإسناوى ، فى الوجه القبلى ، وكان مملوك بك قد اشترى ذلك الجمل من أحد شيوخ البشّارية نظير مبلغ مائة وخمسين دولارا إسبانيا ، وقد تراهنوا على هذا الجمل ، لقطع المسافة بين إسنا وقنا ذهابا و إيابا فى يوم واحد، بدءا من طلوع الشمس إلى غروبها ، هذه المسافة تقدر بحوالى مائة وثلاثين ميلا . وقد عاد الجمل عند الساعة الرابعة عصرا إلى قرية تبعد ستة عشر ميلا عن إسنا ، حيث خانته قوته عند تلك القرية ، بعد أن قطع مسافة مائة وخمسة عشر ميلا فى إحدى عشرة ساعة ، وبعد أن عبر النيل مرتين فى قارب من القوارب ؛ وعبور النهر هذا يستغرق ما لا يقل عن عشرين دقيقة . والفرس الإنجليزية الأصيلة تستطيع قطع هذه المسافة أو أكثر منها ، شريطة ألا يكون ذلك فى مناخ حار مثل مناخ مصر . وفى عدم وجود عقبات ، يمكن لمثل هذا الجمل أن يقطع مسافة مائة وثمانين أو مائتى ميل خلال فترة زمنية تقدر بحوالى أربع وعشرين ساعة ؛ وهذا بمعيار قياس سير القوافل يقدر بمسير حوالى عشرة أيام ؛ وبذلك يمكن القول إن التباهى سالف الذكر بجمل قطع مسيرة عشرة أيام فى يوم واحد ، يبدو أمرا ليس غريبا .

لكن المضحك هو أن نسلم بأن أى حيوان يستطيع العدو عشر مرات فى اليوم الواحد ، مثلما يفعل الإنسان عندما يقطع هذه المسافات سيرا على الأقدام ؛ يضاف إلى ذلك أن سرعة الجمل لا يمكن أن تقترب مطلقا فى المسافات القصيرة ، من سرعة الحصان العادى ، يزاد على ذلك أن عدو الجمل (الذى لا يتفق مع عدو ذوات الأربع المعتادة) لا يمكن أن يستمر أكثر من نصف ساعة ، فضلا عن أنه لا يمكن مطلقا أن

يصل إلى معدل سرعة الحصان المعتاد . وعدو الجمل الاضطرارى لا يتناقض مع طبيعته ، ويمكن للجمل أن يواصل هذا العدو الاضطرارى لساعات عدة دون أن تظهر عليه علامات الاستياء أو التوتر، ومع ذلك لابد لى هنا أن أقول عن عدو الجمل الاضطرارى ، إن هذا العدو الاضطرارى يكون أقل أيضا من الخطو العادى للحصان الجيد ، ومن هنا فأنا أرى أن معدل اثنى عشر ميلا فى الساعة هو أقصى ما يمكن أن يصل إليه أحسن أنواع الهجن ؛ هذا يعنى أن الهجين يمكن أن يجرى بأقصى سرعة مسافة تقدر بحوالى ثمان أو تسع ساعات يقطعها فى حوالى نصف الساعة ، لكن الهجين لا يقوى، ولا يتحمل القيام بذلك فترة طويلة .

من هنا لا يمكن القول : إن الهجن أو الذُّلل يجرى تمييزها بخفة الحركة والسرعة ، أيا كانت القصص التى ينسجها الناس حول هذا الموضوع ، سواء أكان ذلك فى أوروبا، أم فى الشرق . ومع ذلك فإن هذه الهجن لا تتفوق عليها ذوات الأربع الأخرى فى مسألة حملها لركابها طوال رحلة مستمرة تصل إلى أيام وليالٍ عدة ، تحافظ فيها هذه الهجن على خطوها المفضل ، الذى هو نوع من الرَّهْو ، أو إن شئت فقل : السير المتمهل ، الذى يصل معدله إلى خمسة أميال أو خمسة أميال ونصف الميل فى الساعة الواحدة ، والعرب عندما يصفون ذلك الرَّهْو اللطيف الهيِّن يقولون عن الهجين الجيد : " ظهره طرى ، على نحو يتمكن معه راكبه من شرب فنجان القهوة " . طبقا للمعدل السابق ، يستطيع الجمل القوى ، إذا ما أحسنت تغذيته كل مساء (أو بواقع مرة واحدة كل يومين فى حال الطوارئ) مواصلة ذلك الرَّهْو مدة خمسة أو ستة أيام . أنا أعرف أن بعض الإبل قطعت المسافة من بغداد إلى السخنة (فى صحراء حلب) فى خمسة أيام . وتلك مسافة تقطعها القافلة فى واحد وعشرين يوما . والمراسلون يصلون حلب بعد تسعة أيام من مغادرتهم لبغداد ، وهذه الرحلة تقدر بواحد وعشرين يوما طبقا للحسابات العامة ؛ وأنا أعرف مراسيل كانوا يسافرون من القاهرة بطريق البر إلى مكة (وهذه رحلة تستغرق خمسة وأربعين يوما) فى ثمانية عشر يوما دون تغيير الإبل ، أو استبدالها .

الشيء الوحيد الذى يقلق له العربى فى جمله عندما يعتزم القيام برحلة طويلة هو السَّنام، والعربى عندما يجد السنام عامرا بالدهن ، يخلص إلى أن هذا الجمل سوف يتحمل المشاق ، حتى فى ظل تغذيته تغذية معقولة ، والسبب فى ذلك أن العربى يظن - كما هو شائع - أن " الجمل يمتنع عن بذل أى مجهود ، ويستسلم للتعب والإرهاق عندما يبدأ سنامه فى التناقص . والجمل يفقد سنامه بعد الرحلة الطويلة ، وبذلك يحتاج إلى ثلاثة أو أربعة أشهر من الراحة والتغذية الوفيرة كى يسترد ذلك السنام ؛ وهذا لا يحدث إلا بعد أن يكسو اللحم الأجزاء الأخرى من جسم الجمل . قلة قليلة من الحيوانات هى التى تقوى على تحويل الغذاء الوفير إلى دهون بمثل هذه السرعة ، مثل الإبل . الراحة لأيام قلائل هى والغذاء الوفير يؤديان إلى زيادة واضحة فى اللحم ، فى حين نجد أن سفر الجمل أياما عدة بلا غذاء يحوله إلى هيكل عظمى باستثناء السنام ، الذى يقاوم الآثار المترتبة على الإرهاق، والحرمان من الغذاء فترة طويلة .

الجمل عندما تكتمل سمنته ، يتخذ سنامه شكل الهرم ، بحيث تشمل قاعدته ظهر الجمل كله ، وبذلك يشكل السنام ربع جسم الجمل تقريبا ، لكن هذا الوصف غير وارد فى المناطق المزروعة ، التى يضطر الناس فيها إلى استخدام الإبل فى أعمالهم ، مسألة الإبل السمان هذه لا توجد إلا عند البدو الأثرياء الذين يعيشون فى المناطق الداخلية من الصحراء ، الذين يحتفظون بقطعان كاملة من الإبل لأغراض التكاثر ، ويندر أن يستعملوها فى العمل سوى قلة قليلة من أفراد تلك القطعان . فى فصل الربيع ، وبعد أن تتغذى إبل هؤلاء البدو مدة شهرين على ذلك العشب الأخضر الطرى ، تتزايد سمنتها على نحو تبدو معه كأنها لا تنتمى إلى ذلك النوع من حيوانات العمل الشاق التى من قبيل إبل القوافل ، وإبل الفلاحين.

بعد اكتمال أسنان الجمل الأمامية ، تظهر الأسنان الخلفية مع بداية العام السادس من عمر الجمل ؛ لكن يتعين مرور عامين قبل اكتمال تلك الأسنان من حيث الحجم ، وفى مطلع العام الثامن من عمر الجمل يظهر الزوج الثانى من أسنان الجمل

الخلفية ، ويكونان فى الخلف منعزلين عن الأسنان الأخرى ؛ وبعد اكتمال هذين السنين الخلفيين فى العام العاشر من عمر الجمل ، يبدأ الزوج الثالث والأخير فى الظهور ، ويستمر نموه مثل الزوج السابق طوال عامين ، وبذلك لا يكون الجمل قد أكمل نموه قبل العام الثانى عشر من عمره ، وهنا يطلق البدو على الجمل اسم " راس " والعرب عندما يودون معرفة عمر الجمل الأصغر من ذلك يقومون بالبحث عن أسنانه الخلفية . وعمر الجمل يمكن أن يمتد إلى أربعين عاما؛ لكنه بعد خمسة وعشرين أو ثلاثين عاما يقل نشاطه ، ولا يقوى بعد ذلك على تحمل التعب . والجمل عندما يضعف ويهزل بعد أن يبلغ العام السادس عشر من عمره ، يقول العرب عنه إنه لن يسمن بعد ذلك ، وفى مثل هذه الحال يبيع العرب الجمل إلى الفلاحين ، الذين يغذون ماشيتهم على نحو أفضل من سكان الصحراء.

عدة (سرج) هجين العامة فى مصر (وهى لا تختلف كثيرا عن سرج الحصان) يسميها الناس "الغبيط" وعدة (سرج) الهجين النوبى الذى يجرى استيراده أيضا من مصر ، والذى يصنع من الجلد وبطريقة أنيقة ، يسميه الناس أيضا "قصة" أما عدة (سرج) الظهر الذى يستخدمه الفلاح المصرى ، فيختلف عن السرج السورى وسرج الجزيرة العربية ، والناس يسمونه " شاغور " (وأهل الجزيرة العربية يشتقون من كلمة " شاغور " هذه تسمية يطلقونها على الفلاحين المصريين هى " شاغورة ".) أما السرُج التى يستعملها البدو الليبيين ، وبدو النوبة ، وبدو الوجه القبلى فى مصر، فيطلق الناس عليها اسم " حاوية " وهى مثل السرُج التى يستعملها أهل الجزيرة العربية .

سرج الذلول فى سائر أنحاء الجزيرة العربية يسميه الناس " الشداد "، والحمير فى الحجاز يجرى استعمال " الشداد معها ، وشداد الحمار لا يختلف عن شداد الذلول إلا من حيث الحجم فقط .

أهل الحجاز يطلقون اسم " شبريَّة " على نوع من المحفَّة ، لها مقعد من القش المجدول ، يصل طوله إلى حوالى خمسة أقدام ، موضوع فوق سرج الجمل ،

ومثبت فيه ببعض الحبال ، وعلى أجناب ذلك المقعد الأربعة توجد أربعة أعمدة رفيعة ، ومتصلة ببعضها من أعلى عن طريق عارضات ، يجرى تغطيتها إما بالحصير ، أو السِّجاد لحماية المسافر من وهج الشمس وحرارتها ، هذه الشبرية عند أهل الحجاز هى أفضل مركبات السفر ؛ لأنها تسمح للمسافر بفرد رجليه وبالنوم بطريقة مريحة .

هناك ماكينات مشابهة من نوع المحفّات ، لكنها أقصر وأصغر من المحفة يجرى وضعها على جانبى سرج الجمل ، وبذلك يطلق الناس عليها اسم " شقدف " كل "شقدف " يتسع لشخص واحد فقط ، لكنه لا يسمح باستلقاء المرء فيه بطوله . هذان الشقدفان يجرى تغطيتهما أيضا بالسجاد ؛ وهذه المركبة تستخدم أصلا فى نقل النساء .

" التخت روان " (أو بالأحرى " تخت " راوان على حد قول الفرس الذين جرى استعارة هذا المصطلح منهم) يختلف عن الشقدف ؛ والتخت روان عبارة عن صندوق يحمله جملان : أحدهما فى الأمام والآخر فى الخلف . هذا النوع من المركبات يسافر فيه كبار السوريين الحجاج ، لكن الأتراك أكثر استخداما للتخت روان من أهل الجزيرة العربية .

المصريون يجّزون الهجن مثلما يجزون الأغنام ؛ وهم يفعلون ذلك بسبب فكرة مفادها أن ذلك يحسن من مظهر الحيوان . كان الفرنسيون أثناء احتلالهم لمصر قد شكلوا سلاحا يضم حوالى خمسمائة جمَّال ، انتقاهم الفرنسيون من بين أشجع جنودهم، وأكثرهم امتيازا ، واستطاع الفرنسيون بفضل هؤلاء الجمَّالة صد البدو . يضاف إلى ذلك أن الكثيرين من بين خيالة باشا مصر صدرت لهم أوامر تقضى باحتفاظهم بهجنهم ؛ وكان إبراهيم باشا ابن محمد على باشا ، لديه مائتا رجل من الجمَّالة .

هجن مصر يجرى اقتيادها بواسطة خيط متصل بحلقة فى أنف الهجين . هجن الجزيرة العربية يندر أن تثقب أنوفها ؛ وهى تستجيب لعصا الراكب القصيرة أكثر من اللجام .

نساء العرب ، يتباهين فى كل المناسبات ، بتزيين سرُج الإبل . المرأة النجدية تحس بالحط من قدرها إذا ما ركبت جملا غير أسود اللون ؛ ولكن المرأة العنزية تفضل أن تُحمل – على العكس من المرأة النجدية – على جمل رمادى أو أبيض اللون .

عملية تعليق البنادق الصغيرة على الإبل بحيث تكون موجهة ناحية مقدمة السرج ، غير معروفة فى مصر ، لكنى رأيتها فى سوريا ؛ ويبدو أن هذه العملية شائعة أيضا فى بلاد الرافدين وفى بغداد . وعلى الرغم من ضآلة جدوى هذه البندقية الصغيرة ، فإن استعمال هذه البنادق الصغيرة ضد العرب يعد مفيدا جداً ، كما أنها وسيلة مناسبة لبث الرعب فى نفوسهم بدلا من قطع المدفعية الثقيلة .

أسعار الإبل تتفاوت من مكان لآخر : فى مصر على سبيل المثال ، ونظرا لتوفر الأعلاف ورخصها ، نجد أن ثمن الجمل يصل إلى اثنى عشر دولارا . والجمل النوبى ، أو بالأحرى الهجين النوبى ، يصل ثمنه إلى ثمانين دولارا فى القاهرة . أسعار الإبل فى الحجاز مرتفعة جداً ؛ إذ يصل ثمن الذلول من الأنواع الشعبية إلى خمسين وستين دولارا . وهناك طلب كبير فى نجد على الذلل التى تكون من الدرجة الأولى . وقد عُرف عن ابن سعود أنه دفع مبلغ يصل إلى ثلاثمائة دولارا ثمنا لجمل عُمانى .

العرب لهم آراء فى عيوب ورذائل إبلهم ، هذه العيوب والرذائل تؤثر فى قيمة هذه الإبل ، العيب الرئيسى بين هذه العيوب هو ذلك الذى يطلق عليه العرب اسم " الأسعاب " وهذا الأسعاب عبارة عن نتوء فوق حافر الجمل مباشرة ؛ والعرب يرون أن هذا النتوء لا يمكن علاجه مطلقا ؛ كما يعدونه دليلا على ضعف الجمل الشديد ، العيب الثانى هو ما يسميه العرب " الفقح " ، وهو ورم كبير ، يصيب رجلى الجمل الخلفيتين عندما يبرك ، أو عندما ينهض ، وهذا العيب يعد أيضا دليلا على

ضعف الجمل ، العيب الثالث " السِّرار" وهو عبارة عن تقرح يصيب أسفل صدر الجمل ؛ وهناك أيضا عيوب أخرى مثل " الهلل " و " الفاهورة " ، وعيوب أخرى كثيرة .
يزاد على ذلك ، أن السواد الأعظم من إبل القوافل تكون مصابة بمرض ربو الخيل أو " صدره خربان" على حد قول العرب (الذى ينتج عن التعب المفرط ، وحمل الكثير من الأحمال الثقيلة) والجمل عندما يصاب بهذا المرض يكوون صدره ، وهم يلجأون إلى عملية الكى هذه فى علاجهم للجروح التى تصيب سنام الجمل ، وكذلك الإصابات التى تنتج عن السُّرُج السيئة التى توضع على ظهور الإبل فى أواخر الرحلات الطويلة ، يندر ألا يقوم العرب بعملية الكى هذه ، ومع ذلك يجرى تحميل الجمل فى اليوم التالى بحمل يكون معظمه فوق الجزء المكوى : لكن الجمل الكريم الصبور لا يكشف عن آلامه ، ولا يلقى الحمل الذى يحمله على الأرض ، ومع ذلك ، لا يمكن إجبار الجمل على النهوض ، إذا ما كان يعانى من الإرهاق والتعب الزائد عن الحد ، أو إذا كان جوعانا .

الجراد

لعلكم لاحظتم فى مقالاتى، وأبحاثى المنشورة فى مختلف المجلات المتخصصة، أن هذه المخلوقات المدمرة موجودة فى مصر ، على امتداد نهر النيل إلى مدينة سنار فى الصحراء النوبية ، وموجودة أيضا فى سائر أنحاء الجزيرة العربية، والجراد الذى رأيته فى الوجه القبلى جاء من الشمال ؛ والجراد الذى رأيته فى بلاد النوبة قيل إنه جاء من الوجه القبلى، وعلى الرغم من ذلك فإن هذه الأجزاء من إفريقيا ليست مواطن للجراد. فى عام ١٨١٣م أتى الجراد على الأخضر واليابس والمحاصيل كلها فى المنطقة من بربر إلى شندى فى بلاد السودان ؛ وفى ربيع العام نفسه شاهدت أسرابًا كاملة من الجراد فى الوجه القبلى (الذى ينزل الجراد فيه الضرر البالغ بنخيل التمر) هذا الجراد يجرد النخيل من جريده الأخضر ، ولا يترك النخيل سوى هيكل خال من الأوراق الخضراء .

فى الجزيرة العربية يعرف العرب أن الجراد يأتى من الشرق ، ولذلك يقول العرب إن مياه الخليج الفارسى هى التى تنتج الجراد . ومنطقة نجد معرضة لهجمات الجراد ؛ والجراد يقهر منطقة نجد إلى حد أنه بعد أن يأتى على المحاصيل ويدمرها، يخترق بالآلاف المساكن التى يعيش فيها العرب، ويأتى على كل ما يلقاه ، إلى حد أنه يأكل الجلد الذى تصنع منه قرب الماء . وقد لاحظ العرب أن الجراد الذى يأتى من الشرق لا يكون خطيرا ؛ لأن هذا النوع من الجراد يركز على الأشجار ، ولا يتلف الحبوب ؛ لكنه سرعان ما يتكاثر وينجب سلالة جديدة . وصغار الجراد هى التى تأتى على المحاصيل قبل أن تكبر على نحو يمكنها من الطيران . ونقلا عن التقارير فإن البدو الذين يعيشون فى شبه جزيرة سيناء ، يصيبهم اليأس جراء جحافل الجراد ، التى تكون بمثابة طاعون برى، ومصدراً للأضرار البالغة . وهو يأتى عن طريق العقبة (ومن ثم يكون قادما من الشرق) ، فى أواخر شهر مايو ، عند غروب الثريا(*) على حد قول العرب وملاحظاتهم ، والعرب يرون أن الجراد يخشى هذه الكوكبة خشية بالغة . ويستمر الجراد فى هذه المنطقة ما بين أربعين وخمسين يوما ، ثم يختفى إلى نهاية العام .

فى كل عام يشاهد الناس بعضا من الجراد ، لكن الأسراب والجحافل الكبيرة تأتى كل أربع أو خمس سنوات ؛ وهذا هو حال الزيارات المقيتة التى يقوم بها الجراد لهذه المناطق . واعتبارا من عام ١٨١١ م راحت أسراب الجراد تغزو شبه الجزيرة كل عام ، على امتداد خمسة أعوام ، وبأعداد كبيرة .

بدو الجزيرة العربية كلهم – وخصوصًا سكان مدن نجد والحجاز – معتادون على أكل الجراد . ولقد شاهدت فى كل من المدينة (المنورة) والطائف دكاكين تبيع الجراد بالمكيال ، وفى مصر والنوبة لا يأكل الجراد سوى أفقر الفقراء من الناس ، أو إن

(*) الثريا : ست نجوم ساطعة ، وواحدة لا ترى بالعين المجردة ، فى كوكبة الثور . (المترجم)

شئت فقل : الشحاذين . والعرب عندما يجهزون الجراد للأكل يلقون به حيا فى ماء يغلى ، مضافا إليه مقدار كبير من ملح الطعام ؛ وبعد دقائق قليلة يجرى إخراج الجراد من الماء ، ثم يجفف فى الشمس ؛ ويجرى بعد ذلك فصل الرأس والأقدام والأجنحة ، ثم يجرى تنظيف الجزء المتبقى ، وتجفيفه تماما ؛ ويقوم البدو بعد ذلك بتعبئة الجراد فى جوالات . والعرب يأكلون الجراد مع الزبد فى بعض الأحيان ؛ وفى أحيان أخرى يستعمله العرب فى وجبه الإفطار بوضعه على قطعة من الخبز المدهون بالزبد .

قد يكون من المفيد هنا القول إن بدو سيناء دون سائر البدو كلهم الذين تعرفت عليهم فى الجزيرة العربية ، هم الذين لا يجعلون من الجراد موردا من مواردهم الغذائية .

عن الوهابيين

مقدمة

فيما يتعلق بالوهابيين ، نجد أن الروايات القليلة المنشورة إلى يومنا هذا تحفل بكثير من الأقوال والأحكام المتضاربة، والخاطئة فى ذات الوقت ، بعض النكات والطرف المتعلقة بهذا المذهب وأتباعه والتى جمعتها من أفضل مصادر المعلومات التى استطعت الوصول إليها فى الشرق ، ربما تكون مهمة عند القارئ . مع ذلك ، يتعين عليَّ التعبير عن أسفى واعتذارى ، أننى أثناء مقامى فى الحجاز كان ذلك الجزء من البلاد مغلقا بسبب الحرب مع محمد على باشا ، أهل نجد هم المؤهلون قبل أى إنسان آخر لإعطاء التفاصيل الدقيقة والأمينة عن الوهابيين ؛ فى حين كان أولئك البدو الذين ينتمون إلى طبقات العامة من الناس ، والذين اعتنقوا المذهب الجديد ، جاهلين تماما بالمغزى الحقيقى لذلك المذهب .

ونحن نستطيع إيجاز مذهب الوهابيين وعقيدتهم فى أنه يحاول العودة إلى أصول الإسلام وتنصيب (القائد) الدينى والسياسى للأمة ، الذى يمارس سلطته مثلما كان خلفاء محمد يمارسون سلطتهم على أبناء البلاد التى دخلت فى الإسلام . مؤسس هذا المذهب معروف بالفعل ، وهو أحد علماء الجزيرة العربية ، المدعو عبد الوهاب، الذى زار مختلف مدارس المدن الرئيسية فى الشرق (مثلما يفعل بنو وطنه فى الوقت الحالى) ، اقتناعا منه بأن ما لاحظه خلال أسفاره ، يفيد أن عقيدة الإسلام الحق ، أو بالأحرى رسالة محمد ﷺ ، قد طالها الفساد تماما ، كما

أصابها الغموض بسبب المفاسد ، وأن السواد الأعظم من أهل الشرق ، وبخاصة الأتراك ، يمكن إدراجهم ضمن الكفار .

لكن المذاهب الجديدة، والآراء الجديدة ليس من السهل قبولها في الشرق مثل الغرب ؛ ولم يلق الناس بالا لعبد الوهاب(*) ، إلا بعد كثير من التجوال في سائر أنحاء الجزيرة العربية ، لجأ بعده إلى التراجع مع أسرته إلى الدرعية ، يوم أن كان محمد بن سعود الشخصية الرئيسية في هذا البلد . محمد بن سعود هذا كان أول من تبع ابن عبد الوهاب في مذهبه ، وسرعان ما تزوج من ابنته . هاتان العائلتان يجب عدم الخلط بينهما . محمد بن عبد الوهاب ، مؤسس المذهب ، كان من مواليد تميم، ومن العشيرة التي يطلق عليها اسم عبد الوهاب . بنو تميم هم في معظمهم من العاملين بالزراعة في نجد ؛ ومقامهم الرئيسي في الحوطة، التي هي قرية تبعد عن الدرعية مسافة خمسة أيام ، في اتجاه الجنوب ، صوب وادي الدواسر ، ومسقط رأس محمد بن عبد الوهاب . بعض آخر من بني تميم يسكنون في بلدة كِفَّار ، في منطقة جبل الشمر ، وهم من نسل العائلات التي نزحت من الحوطة تحاشيا للنتائج المترتبة على الأخذ بالثأر . هناك مجموعة ثالثة من الزرَّاع ، تعيش تحت حكم باشا بغداد في القرى الواقعة بين الحِلَّة ، ومشهد علي ، بنو تميم مشهورون بطول القامة ، والرؤوس العريضة ، واللحى الكثة ؛ وهذه هي السمات التي تميزهم عن سائر الآخرين .

عائلة ابن سعود ، المؤسس السياسي للدولة السعودية الأولى ، تنتمي إلى قبيلة المساليخ ، التي هي فرع من وِلد علي ، ومن ثم تكون من العنزة . وعشيرة المساليخ التي يطلقون عليها اسم المقرن (المكرن) ، أو " المجرن " على حد نطق البدو لهذا الاسم ، والتي ينتمي إليها سعود ، استقرت في الدرعية ، وأصبح لها نفوذ هناك ؛ وقدم ابن عبد الوهاب نفسه لهذه العائلة . كان محمد بن سعود أول من لقب بلقب

(*) محمد عبد الوهاب – المراجع .

" الأمير " ؛ لكن قوة محمد بن سعود فى ذلك الوقت بلغت من الصغر حداً كبيراً حيث لم يكن معه سوى سبعة جمّالة فقط فى أول اشتباك له مع أعدائه ، وذلك على حد الروايات التى بلغتنى .

مسألة تتبع تاريخ هذا المذهب ، تحتم على من يفعل ذلك تسجيل الحقائق الشبيهة بتلك التى تدور فى الصحراء كل يوم . أى أن القبيلة المشهورة هى التى تتزايد قوتها ، وتقوم بالسلب والنهب والحصول على الغنائم ، وهى أيضا التى تمد نفوذها على جيرانها . وعن طريق الجهود المضنية والحثيثة منذ محمد بن سعود ووصولا إلى حفيده عبد العزيز حيث وصل إلى أبعد منطقة فى الجزيرة العربية، حينما توحدت الزعامتان المدنية والسياسية، ومن خلال نشر المبادئ الدينية راح النفوذ السياسى يمتد بقدر ما كان الناس يقبلون الأخطار الجديدة ، مثلما فعل الناس مع بداية ظهور الإسلام . وسوف أستأنف تاريخ الوهابيين ، على الرغم من عجزى عن إيراد بعض التواريخ الدقيقة السابقة لحملة محمد على . وهنا أجد لزاما على أن أبدأ بشرح المبادئ التى تأسس عليها المذهب ، والحكم الوهابى .

لم تكن مبادئ ابن عبد الوهاب مبادئ دين جديد بل كانت جهود الرجل موجهة - فقط - لإصلاح المفاسد التى سادت بين أتباع الإسلام ، والعمل على نشر صحيح الدين بين البدو ؛ الذين كانوا جاهلين بالدين على الرغم من كونهم مسلمين، لكن اسما فقط ؛ هؤلاء البدو كانوا غير مبالين بأحكام الدين كلها . و كما هو حال المصلحين دائما، فقد أساء أصدقاء، وأعداء ابن عبد الوهاب فهم ذلك الذى كان ينادى به . هؤلاء الأتراك عندما سمعوا عن مذهب جديد ، يتهمهم بالإلحاد ، وينظر إلى نبيهم محمد ﷺ نظرة أقل وقارا من نظرة الأتراك ، كان من السهل إقناع الناس بخطر المذهب الجديد، وأن الوهابيين ، بناء على ذلك ليسوا ملحدين فقط، وإنما هم كفار ، هذا الاعتقاد ترسخ عند أعداء الوهابيين (الأتراك) فى بداية الأمر بفعل ألاعيب الشريف غالب ، شريف مكة ، ثم بعد ذلك من خلال الذعر والانزعاج الذى سرى بين الباشاوات المحيطين بالمنطقة . كان من مصلحة شريف مكة ، الذى كان عدوا لدودا للعقيدة الوهابية

الجديدة المتنامية ، توسيع الهوة بين أصحاب المذهب الجديد والإمبراطورية العثمانية ، ولذلك راح الرجل يتفنن، بلا رحمة فى نشر تقارير تفيد أن الوهابيين كفار بحق، مستهدفا بذلك إحباط المحاولات الرامية إلى التفاوض مع الوهابيين . يزاد على ذلك ، أن الباشوات فى كل من بغداد ودمشق والقاهرة ، كانوا أقرب ما يكونون من النفوذ المتنامى الجديد ، و لم يكونوا أقل من الأتراك حماسا فى استعمالهم أكثر الألوان سوادا للتعبير عن خطط أولئك المعادين للمفاسد العثمانية ، هؤلاء الباشوات كان يتحتم عليهم قيادة قوافل الحج، أو إرسال حرس مرافق لتلك القوافل إلى المدينتين المقدستين ، ولذلك أصبح من مصلحتهم تضخيم أخطار الطريق ، حتى يلتمسوا لأنفسهم الأعذار ، إذا ما وقع حادث لقافلة من القوافل ، أو يكون لديهم المبرر لمنع قيام تلك القوافل ، وهذا هو ما كان يدور فى نفوس هؤلاء الباشوات ، والسبب فى ذلك أن قيام تلك القوافل كان يكلف هؤلاء الباشوات أموالاً باهظة . يزاد على ذلك التقارير والروايات التى كانت ترد على ألسنة الحجاج الذين سبق أن سافروا بطريق البحر إلى جدة ومكة ، والذين حكوا فيها عن تعسف الجنود الوهابيين ، وعن منعهم الناس أحياناً من أداء فريضة الحج . هؤلاء الحجيج عندما كانوا يعودون كانوا يبالغون فى المتاعب التى خلقها لهم الجنود الوهابيون ، الأمر الذى ترتب عليه عدم تقديم تقارير محايدة لهؤلاء الباشوات . وعليه ليس هناك ما يدعو إلى الدهشة ، إذا ما عرفنا أن الشرق كله كان يعتقد، بل وصدق أيضا أن الوهابيين كانوا يحاولون إقامة دين جديد تماما ، وأنهم كانوا يعاملون الأتراك جميعا بقسوة متزايدة لأنهم كانوا مسلحين .

هؤلاء كانوا بدوا ، قبل اعتناق الوهابية ، ولذلك كانوا يجهلون الإسلام تماما ، كما كانت أفكار الإسلام ومبادئه فى ذلك الوقت غير مكتملة عند هؤلاء البدو . لذلك كان مرجحا أن يبدو ذلك المذهب لهؤلاء البدو كأنه دين جديد ، وقد ترسخ ذلك لديهم بصفة خاصة ، عندما عرفوا عادات وتقاليد ومفاهيم سكان مدن الجزيرة العربية ، وقارنوا تلك العادات والمفاهيم بمفاهيمهم وأعرافهم . روح التشدد التى راح شيخهم (أميرهم) يزكيها فيهم بالوسائل الممكنة كلها ، لم تعط هؤلاء الوهابيين فرصة وضع فروق واضحة فى الأمور التى تكون لديهم عنها أفكار ناقصة تماما، وغير

مكتملة ؛ وهذا يفسر لنا تفسيرا مقنعا طريقة اتهام الوهابيين للأتراك بالكفر، الأمر الذى جعل الأتراك يعاملونهم بالطريقة نفسها . يزاد على ذلك أن القلة القليلة من النابهين السوريين أو المصريين ، الذين أتيحت لهم فرصة الحوار مع علماء هذا المذهب ، يرجح بأنهم قد اقتنعوا بأن المذهب البدوى الجديد هو الإسلام الحقيقى ؛ علماء هذا المذهب ، وعلى الرغم من عدم اتفاق الفريقين على جميع النقاط، قد أحسوا بعدم العدل جراء تسمية الوهابيين بالكفار . لكن شهادة مثل هؤلاء الأشخاص وما تجرأوا على الجهر به ، دون أن توجه إليهم تهمة فساد الإيمان ، لم يكن لها جدوى أيام الصياح العام الذى كان دائرا فى تلك الأيام ؛ وبخاصة بعد عام ١٨٠٣ م ، عندما جرى التصدى لقوافل الحج ، الذى سرت على أثره فكرة عامة أن الوهابيين كانوا أعداء لدودين للدين الإسلامى . فى مقالين قصيرين عن الوهابيين كتبهما م. روسو فى كل من بغداد وحلب (*) نجد مؤلف هذين المقالين يؤكد أن الوهابيين لديهم دين جديد ، وأنهم على الرغم من اعترافهم بالقرآن ، فقد ألغوا تماما الحج إلى مكة (المكرمة) . تلك كانت الفكرة ، أو الرأى المشوه الذى انتشر فى حلب فى ذلك الوقت ؛ لكن كان بالإمكان الحصول على معلومات أدق من ذلك من الحجاج النابهين المتعلمين ومن البدو النابهين أيضا فى بلدة حلب نفسها ؛ والمدهش أن صاحب المقالين لم يسمع مثل هذه المعلومات ، من منطلق أنه كان يقدم وصفا للوهابيين ، وأنه على حد قوله استقى جزءا من معلوماته من " مصدر من مصادر سعود" ، قاصدا بذلك صاحب منصب فى بلاط الدرعية ؛ وأن هذه المعلومات تتعلق بأمر لم أستطع أن أعرفه ، أو أقف عليه وقوفا دقيقا .

بعد أن رسخ جيش محمد على أقدامه فى الحجاز ، وبعد أن أصبحت مؤامرات الشريف غالب بلا جدوى أو طائل ، وبعد انفتاح الاتصالات المباشرة أيضا مع المشايخ الوهابيين ، ومع زعماء المناطق الداخلية ، وبعد أن استأنفت قوافل الحج طريقها القديم ،

(*) أول هذين المقالين " وصف لبشالك بغداد ، " والمقال الثانى بعنوان ذكريات عن " مناجم الشرق " .

جرى التعرف على الشخصية الوهابية على نحو أفضل ، وبخاصة فى الممتلكات التركية النائية ؛ وترتب على ذلك أن راح الاعتراف بالجميل الذى أعرب عنه أهل مكة تجاه سادتهم المؤقتين ، يترك انطباعا عامرا بالآراء الطيبة والحسنة ، فى نفس كل حاج من الحجاج الذين كانوا يتساءلون عن المذهب الجديد .

إذا كانت هناك حاجة إلى مزيد من الأدلة والبراهين على أن الوهابيين مسلمون قويمون جداً، فإن كتبهم الدينية يمكن أن تنهض بأعباء تلك الأدلة والبراهين . عندما استولى ابن سعود على مكة (المكرمة) وزع نسخا من كتاب الوهابيين الدينى على سكانها ، وأصدر أوامره بأن يحفظ التلاميذ فى المدارس ذلك الكتاب عن ظهر قلب . ومحتويات هذا الكتاب لا تزيد على ذلك الذى يعرفه ويقر بصحته الكثرة الغالية من الأتراك قويمى الرأى . كانت لدى ابن سعود فكرة ساخرة مفادها أن أهل المدن تربوا على جاهلية تامة بالدين ، ولذلك أراد الرجل تثقيف أهل مكة ، وتعريفهم المبادئ الدينية الأساسية الأولية ، لم يحتو ذلك الكتاب الدينى على شئ لا يعرفه أهل مكة ؛ وعندما أدرك أنهم كانوا أكثر علما ومعرفة من أتباعه ، توقف عن نشر تعاليمه الدينية بين المكيين .

يجب أن نعلم أن المبادئ الدينية الرئيسية عند الوهابيين ، تتفق مع المبادئ التى يجرى تعليمها فى سائر أجزاء الإمبراطورية الإسلامية الأخرى . القرآن والحديث (السنة) معترف بهما أساسا للشريعة ؛ ويحترم الوهابيون أيضا آراء أفضل المفسرين والمعلقين على القرآن ، على الرغم من عدم اتباعهم لتلك التفسيرات والتعليقات بصورة واضحة ومباشرة . ومع ذلك ، وفى محاولة الوهابيين استعراض القواعد الأولى ، والتعاليم النقية الخالصة ، الصادرة عن المؤسس الأصلى للإسلام وأتباعه الأولين ، والمؤسسة على الشرع ، راحوا يدينون بعضا من الآراء الزائفة، وبعضا من المفاسد التى تسللت إلى الإسلام فى ذلك الوقت ، كما راح الوهابيون يبرزون أيضا الأحوال المتعددة التى كان الأتراك فيها يعترضون اعتراضا صريحا على السوابق التى اعتبروها هم أنفسهم أمورا لا يمكن الاستغناء، أو التنازل عنها . وأنا على معرفة

كاملة بهذا الموضوع ، أستطيع معها أن أقدم للقارئ التفاصيل التى هى بمثابة نقاط الخلاف بين الجانبين :

الوهابيون يوبخون الأتراك ويؤنبونهم على تكريمهم للنبى على نحو يقترب من العبادة ، وأنهم يفعلون الشىء نفسه مع بعض أولياء الله الصالحين . والوهابيون يبدون غير مخطئين فى هذا . والأتراك عندما أقروا القرآن باعتباره القانون الموحى إليهم ، يتعين عليهم الإيمان ضمنا بالمواضع المتعددة أن محمد ﷺ كان مثل بقية الخلق ، لكن حب الأتراك المفرط لنبيهم لم يقنعهم بذلك التصريح المتواضع ؛ علماء الأتراك أثبتوا بطريقة سوفسطائية أن النبى ﷺ على الرغم من وفاته ودفنه ، إلا أنه ليس له مصير البشر الفانين العاديين ، وأنه لا يزال حيا ؛ وأن صلته بالله (جل جلاله) ، وحب الله (جل جلاله) لرسوله سهّل عليه حماية أتباعه المؤمنين . وعلى الرغم من عدم قيام الأتراك مطلقا بالصلاة لنبيهم ، فهم ينطقون اسمه بالطريقة نفسها التى نتبعها عندما نقول : "يا الله !"(*)، وهذا بحد ذاته كفيل بأن يجر على الأتراك غضب الوهابيين . يضاف إلى ذلك أن الأتراك يزورون قبر محمد ﷺ ، كما لو كانوا يزورون الحرم المكى ، وعندما يقفون أمام القبر يعلو صوتهم بدعوات غير دينية ، على حد تعبير الوهابيين ؛ الأمر الذى حق عليهم نعتهم بالكفار ، لأنهم يربطون إلهية متدنية بالله (جل جلاله) .

الأتراك يبالغون كثيرا فى تقدير تعظيم المشايخ أو الأولياء . فى كل البلدان التركية هناك العديد من القبور ؛ وفى كل قرية تقريبا هناك قبر واحد على الأقل لولى شهيد أكسبته حياته التى يُقْتدى بها ، (أى المكر الكبير أو النفاق) أو أحيانا علمه الكبير نوعا من القداسة . ظن الأتراك أن من المفروض عليهم إحياء ذكرى هؤلاء الأولياء أو الشيوخ عن طريق إقامة الأبنية الصغيرة ذات القباب فوق القبور ، وأن

(*) الفارق كبير جداً. العبارة فى الإنجليزية تعنى " يا الله !" لكنها إذا ما جاءت مع النبى محمد يصبح معناها " يا رسول الله ! " وهذا خطأ دلالى وقع فيه بوركهارت. (المترجم)

يقوموا بأداء الصلاة فى هذه الأماكن ، ظنا منهم أن هذا الولى سوف يعزز ابتهالاتهم أمام عرش الله (جل جلاله) . واقع الأمر أن أولياء الله الصالحين المسلمين يُقَدَّرون ويوقَّرون ، ويقال إن أولياء الله الصالحين لهم كرامات كثيرة مثل كرامات القديسين الكاثوليك . معروف أن أهل الشرق مرتبطين ارتباطا وثيقا بأوليائهم ؛ وفى كل بلد وفى كل قرية نجد مولدا سنويا ، يقام فى يوم محدد ، تكريما لصاحب ذلك المولد. يقول الوهابيون إن الناس كلهم متساوون عند الله ؛ وأن أكثر هؤلاء الناس فضيلة وطهرا لا يمكن أن يكون واسطة عند الله ؛ ومن ثم يصبح من الخطأ التوسل بالأولياء الميتين ، وتكريم رفاتهم أكثر من أى إنسان آخر . وفى الأماكن التى فتحها الوهابيون ، كانوا يدمرون القباب والقبور المزينة ؛ وبذلك كانوا يشعلون نيران التشدد فى صدور أتباعهم ، وبذلك يميزون بينهم وبين خصومهم ، وهذه هى دوما سياسة كل مؤسس من مؤسسى المذاهب الجديدة ، وقد كان ذلك أمرا ضروريا لعامة جماهير الوهابيين الذين يعجزون عن تبين نقاط الخلاف الأخرى تبينا تاما .

أصبح تدمير القباب والقبور الخاصة بالأولياء فى كل من الحجاز ، واليمن ، وبلاد الرافدين بمثابة أولى النتائج التى ترتبت على انتصارات الوهابيين ؛ وفى المناطق التى تكثر فيها القباب جرى اتهامهم بتدميرها . فى مكة لم يبق قبر واحد سليم فوق قبر أى عربى شهير ؛ كما جرى تدمير القباب التى كانت فوق قبر محمد ﷺ ، كما دمرت أيضا القباب التى كانت فوق قبور أحفاده مثل الحسن والحسين ، وعمه أبو طالب ، وزوجته خديجة ، كل هذه القباب جرى هدمها . وبينما كان الوهابيون يقومون بتدمير هذه القباب كان الناس يسمعونهم يقولون " اللهم ارحم من دمر ولا ترحم من بنى ! " وهنا ظن الأتراك الذين بلغهم أخبار هذا التخريب ، أن الوهابيين قللوا من شأنهم، ومن احترامهم لهم ، من خلال استهزاء الوهابيين بالأشخاص الذين بنى الأتراك هذه القباب تكريما لهم من ناحية ، ومن خلال التشكيك فى طهارتهم وقدسيتهم من ناحية أخرى . يضاف إلى ذلك أن القبة الكبيرة التى كانت فوق قبر محمد ﷺ فى المدينة (المنورة) كانت ستؤول إلى المصير نفسه . كان سعود قد أصدر أمرا بتدميرها ؛ لكن هيكلها الصلب تحدى المحاولات التى قام

بها الجنود ؛ وبعد أن مات الكثيرون منهم بسبب السقوط من فوق القبة ، توقف الجنود عما كانوا يقومون به . وقد أشاع أهل المدينة (المنورة) أن ذلك كان غضبا من قبل الله (جل جلاله) .

كان إهمال القسم الأكبر من الأتراك لشرائعهم الدينية، فيما عدا تلك التى تتصل بالصلاة ، والطهارة أو الصيام جانبا آخر من الجوانب التى ركز عليها أتباع المذهب الوهابى . يضاف إلى ذلك أن مسألة إعطاء الصدقات للفقراء ، طبقا لنصوص الشرع ؛ كذلك قواعد الإنفاق التى نص عليها محمد ﷺ ، وأيضا مسألة قسوة القضاء وعدم حياديته ، التى سادت وتميزت بها عهود الخلفاء القبانيين ؛ ومسألة الروح العسكرية التى يحظرها الشرع، والتى كانت تشهر باستمرار ضد أعداء العقيدة ، أو إن شئت فقل : الكفار ؛ ومسألة الابتعاد عن المسكر ، وعن العلاقات غير الشرعية مع النساء ، والابتعاد عن الممارسات التى لا تتفق مع النواميس الطبيعية ، وأشياء أخرى كثيرة ، كل ذلك كان من بين الأشياء الكثيرة الأخرى التى لم يتغاض عنها الأتراك ، والتى انتهكوها علانية مع الإفلات من العقوبات . يزاد على ذلك السلوك الشائن لكثير من الحجاج الذين لوثوا المدن المقدسة بشهواتهم الوضيعة ؛ وكذلك التصريحات العلنية التى منحها شيوخ القوافل للدعارة ، ولكل الرذائل التى تتصل بالتباهى والحماقة ؛ وأعمال الخيانة والنصب التى كان الأتراك يساندونها ، كل ذلك جاهر به الوهابيون باعتباره نماذج غريبة ، وضد الطبيعة العامة للمسلمين ؛ وكل ذلك كان بمثابة تناقض محزن مع نقاء الأخلاق، ونقاء السلوك الذى يرنو إليه الوهابيون ، وإلى التواضع والانكسار الذى يتعين أن يكون الحاج عليه عندما يقترب من الكعبة (الشريفة) أو يدخل عليها . لم يكن ابن عبد الوهاب الذى تحمس للمبادئ الأساسية لدينه ، والذى ساءه إفساد المسلمين الحاليين لتلك المبادئ ، والذى أحس ، وربما إلى حد بعيد جداً ، بالاحتقار جراء الاستهزاء الذى منى به فى المدن التركية ، التى كان يعظ الناس فيها يحثهم على الابتعاد عن هذه الأمور ، لم يكن أمام مؤسس المذهب الوهابى سوى أمنية واحدة تتمثل فى رغبة الرجل فى عودة أتباعه ، ومريديه ، ومحبيه

إلى الحال التى كان عليها الدين ، والأخلاق ، والسلوكيات ، التى تعلمها من أفضل المؤلفات التاريخية والدينية فى أمته ، التى سادت مع نشر الإسلام لأول مرة فى الجزيرة العربية . لأن تلك الشريعة كانت موجهة توجيها صريحا للبدو ، فقد اكتشف المصلحون أنها يمكن تكييفها للناس جميعا ؛ وبذلك استطاع الوهابيون إثبات مدى ضآلة تضحية الأجانب ، أو بالأحرى الأتراك ، بسلوكياتهم الخاصة من أجل الروح الإسلامية الحقة . لم يكن فى المذهب الوهابى سابقة واحدة جديدة . فقد اتخذ ابن عبد الوهاب من القرآن والسنة مرشداً وحيداً له (المقصود بالسنة الأحكام المبنية على الحديث الشريف) ؛ وكان الفارق الوحيد بين مذهب عبد الوهاب والأتراك القويمين ، ذلك الاسم الذى على غير مسمى ، يتمثل فى أن الوهابيين يتبعون القواعد والمبادئ التى أهملها الآخرون ، أو التى توقفوا تماما عن إتباعها . وعليه ، فإن المذهب الوهابى يحتم إعادة تلخيص العقيدة الإسلامية ؛ وأن نوضح نقاط اختلاف هذا المذهب عن المذهب التركى(*) ، وبالتالى يتعين علينا إيراد قائمة بالمساوئ التى ارتكبها الأتراك . وأنا أعتمد فى حكمى هذا اعتمادا شديداً على رأى يسانده كثير من العلماء الأُول فى القاهرة . فى خريف العام ١٨١٥ ، جرى إرسال مبعوثين إلى مدينة القاهرة بواسطة ابن سعود ، كان محمد على باشا يود من هذين المبعوثين أن يقدما تفسيرا لمبادئهم أمام كبار علماء القاهرة : وترتب على ذلك عقد لقاءات عدة ؛ وأبلى الرجلان بلاء حسنا فى ذلك الحوار ، لأنهما راحا يؤيدان كل فريضة بآية من آيات القرآن ، أو الحديث ، والذى كان يشكل مصدرا من المصادر الثقات . وهنا أعلن العلماء أنهم ، لم يجدوا أى نوع من الكفر عند الوهابيين ؛ كما تسلمت القاهرة أيضا كتابا فيه أطروحات مختلفة عن الدين وعن أموره ، وكان ذلك الكتاب من عنديات عبد الوهاب نفسه . قرأ كثير من العلماء ذلك الكتاب ، وأعلنوا بالإجماع أنه طالما أن هذه هى آراء الوهابيين فإنهم جميعا ينتمون إلى ذلك المذهب .

(*) لا يوجد فى المذاهب الإسلامية مايسمى بالمذهب التركى ، ولعل المؤلف يقصد المذهب الذى كان يعتمد عليه العثمانيون وهو المذهب الحنفى (المراجع).

ونظرا لأن الدهماء المتشددين التابعين لكل مذهب جديد لا يتأثرون غالبا بالروح الحقيقية لمؤسس هذا المذهب ، فإن القسم الأكبر من أتباع ابن عبد الوهاب راحوا ينظرون إلى المبادئ الأساسية للمذهب كما لو كانت فرعيات ، وبذلك تمكن أعداؤهم من تكوين أفكار شديدة الخطأ عن المذهب الجديد عقب الحرب التى شنها الوهابيون على قبور الأولياء ، وتحول تشددهم نحو مسألة اللباس وشرب الدخان، اللباس أو الزى التركى لا يتفق مع مبادئ ومفاهيم السنة ، التى تحرم لبس الحرير تحريما قاطعا ، كما تحرم أيضا لبس الذهب والفضة ولكن تستثنى الفضة على أن تكون بكمية صغيرة . كان الوهابيون ينظرون إلى ملابس الحجاج الأتراك المبهرجة نظرة احتقار واستهتار؛ وأنه ﷺ حرم اللباس المترف ، أوجد الوهابيون أن من الضرورى إتباع أسلوبه ﷺ فى اللباس من ناحية، ومفاهيمه الأخلاقية من الناحية الأخرى . وبذلك أصبح من السهولة بمكان التعرف على الوهابيين فى الجزيرة العربية عن طريق اللباس . والعربى الذى لا يعتنق هذا المذهب لابد أن يكون جزءا من لباسه من الحرير؛ سواء أكان ذلك فى الغترة (غطاء الرأس) التى يلفها على رأسه ، عندما تكون مخلوطة بالحرير أو عندما يكون رداؤه مخيطًا بالحرير . وفيما يتصل بشرب الدخان نجد أن كثيرا من العلماء الأتراك قد كرروا من خلال كتاباتهم حتمية الامتناع عن التدخين وتحريمه ، والمذهب المالكى من بين المذاهب الأربعة الذى يقول إن شرب الدخان " مكروه " ، وفى سائر أنحاء تركيا نجد عددا كبيرا من العلماء يمتنعون عن شرب الدخان لأسباب دينية . كان الوهابى يود أيضا منع تدخين الأعشاب المسكرة ، التى يكثر الناس من استعمالها فى الشرق ، لأن ذلك مخالف للقرآن ، ولكنه لم يفلح فى منع ذلك ، فى الوقت الذى سُمح فيه باستعمال الغليون . لابد أن ابن عبد الوهاب كان يعلم أن أتباعه عندما يقومون بتضحية كبيرة من قبيل الامتناع عن التدخين ، يمكن أن يتحولوا إلى ألد أعداء كل أولئك الذين لا يزالون يتمتعون بذلك النوع من الترف ؛ ولم يعتنقوا بعد ذلك المذهب الجديد، لذا جاء تحريم شرب الدخان واحداً من العوامل الرئيسية التى ألهبت أذهان الوهابيين ، وألبتهم على الأتراك : لقد أصبحت

مسألة تحريم الدخان هذه كلمة يحتفي بها المهتدون حديثا ؛ لكن مسألة تحريم الدخان هذه ، من بين المفاهيم والمبادئ التي ينادى بها المصلحون ، بقيت بمثابة الشيء الوحيد الذي يتردد العرب في الالتزام به . عمل محرم آخر عند الوهابيين هو الدعاء باستعمال المسبحة ، الذى هو بمثابة عادة بين سائر المسلمين ، بعدما رآه الوهابيون بمثابة عمل غير شرعي، وأعلنوا أن استعمال المسبحة أمر غير مقبول ، وألغوا استعمال المسبحة . وقيل أيضا إن الوهابيين حرموا شرب القهوة ؛ وهو قول ليس حقيقياً، لأنهم يستعملون القهوة إلى حد الإفراط .

يصعب علينا التشكك فيما إذا كان ابن عبد الوهاب - وهو يعظ الناس طلبا للإصلاح فى الدرعية - قد خطر بباله فكرة إنشاء ، أو تأسيس أسرة ملكية جديدة تحكم المهتدين الجدد فى سائر أنحاء الجزيرة العربية . لم تكن قوة عبد الوهاب الذاتية أو قوة أسر أقاربه تخول له القيام بإجراء من هذا القبيل ، والذى لم يتبلور إلا فى حياة عبد العزيز بن محمد بن سعود . وهنا ينبغى ألا ننكر أن ابن عبد الوهاب وهو يقدم مذهبه الجديد للعرب كان يقدم لهم فرصة كبيرة ؛ كما يجب ألا ننكر أيضا أن نظام الحكم الذى تلا ذلك ليس بالضرورة أن يكون مناسبا لكل الجزيرة العربية . ومسألة ما إذا كان المذهب القائم هو المذهب القويم(*) ، أم أن المذهب الوهابى هو الذى يتعين اتباعه ، كلها أمور لا أهمية لها فى الدين الإسلامى الحقيقى ؛ لكن أصبح من المهم قمع تلك اللامبالاة التى سادت الجزيرة العربية كلها ، وقسم كبير من تركيا ، وكان لها تأثير ضار على أخلاق الأمة أخطر من الاعتراف بمذهب زائف، أو غير حقيقى. من هنا فأنا أرى أن ميزة الوهابيين لا تتمثل فى تنقيتهم للدين القائم من الشوائب ، وإنما فى جعلهم العرب يلتزمون باتباع تعاليم دينهم اتباعا دقيقا ؛ والسبب

(*) لا يوجد مذهب واحد عند المسلمين وإنما توجد مذاهب متعددة أشهرها مذاهب أهل السنة الأربعة - (المراجع) .

فى ذلك ، أنه على الرغم من عبادة البدو لله عبادة مخلصة فى كل الأزمان ، فإن مبادئ الربوبية وحدها لم تكن كافية لتثقيف أمة بدوية، وغير منضبطة فى ممارسة الأخلاقيات والعدالة .

يضاف إلى ذلك أن الرغبة فى إعادة العرب إلى الحالة التى كانوا عليها يوم أن كان مؤسس الدين على قيد الحياة ، هى التى أقنعت ابن عبد الوهاب وأتباعه - بطبيعة الحال - بتغيير حالهم السياسى عندما أدركوا أن المتدينين الجدد يتزايدون من حيث العدد . كان محمد ﷺ ومن بعده الخلفاء هم القادة الروحيون والسياسيون أيضا للأمة ؛ والشريعة الإسلامية توضح فى كل صفحة من صفحاتها أهمية ، بل وحتمية وجود رئيس أعلى فى المسائل الدينية . من هنا جرى تقسيم نجد - التى أصبحت المقر الرئيسى للقوة الوهابية - إلى عدة مناطق صغيرة ، وبلدان ، وقرى كل منها مستقل عن الآخر ، وفى حرب دوما مع بعضها البعض . وهنا أصبحت السيادة لقانون الأقوى سواء أكان ذلك فى عرض البلاد، أو داخل جدران المدن والبلدات ، وأصبح الناس يشترون أمنهم الشخصى، ويدفعون ثمن ذلك الأمن من ممتلكاتهم الفردية . يزاد على ذلك ، أن حرية البدو غير مسئولة عند القبائل البدوية المجاورة ، وحروب هذه القبائل لا تنتهى ، وغزوات السلب والنهب ، كل ذلك أدى إلى جعل نجد والبلاد المحيطة بها مسرحا للاضطرابات المستمرة وإهدار الدماء . ولم يستطع عبد العزيز بن محمد بن سعود نشر مذهبه الجديد عبر نجد كلها إلا بعد كثير من المعارك الصعبة ؛ وعندما لم يعد شيخا لقبيلة وإنما لمنطقة بكاملها فقد استأثر لنفسه بالسلطة العليا ، وشبّه سلطته بالسلطة التى كانت لأتباع محمد ﷺ الأولين .

لو استعدى عبد العزيز بن محمد بن سعود بنى وطنه لباءت محاولته بالفشل ؛ ولذلك تركهم يتمتعون بحريتهم ، لكنه أجبرهم على العيش فى سلام ، وعلى احترام الملكية الخاصة، وعلى طاعة شرع الله .

بمرور الزمن أصبح الشيخ الوهابى حاكما للقسم الأكبر من الجزيرة العربية ؛ كما كان حكم الرجل حرا ، لأنه كان مؤسسا على ما يمكن أن نسميه الكمنولث البدوى .

كان عبد العزيز رئيسا لشيوخ القبائل كلها ؛ وكان هو نفسه الذى يوجه سياسات هذه القبائل ، فى الوقت الذى بقى العرب كلهم مستقلين وأحرارا تماما فى قبائلهم ، باستثناء حتمية مراعاتهم واتباعهم للشريعة اتباعا حرفيا ، ويصبحون معرضين للعقاب إذا ما انتهكوا ذلك الشرع . فى الماضى لم يكن العربى يعترف بأى حكم سوى إرادته الشخصية ؛ ولكن الرئيس الجديد أجبره على طاعة الشريعة الإسلامية القديمة والخضوع لها . هذه الشريعة حتمت عليه دفع العشور ، أو المساهمة فى دعم النظام الجديد ، وأنه يتعين عليه أن يكون مستعدا دوما للانضمام إلى صفوف ذلك الشيخ الكبير عند القيام بحملة على المهرطقين، أو الكفار . ولم يكن مسموحا فى حال النزاع مع الجيران ، باستعمال السلاح ، بل كانت تشكل محكمة يجرى البت من خلالها فى الدعاوى كلها . كانت الموضوعات الرئيسية التى تنظر أمام هذه المحاكم : العشور ، والتجنيد العسكرى الداخلى ، والإدارة الحازمة للعدالة . وقد نجح الوهابيون فى تنفيذ هذه الإجراءات التى بدت مستقرة تماما إلى أن بدأت سيف محمد على باشا وذهبه ، بدلا من شجاعة قواته يُضْعفان سلطة الوهابين ، وأوديا بهما إلى الحال التى كانوا عليها قبل سنوات عدة . وهنا أجدنى أدخل إلى إيراد المزيد من التفاصيل الخاصة بذلك الحكم المهم ؛ هذه التفاصيل مبنية على أدق البيانات، والتصريحات التى استطعت الحصول عليها من كثير من الشخصيات المطلعة، والعليمة فى منطقة الحجاز .

سعود وعائلته

سعود كبير دعاة المذهب الجديد ، هو الابن الأكبر لعبد العزيز ، الذى اغتيل فى العام ١٨٠٣، وإلى جانب محمد بن سعود ، كان لوالدته (ابنة عبد الوهاب) ابنان هما عبد الرحمن، وعبد الله . توفى سعود فى سن الخامسة والأربعين، أو الخمسين ، فى شهر أبريل من العام ١٨١٤ الميلادى بسبب الحمى ، وقد وافته المنية فى الدرعية ؛ والناس يعزون المصائب التى حلت بأمته بعد ذلك إلى وفاته . يقال إن سعود كان شديد الأناقة، وكان محياه طيبا وفاء لتلك الصفة التى اشتهرت بها عائلته . كانت لحية

سعود أطول من لحى البدو المعهودة ، وكان شعره كثًّا من حول فمه إلى حد أن أهل الدرعية كانوا يسمونه أبو شوارب، أو " أبو الأشناب " .

كان العرب كلهم ، يمتدحون حكمته فى الرأى ومهارته فى البت فى الشكاوى والدعاوى ؛ كما كان ضليعا فى الشريعة الإسلامية ؛ وعلى الرغم من أن صرامته فى الحق أغضبت الكثيرين ، فقد حببته إلى جماهير العرب . وهو منذ بداية حكمه لم يشترك بشخصه مطلقا فى أية معركة من المعارك ؛ وإنما كان يوجه جيشه دائما من مسافة بعيدة فى المؤخرة . ويحكى عنه العرب أنه شارك ذات مرة فى القتال عندما كان عمره اثنى عشر عاما ، وأنه كان يقاتل إلى جانب والده عبد العزيز .

أنجب سعود من زوجته الأولى ، التى لقيت ربها ، ثمانية أبناء ؛ أكبر هؤلاء الأبناء هو عبد الله ، الذى كان إبان حياة أبيه يحتل المكانة الثانية عند والده ، ثم تولى بعد ذلك السلطة العليا بعد وفاة والده . يروى أن عبد الله عندما كان عمره خمس سنوات كان يركب الفرس ويجعلها تعدو به ؛ كما كان الرجل يشتهر بالشجاعة أكثر من والده ، وأنه جعل من خوضه للمعارك كلها قاعدة مستمرة . كانت قدرات عبد الله ولد سعود توصف بالتميز منذ أن كان والده على قيد الحياة ، وكان الناس ينظرون إليه على أنه فلتة فيما يتصل بالحكمة والتعقل ؛ لكن الإجراءات التى اتخذها عبد الله فى مواجهة محمد على باشا تثبت أنه لم يكن يمتلك ، بأى حال من الأحوال ، القدرات التى كان والده يتمتع بها فى مثل هذه الأمور . وأهل الصحراء يقدرون لعبد الله كرمه وسلوكياته الاجتماعية الطيبة . تزوج عبد الله فتاة من عرب الزاب، فى منطقة الأحساء. من بين إخوان عبد الله بن فيصل ، صاحب أكبر شهرة وصيت بين العرب ، وأكثر رجال الدرعية أناقة ، وأنسا ولطفا . والعرب يرتبطون بفيصل ارتباطا وثيقا . فقد خاض فيصل كثيرا من المعارك فى الحجاز ضد القوات التركية . أما نصير فكان أحب أبناء سعود إلى أبيه ؛ وقد توفى فيصل فى الحملة التى جردها سعود على مسقط .

كان التركى يقود دوما القوات الوهابية خفيفة الحركة فى العراق وفى اتجاه سوريا . وأنجب سعود من زوجته الثالثة ثلاثة أبناء : عمر ، وإبراهيم، وفهيد .

لم يسمح سعود مطلقا لأبنائه بممارسة أى نفوذ لهم على الملأ أو فى الشئون العامة للناس ، باستثناء عبد الله الذى كان يشارك والده فى كل آرائه . ومع ذلك كان سعود مرتبطا بأبنائه ارتباطا وثيقا . ولا يزال أهل مكة يروون عن سعود أنه تصادف أن كان جالسا أثناء موسم الحج أمام باب الكعبة ، فى الوقت الذى كان أهله يقومون بوضع الكسوة الجديدة على الكعبة من ناحية ، وانشغال كثير من الحجاج بالطواف حولها . فى تلك اللحظة ظهرت زوجة ولده ، وهى تحمل بين ذراعيها طفلا من أبناء فهيد الصغار . كانت تلك الزوجة قد وصلت للتو إلى مكة لأداء فريضة الحج ، وسارعت متجهة صوب سعود على أمل أن تقدم له الطفل الذى لم يره من قبل . تناول سعود الطفل منها ، وقبله بحنان ، وأمام كل الحجاج المتجمعين ضم الطفل إلى صدره محتضنا إياه فترة من الوقت .

كان لسعود ، إلى جانب زوجته ، وطبقا لعادة أكابر الناس فى نجد ، عدد من العبدات الحبشيات أو إن شئت فقل المحظيات ؛ وكان يعيش مع أسرته كلها فى منزل كبير بناه والده على منحدر جبل من الجبال ، فوق مستوى بلدة الدرعية . كان أبناء سعود كلهم هم وعوائلهم ، وكذلك إخوانه كلهم يعيشون معه فى أجزاء خاصة بهم داخل هذا المنزل . يُقال إن سعود كان يغار من إخوته ويحسدهم ؛ ولم يحدث مطلقا أن قلد أحد منهم منصبا مهما ، أو سمح لأى منهم بمغادرة الدرعية . كان سعود يحتفظ بكنوزه فى هذا المنزل ، كما كان يستقبل فيه أيضا كل أولئك الذين كانوا يأتون إلى الدرعية فى مهمات ، أو لأغراض تتعلق بالمال والأعمال . فى هذا المنزل كان يجرى أيضا استقبال كبار الأمراء ، ومشايخ القبائل الكبيرة ، الذين كان الطعام يقدم لهم فور وصولهم ، فى حين كان أصحاب المناصب الدنيا يعيشون مع معارفهم فى المدينة ؛ لكنهم عندما يجيئون فى مهام تتعلق بالمال والأعمال يقدم لهم الغداء أو العشاء فى منزل الشيخ (سعود) ويحصلون منه على بدل يومى لإطعام خيولهم أو إبلهم . وهنا يسهل علينا تصور استمرارية انشغال ذلك المنزل بالضيوف بصفة دائمة .

كان سعود يسمح بدخول كل الناس ؛ لكن مسألة الحصول على مقابلة خاصة بدون رغبة خاصة منه تعد عملية صعبة تماما . كان لدى سعود عدد كبير من المصريين الذين كانوا يعملون حراسا لديه ، وكانوا يسمحون – نظير رشوة يأخذونها – للناس بالدخول إلى السكن الخاص فى ساعات غير مناسبة . كانت أضمن الطرق للحصول على مقابلة خاصة تتمثل فى الانتظار أمام السكن الداخلى الخاص إلى أن يمر واحد من الشيوخ الكبار ، ثم الدخول بعد ذلك بصحبة الخدم والحراس والمرافقين . وكان يحضر مجلسا فى الصباح الباكر ، و مجلسا فى العصر فيما بين الساعة الثالثة والسادسة ، ثم مجلسا ثالثا فى ساعة متأخرة من المساء ، بعد العشاء كان سعود يجمع بصورة منتظمة فى غرفة كبيرة أبنائه كلهم الذين يتصادف وجودهم فى الدرعية ؛ وكان يشارك فى ذلك المجلس كل أولئك الذين يودون التودد إلى سعود . فى مثل هذا المجلس يقوم واحد من العلماء بتلاوة شىء من القرآن ، أو الحديث ، ثم يروح يفسر ما قرأ طبقا لشروح أحسن المفسرين . بعد ذلك يقوم علماء آخرون بإلقاء محاضرات بالطريقة نفسها ، وكان سعود نفسه يختتم الجلسة أو اللقاء بتناول الكتاب وشرح المقطوعات الصعبة . يقال إن سعود كان يضارع العلماء الآخرين ، أو ربما كان يتفوق عليهم فى مسألة الحوار الدينى والشريعة بشكل عام . كان الناس جميعا معجبين بطلاقة سعود ؛ كان صوت سعود رخيما وعذبا فى ذات الوقت ، وهو ما جعل العرب يقولون : إن كلامه كله يصل إلى القلب . فى المناسبات التى تكون من هذا القبيل يصبح سعود المتحدث الرئيسى ؛ لكن كان يحدث فى بعض الأحيان مناقشة بعض المسائل الشرعية ، الأمر الذى كان يثير الرجل ويؤدى إلى نفاد صبره ، ويجعله يجادل بحماس شديد ، محاولا النيل من خصمه والتصغير من شأنه ، ويلومه على جهله فى الحوار والنقاش . وبعد أن يواصل سعود حديثه على هذا النحو، ولمدة تقترب من الساعة ، يختتم حديثه بقوله : " والله أعلم" ؛ وهنا يفهم أولئك الذين ليست لهم مهام خاصة أن تلك إشارة إلى الانصراف ، أما أصحاب المهام فيبقون معه إلى ما بعد غروب الشمس بساعتين كانت هذه الاجتماعات (المجالس) تنعقد كل مساء .

وكان سعود يستاء تماما ويتضايق إذا ما حاول أحد من العرب خديعته عن طريق الكذب والتضليل . في مثل هذه الحال كان يتناول عصا ويروح يوسع من يفعل ذلك ضربا ؛ لكن الرجل سرعان ما كان يندم على هذه النوبات الانفعالية ، ويرغب في أن يتدخل الواقفون ويمنعوه من ضرب أي إنسان عندما تنتابه نوبة من تلك النوبات، وقد حدث ذلك مرارا وكان الرجل يعرب عن شكره لهم على ما قاموا به .

كان سعود لا يغادر منزله إلا نادرا ، أثناء مقامه في الدرعية ، باستثناء يوم الجمعة عندما كان يخرج من منزله لأداء الصلاة في المسجد المجاور للمنزل . كان العرب يعزون ذلك الانعزال إلى الخوف من أن يلحق به المصير الذي لحق بوالده عندما جرى اغتياله ؛ والمؤكد أن سعود كان له أعداء بين العرب ، وأن هؤلاء الأعداء كانوا على استعداد للثار لأقاربهم الذين أهدر سعود دماءهم . كما كان هؤلاء الأعداء على استعداد أيضا للتآمر على حياة ذلك الرجل ، إذا ما لاحت لهم فرص النجاح في ذلك . لكن أصدقاء سعود يقولون : إن الرجل كان مشغولا طوال اليوم بالدراسة في منزله . الكل يعرف أن سعود ظل بعد وفاة والده ، يلبس درعا تحت قميصه ، طوال فترة من الزمن . وأهل مكة يحكون أنه أثناء مقامه في مكة كان يحيط نفسه دائما بحرس مختار ، ولم يكن أي أجنبي يجرؤ على الاقتراب منه منفردا ، لم يكن الرجل يذهب إلى المسجد الحرام أو الطواف حول الكعبة الشريفة بدون حاشية كبيرة من الأتباع : يضاف إلى ذلك أنه عندما كان يصلي في الحرم لم يكن يجلس في المكان المخصص لعلية القوم ، أو بالأحرى في المقام الشافعي.

كان سعود يتودد إلى الناس في المكان الذي يكون هو فيه ، بل وفي سائر أنحاء ممتلكاته وأن يبقوا جالسين عندما يدخل عليهم ؛ وفي مجالسه المسائية كان الحاضرون يجلسون في الأماكن التي تناسبهم ، على الرغم من فهم الجميع أن كبار الأمراء يتعين أن يجلسوا بجانب سعود . كان أبناء سعود الصغار يجلسون بين عامة الناس ، منتبهين إلى كل ما يقال ، دون أن يتكلموا . كان العرب يدخلون يسلمون على سعود بعد أن يقرءوه السلام فيتبادل معهم القُبل طبقا للعرف البدوي . كان الناس

عندما يخاطبونه لا يستعملون ألفاظا ، أو كلمات طنانة، أو ألقاب رنانة ، وإنما كان الناس ينادونه " يا سعود ! " أو " يا أبا عبد الله ! " أو " يا أبا الشوارب !" ، وكان سعود بدوره ينادى كل واحد منهم باسمه ، مجرداً من عبارات التحية أو التعظيم التى تشيع وتكثر بين أهل الشرق .

كان ملبس سعود لا يتميز عن ملبس أعرابه ؛ والفارق الوحيد بينه وبينهم أنه كان يلبس عباءة ، وقميصًا ، وكوفية أو إن شئت فقل " غترة " : ومع ذلك يقال : إنه كان ينتقى هذه الملبوسات من أفخم الأشياء الموجودة فى الدرعية ؛ ويقال أيضا : إن الرجل كان مولعا بالنظافة، وكان يعطر كوفيته دوما بطيب الزيَّاد .

كان انفاق سعود الرئيسى ينصب على ضيوفه ؛ ويقال إنه كان لديه ما لا يقل عن ألفى حصان كلها كانت من ممتلكاته الخاصة . كان ثلاثمائة أو أربعمائة من هذه الخيول موجودة فى الدرعية ، أما باقى هذه الخيول فكان فى منطقة الأحساء ، التى يجود فيها نبات البرسيم . يزاد على ذلك أن سعود كان يحتفظ بأفضل الإناث من بين الخيول . وكان قد أخذ تلك الأفراس الإناث من أصحابها الأصليين ، إما على سبيل العقاب نتيجة سوء التصرف ، أو على سبيل الغرامة ، لكنه فى واقع الأمر اشترى كثيرا من تلك الخيول بأثمان باهظة جداً ؛ يقال إنه دفع حوالى خمسمائة وخمسين أو ستمائة جنيه انجليزى ثمنا لفرس واحد .

لقد سمح سعود لكل واحد من أبنائه أن تكون له حاشية تضم حوالى مائة وخمسين خيالا . أما عبد الله فقد كان لديه ، إبان حياة أبيه ، ما يزيد على ثلاثمائة خيال . يضاف إلى هذا العدد أيضًا عدداً كبيراً " الذلل "أو إن شئت فقل : الإبل السريعة ، التى كان سعود يحتفظ بأفضل سلالاتها الموجودة فى الجزيرة العربية . ويصل عدد آل بيته هم والغرباء الذين يطعمهم سعود كل يوم إلى ما يتردد بين أربعمائة وخمسمائة شخص . الأطباق الرئيسية التى تقدم للناس هى الأرز ، والبرغل، والتمر ولحم الضأن . كان سعود يسمح لأبنائه الكبار وكبار الشيوخ بتناول الطعام معه : وكان طعامهم المعتاد مكون من الأرز ولحم الضأن ؛ أما عامة الناس

فكان يقدم لهم البرغل والتمر . من كل ما عرفته عن أسلوب حياة سعود ، وطبقا لأسعار التموين والمؤن فى نجد ، تبين لى أن مؤسسة سعود بكاملها (بما فى ذلك حرسه الخاص الذى يحصل على رواتبه من الخزانة العامة) تكلفه سنويا ما يتردد بين عشرة واثنى عشر ألف جنيه إنجليزى . وسعود على العكس من عادات الأتراك ، وأعراف البدو لم يحتفل مطلقا بأعياد أو مناسبات الختان فى بيته ، والسبب فى ذلك ، – على حد قول سعود – أن الإسلام مع بدء انتشاره لم يحتف بمناسبات من هذا القبيل ، ومع ذلك كان يسمح لإعرابه بالترفيه عن أنفسهم بمثل هذا المناسبات . كان سعود يراعى أيضا باهتمام كبير حفلات زفاف أولاده . وعلى سبيل المثال ، عندما تزوج ابنه فهيد ابنة عمه ، دام العرس ثلاثة أيام . فى اليوم الأول ، قام والد الفتاة ، أى شقيق سعود ، باستضافة المهنئين ، الذين كانوا يتكونون من كل سكان بلدة الدرعية الذكور إضافة إلى بعض الأغراب ، وقدم لهم لحم أربعين ناقة وخمسمائة رأس من الغنم . وفى اليوم الثانى ذبح سعود لضيوفه مائة ناقة وثمانمائة رأس من الغنم . وفى اليوم الثالث استضاف شقيق له الضيوف جميعهم .

كان لدى سعود فى منزله مجموعة من العبيد السود . لم يسمح سعود مطلقا لأى من زوجاته أو محظياته بإرضاع أطفالهم الذكور ؛ ولكنه كان يحتفظ دوما ببعض المرضعات اللاتى يجرى اختيارهن من بين العبدات الحبشيات . هناك عرف مماثل يسود بين أشراف مكة ، الذين يرسلون أبنائهم للتعليم بين القبائل البدوية المجاورة لهم ، ولا يحتفظون بأطفالهم فى بيوتهم أكثر من ثمانية أيام . وقد تربى محمد بهذه الطريقة نفسها بين قبيلة عدوان .

الحكم الوهابى

هذا الحكم عبارة عن أرستقراطية تجىء عائلة سعود على رأسها ، وقد قسم سعود ممتلكاته إلى محافظات عدة ، ضمت القبائل العربية التى تحول أهلها إلى

سكان مستقرين ، كل قبيلة من القبائل البدوية الكبيرة لها حاكم أو شيخ ؛ ويلى هؤلاء الشيوخ الكبار شيوخ آخرين أقل منهم . يحصل الشيوخ البدو الكبار ، الذين يتحتم على القبائل الصغيرة أن تخضع وتدين لهم ، من الشيخ الوهابى على لقب أمير الأمراء ، والمحافظات الرئيسة هى تلك التى فى الأحساء العارض التى يحتفظ بها سعود لنفسه ، والدرعية هى عاصمة تلك المنطقة ، التى تضم : القصيم ، وجبل شمَّر ، والحرمين (مكة " المكرمة " والمدينة " المنورة ") والحجاز ، ويقصد بها بدو الجبال الموجودة جنوبى الطائف ، واليمن . ومحافظو أو أمراء تلك المحافظات أو المناطق هم الذين يسهرون على العدالة ، ولكنهم ليسوا هم القضاة ؛ والسبب فى ذلك أن سعود نصب قضاة من عنده فى كل مكان . وسلطة هؤلاء الأمراء على العرب محدودة جدًا ، ولا تتعدى أو تزيد على السلطة التى يمارسها الشيخ البدوى المستقل ، باستثناء إخضاع الناس للشرع عن طريق سجن المخطئ ، وفرض الغرامة لقاء عدم الالتزام . والشيخ المستقل نفسه إذا ما ظلم أحداً يجوز للمتضرر استئناف الحكم أمام الشيخ الكبير ؛ من هنا نرى أن الدرعية تغص بالعرب الذين يفدون إليها من أنحاء بعيدة لاستئناف أحكام شيوخهم . المهمة الرئيسية للشيوخ (علاوة على إقامة العدل) هى توفير الجنود والقوات اللازمة لجيش بن سعود، ومساعدة جامعى الزكاة .

فى زمن الحرب يشكل شيوخ هذه المناطق – أو إن شئت فقل المحافظات –، هم وكبار شيوخ البدو مجلسا ؛ وفى زمن السلم لا يستشير سعود أحدا سوى علماء الدرعية ، هؤلاء العلماء ينتمون إلى أسرة ابن عبد الوهاب ، مؤسس المذهب ؛ عدد هؤلاء العلماء كبير فى الدرعية ، ولهم نفوذ كبير . هذه الأسرة يطلق عليها اسم " أولاد الشيخ" وأنا لا أعرف بالضبط الحقوق أو الامتيازات التى لهذه الأسرة أو العائلة ؛ لكن المؤكد أن سعود كان يعرض عليهم كل شأن من الشئون المهمة قبل اتخاذ القرار النهائى . قد يكون ابن سعود حاكما مطلقا ، لكنه يعرف جيدا روح أعرابه إلى الحد الذى يجعله لا يحكمهم بصولجان الإقطاع والاستبداد . هذا يعنى أن سعود يقيم العدل كما لو كان شيخا واسع السلطة، وليس سيدا للجزيرة العربية . فهو فى حقيقة

الأمر واقع تحت سيطرة شيوخ المناطق ، والأشخاص أصحاب النفوذ فى مناطقهم ، وهم على استعداد للاستقلال بأنفسهم إذا ما أحسوا أنه يعاملهم معاملة ظالمة . هناك بعض الأمثلة التى تثبت وتدل على هذه المقاومة للسلطة المطلقة ، التى لا يستسلم لها البدو مطلقا ، هذا يعنى أن محافظى المناطق يجرى الحد من سلطتهم عن طريق بعض الشيوخ الصغار ؛ من هنا فنحن نجد كثيرا من العشائر الصغيرة على استعداد دوما للدفاع عن قضاياها فى مواجهة طغيان واستبداد الشيخ الكبير ، الذى وحّد كل هؤلاء الشيوخ فى نظام واحد، ونجح بعد صراع عنيف فى إيجاد شىء من النظام فى الجزيرة العربية ، إن هذا النظام جاء لمصلحة الأمن العام والمصالح الخاصة .

الحكم الوهابى يعد حاليا (ونحن فى العام ١٨١٦) وراثيا فى آل سعود، وعندما كان عبد العزيز على قيد الحياة ، كان مطلوبا من كبار الشيوخ أن يقسموا يمين الولاء لولده ، الذى تولى السلطة العليا عقب وفاة والده ، بلا أية معارضة . وبالطريقة نفسها أقسم الشيوخ يمين الولاء بعد ذلك لعبد الله ، بينما كان والده سعود لا يزال على قيد الحياة . ومع ذلك فإن العرب لا يعتقدون أن من الضرورى أن ينتقل الحكم من الأب إلى الابن . هذا يعنى أن سعود كان بوسعه اختيار واحد من إخوانه ليخلفه ، ومن هنا فنحن نسلم أن النظام نفسه يسرى فى الدرعية، مثلما هو متبع فى سائر أنحاء الصحراء عند انتقاء شيخ القبيلة .

هذا يعنى أن الوهابى الرئيسى هو الذى يعين ويعزل ، حسبما يريد ، شيوخ المدن وشيوخ المناطق ، وشيوخ القبائل ؛ لكنه يؤيد بشكل عام الاختيار الذى يوافق عليه العرب أنفسهم ؛ وإذا ما ثبت ولاء الشيخ لقضيته ، فإنه غالبا ما يسمح لولده أو لأخيه بأن يخلفه .

إقامة العدل

كانت كل مناطق العراء فى الجزيرة العربية ، وأيضا المناطق الداخلية كلها تخضع لحال من الفوضى هى التى لا تزال سائدة بين هذه القبائل ، وبخاصة تلك التى

لم تخضع بعد للوهابين ، والتى سبق أن تناولتها بالوصف فى تناولى للبدو . علّم عبد العزيز هو وسعود البدو احترام القانون ، والمحافظة على السلام العام ، كما علما البدو أن يلتزموا بقرار المحكمة فى منازعاتهم ، وألا يحتكموا إلى السلاح. كان عبد العزيز أول من أرسل القضاة إلى المناطق فى ظل حكمه، كما كان يختار القضاة من بين أكفأ علمائه، وأكثرهم استقامة ، وكان يخصص للقضاة مخصصات سنوية من الخزانة العامة ، منعا لهم من قبول الرشاوى أو الأتعاب من الأطراف المتنازعة . هؤلاء القضاة كانوا يحكمون بين الناس طبقا للشريعة الإسلامية ، أى بالقرآن والسنة . كان العرب يقدمون ادعاءاتهم أمام القضاة ، لكن كان من حقهم استئناف الحكم أمام الشيخ الأعلى فى الدرعية.

تمثلت الخطـوة التى تلت ذلك فى تأمين البلاد من السرقة واللصوص . كان عبد العزيز يحظى بدعم القبائل ، كانت نجد ، بل الجزيرة العربية كلها يجرى اجتياحها من كل جانب بواسطة أطراف معادية ، وأدت كثرة الولايات المستقلة إلى استحالة إقامة نوع من السلام الداخلى الدائم . كان عبد العزيز ووالده ، يعدون العرب مسئولين عن السرقات التى كانت تجرى داخل أراضيهم ، إذ كان يتعذر اكتشاف أمر من يقومون بتلك السرقات ؛ يضاف إلى ذلك أن هؤلاء الذين كانت لديهم القوة لصد أو مقاومة أى غزو يقع على مخيم من المخيمات ، أو بلدة من البلدان ، وكانت لديهم الشجاعة أو النية للقيام بمثل هذا العمل، فكانوا يعاقبون بغرامة مساوية لقيمة الماشية أو الممتلكات التى سرقوها . وبذلك أمكن جعل القبائل تسهر على حماية جيرانها ، وحماية الأغراب الذين يمرون عبر أراضيها . وترتب على ذلك توقف السرقات العامة، والخاصة توقفا تاما بين المستوطنين المستقرين، وبدو الجزيرة العربية الذين كانوا من قبل يفرحون فرحا شديدا بعمليات السلب والنهب التى كانوا يقومون بها . وهنا حدث لأول مرة منذ عهد محمد ﷺ أن أصبح بوسع التاجر أن يعبر وحيدا صحراء الجزيرة العربية وهو آمن تماما ، وراح البدو أيضا ينامون بلا خوف من أن يسطو لصوص الليل على مواشيهم .

كان الشيخان الوهابيان قلقين بصفة خاصة، ويودان لأعرابهما أن يتخلوا عن مسألة عقابهم لعدوهم بأيديهم هم ، والثأر أيضا لأنفسهم . ولذلك حاول الشيخان وبخاصة سعود، إلغاء مسألة الأخذ بالثأر ، وإقناع العرب بقبول الدِّية المحددة . لكن الرجل لم يحقق نجاحا كاملا فى هذا الاتجاه ؛ لقد أجبر فى كثير من الأحيان أهل القتيل على قبول الدِّية ، إذا ما قدمت من جانب أهل القاتل ؛ لكنه عندما كان يجد أن الثأر قد حدث قبل إصدار تعليماته بشأن الدِّية ، لم يكن يعاقب رجلا استعمل حقا من حقوق العرب القدامى .

وإذا ما نشأت نزاعات بين عامة الناس ووصل الأمر إلى حد الضرب ، وإذا ما ساند أقارب الطرفين قضية أصدقائهم (كما هو الحال فى الجزيرة العربية) ، وترتب على ذلك إهدار الدماء فى النزاع ، فإن سعود كان يدين بقسوة، وبلا هوادة كل أولئك الذين تطفلوا، أو بالأحرى تدخلوا فيما لا يعنيهم ، ويعاقبهم إما بالاستيلاء على خيولهم ، وإبلهم ، وأسلحتهم ، أو عن طريق مصادرة ممتلكاتهم لصالح الخزانة العامة .

فى النزاع الذى يجرى بين العرب ويسحب فيه أحدهم خنجره على غريمه ويصيبه بجرح ، كان سعود يفرض على الحاضرين غرامة كبيرة لسماحهم للأمر بالوصول إلى هذا الحد . وإذا ما تحاربت قبيلتان – على الرغم من القوانين المانعة للحرب – كان سعود يبادر على الفور بإرسال مندوبين إلى شيخى القبيلتين ، ويصر على عقد الصلح بينهما ، ويفرض عليهما أن يدفعا لبعضهما الديات المطلوبة لأولئك الذين توفوا فى الاشتباكات . كانت الأوامر الصادرة تقضى بأن ترفع القبائل دعاواها أمام محكمة سعود ، وكانوا يخافون سطوته وسلطته ، التى وصلت إلى حد قيام عبد زنجى بإلقاء القبض على واحد من كبار الشيوخ ، بناء على أوامر من سعود وإحضار ذلك الشيخ من وسط مخيمه مقبوضا عليه إلى الدرعية .

معروف عن سعود عدالته القويمة ؛ لذا فإن أحكامه على المجرمين والمذنبين تكون صارمة تماما وقاسية . وفراسة الرجل كانت تمكنه على الفور من اكتشاف صدق الشاهد أو كذبه ؛ وكان يعاقب الشاهد الكاذب عقابا قاسيا . ومع ذلك ، لم تكن

عقوبات سعود من النوع شديد القسوة ؛ وقد أكد الناس لى أن سعود منذ وفاة والده لم يحكم بالإعدام سوى على أربعة أو خمسة رجال من أهل الدرعية . ونظرا لأن البدو لم يكن لديهم نقود ، فقد كان يفرض عليهم غرامات على شكل خيول ، وإبل ، وأغنام . هذه القسوة والصرامة هى التى ألبت عليه كثيرا من أعدائه من العرب الآخرين . فقد ألغى سعود عرف الدخيل (أو إن شئت فقل : الحماية) من كل أرجاء ممتلكاته طالما أن هذا العرف يمكن الشخص من الإفلات من يد العدالة . والعربى إذا ما قتل أعرابيا آخرا ، قد يطلب حق الدخيل عند صديق من الأصدقاء ، حفاظا على نفسه من انتقام أقارب القتيل ؛ لكنه يمكن ان يظل يحظى بهذه الحماية إلى أن تقام عليه الدعوى القانونية وهنا يجب التخلى عن القاتل .

كبار الشيوخ يمنحون المراهقين الصغار نوعا من الحماية فى حالة الجرائم أو المخالفات البسيطة . فى مثل هذا الحال ، يضع العربى الذى يخشى المثول أمام سعود نفسه فى حماية شيخ من أصحاب النفوذ لدى سعود . وهنا يقوم الشيخ بدور الوساطة ، ويغلب عليه أن يجعل سعود يلغى العقوبة، أو يحولها إلى غرامة صغيرة .

كان الذنب الذى يعاقب عليه سعود بصفه دائمة يتمثل فى اتصال اتباعه بأعدائه من خلف ظهره. مع أوائل ظهور المذهب الوهابى كانت الأوامر القاطعة تقضى بوقف الاتصال بكل أنواعه بين الوهابين ومخالفيهم الذين لم يقتنعوا بالمذهب الجديد ، وأن السيف وحده هو الذى يجب أن يستعمل فى الحوار مع هذه القبائل ولما كان سكان نجد معتادين على زيارة المدينة (المنورة) ودمشق ، وبغداد ، والبلدان المجاورة لهم ، فقد كانوا يخافون دوما الأوامر ؛ التى تقلل من اختلاطهم بمخالفيهم، لكن ابن سعود اضطر فى النهاية إلى التخفيف من تلك التعليمات . كما تغاضى الرجل بصورة ضمنية ، فى المرحلة الأخيرة من الحج السورى ، عن قيام أعرابه بنقل التموينات والمؤن للقوافل ، وحصل لنفسه على دولار واحد عن كل جمل من الجمال التى استخدمها رعاياه فى عملية النقل ؛ لكن باستثناء مسألة النقل هذه ، لم يسمح سعود مطلقا لأحد من أعرابه بالاتجار مع سورية أو بغداد إلا بعد عام ١٨١٠ م ، مع بداية

حملة محمد على فى الحجاز . مع ذلك كانت هناك تعليمات تنص على أنه إذا ما ضبط وهابى سواء أكان بدويا أم تاجرا فى طريقه إلى أى بلد من البلدان المخالفة للوهابيين (أيما كان ذلك الطريق أو اتجاهه ، وحسبما تدل عليه الشحنات المحمولة) تعين مصادرة بضاعته كلها وماشيته لصالح الخزانة العامة . لكن فى حال عودته من هذا البلد يتعين احترام ملكيته وممتلكاته .

هذه القواعد العرفية التى يطلق الناس عليها فى الليفانت، أو بالأحرى الشرق ، اسم " أفنياس " غير معروفة تماما فى الممتلكات الوهابية ، التى لا يسمح فيها بأن يدفع المواطن لجباة الضرائب أية مبالغ غير المبالغ المحددة ، أو الغرامة المحددة التى يتعين سدادها للخزانة العامة نظير ذنب ، أو مخالفة ارتكبها المذنب . والأثرياء فى مأمن تماما من سطوة الحكم ؛ وهذا هو المكان الوحيد فى الشرق الذى نجد فيه مثل هذا الحال . تجار مكة الأثرياء ، الذين تحتوى مستودعاتهم على أفخر ثياب البدو ، لم يحدث مطلقا أن أجبروا على دفع أية مبالغ أو تقديم أية هدية من الهدايا القيمة لسعود .

العرب يهمهمون ويغمغمون لمطلب إجبارى يتردد فى الأوامر المتكررة التى تصدر عن شيخهم حينما يطلب منهم المشاركة فى الحملات التى يقوم بها ضد مخالفيه . فى مثل هذا الحال يتعين على العرب المشاركين فى هذا النوع من الحملات أن يوفروا طعامهم وجمالهم وخيولهم ؛ ولا يحصل العربى لقاء ذلك إلا على جزء محدد من الغنيمة . والحملات التى من هذا النوع تكون باهظة التكاليف على العرب . يزاد على ذلك أن من يتسبب فى إغضاب سعود أو استيائه جراء ارتكابه مخالفة بسيطة، يتحتم مصالحته بالانضمام إلى الحملات التى يقوم بها على أعدائه .

من الطبيعى أن ينجم عن الأمن الناتج عن إقامة العدل على هذا النحو شيوع مناخ من العدل بسبب القضاء على السلب والنهب والاضطرابات على اختلاف أنواعها ؛ هذا يعنى أن سكان كل من نجد والحجاز ، واليمن أصبحوا أكثر ارتباطا بالنظام الجديد؛ نظرا لأنهم عانوا الأمرين فى سائر أنحاء البلاد دون أن

يعترض أحد طريقهم ؛ ولم يعد الناس يخشون من قيام القبائل الجائلة بإتلاف محاصيلهم أو تدميرها . وعلى العكس من ذلك ، نجد أن هذه القبائل الجائلة ، التى تعيش دوما على السرقات ومهاجمة الآخرين ، كان من الصعب عليها الانصياع إلى حكومة تتعارض مبادئها الأساسية مع أسلوب حياة هذه القبائل الجائلة . وليس من المدهش إذن أن تتردد بعض القبائل البدوية الكبيرة فى اتباع المذهب الوهابى ، إلا بعد فرض ذلك المذهب على تلك القبائل من قبل قوة أكبر منها ؛ وقد أثبتت القبائل عن طريق التمرد فى كثير من الأحيان مدى قلقها من القيد الذى فُرض على أسلوب حياتها ؛ هذا بالإضافة إلى رفض هذه القبائل دفع ما عليها من التزامات تجاه الدولة الجديدة .

إذا كان سعود قد اشتهر بعدله الصارم فى أحوال التعدى والظلم ، وقسوته أيضا على أعدائه ، فقد ذاع أيضا صيت حنانه ، وإخلاصه، واحترامه لأتباعه المخلصين وكبار السن . وكل من يعلن ولاءه من بين الشيوخ يحق له أن يعتمد على حماية الرجل له بصورة دائمة، وعونه له فى وقت الشدة ، بما فى ذلك تعويضه عن كل خسارة من الخسائر التى تلحق به ، كبرت أم صغرت ، جراء خدمته لسعود .

كان أشد أنواع العقاب الذى يجرى تنفيذه بأمر الشيخ الوهابى هو حلق لحية المذنب . وهذه العقوبة يجرى تنفيذها فقط فى الأشخاص البارزين ، وشيوخ القبائل المتمردين ، وهى عند البعض فضيحة الموت أهون منها . والعربى الذى تحلق لحيته يظل مختفيا عن الأنظار حتى تنمو من جديد . وهناك طرفه يرويها الناس بهذه المناسبة ، وهى توضح الشخصية الحقيقية للعربى . كان سعود يتطلع منذ زمن بعيد لشراء فرس شيخ من شيوخ قبيلة الشمر ، لكن صاحب الفرس رفض بيع الفرس بأى مبلغ مهما كان . فى ذلك الوقت كان شيخ من شيوخ القحطان قد حُكم عليه بحلق ذقنه لذنب ارتكبه وعندما أحضر الحلاق الموسى فى وجود سعود ، تعجب الشيخ قائلا : " خذ فرس الشمرى فدية للحيتى ! " وهنا ألغيت العقوبة ؛ وسمح للشيخ بالذهاب للمساومة على ثمن الفرس ، الذى كلفه ألفين وخمسمائة دولارا ، وصاحبها يقسم أنه

لولا إنقاذ لحية أحد أعيان القحطان لما باع الفرس، أو فرط فيها بأى ثمن مهما كان . لكن هذا واحد من الأمثال النادرة ؛ نظرا لأن سعود رفض فى أحيان كثيرة العروض المالية التى كانت تقدم طلبا لإلغاء حلق اللحية .

وسوف ألفت النظر هنا إلى بعض القوانين الوهابية المؤسسة على القرآن والسنة .

السارق يجبر على إعادة ما سرقه والاكتفاء بذلك ، أما إذا صاحب السرقة عنفا، فإن العقوبة تتجاوز مجرد رد الأشياء المسروقة إلى العقوبة التى تقدر بقدرها ، فإذا صاحب السرقة القتل ،أو الإصابة فقط فإن العقوبات تختلف وفق كل حالة.

من يقتل غريمه فى نزاع باستعمال خنجر أو مسدس يُعدم ، وإذا ما قتله بلكمة أو باستعمال حجر اعتبرت الجريمة ذبحا ؛ وهنا يدفع القاتل الدية نظرا لأنه لم يكن مسلحًا بسلاح قاتل أو مميت .

اتهامات السب والقدح عند الوهابيين تقاس قياسا دقيقا ؛ أبشع هذا السباب (التى لا يمكن العفو عنها) هى أن تنعت الرجل أو تسبه بأنه " كلب " . والسبة العامة هى أن تقول : " يا فاعل " (بمعنى يا فاعل الشر أو مرتكب الخطأ) ، أو " يا تارك " (بمعنى يا تارك الواجبات الدينية والاجتماعية) .

القيود التى يطلقون عليها اسم " الدّباب " والتى تستعمل فى تقييد أقدام المساجين ، تستعمل مع أفراد الطبقة الدنيا فقط . وسعود لديه سجن فى منزله يسجن فيه الأعيان أو أصحاب الجاه ؛ أو بالأحرى أولئك الذين حُكم عليهم بدفع مبلغ محدد ، ويدّعون الفقر ، ويرفضون الانصياع للحكم . ويجرى سجن أمثال هؤلاء الناس فى بعض الأحيان على أن يقوموا بدفع المبلغ .

إهمال الواجبات الدينية يعرض الشخص لعقوبات شديدة . وسبق أن تعرضت لعقوبة ترك الصلاة . عندما استولى سعود على المدينة (المنورة) ، أمر بعض رجاله ، بعد الانتهاء من أداء الصلاة فى المسجد ، بتلاوة أسماء سكان المدينة البالغين ،الذين تعين على كل واحد منهم أن يرد مؤكدا وجوده بعد سماع اسمه ، ثم أمرهم بعد ذلك

بحضور الصلاة بصورة منتظمة ؛ وإذا ما تغيب أحدهم مرتين أو ثلاث مرات ، قام سعود بإرسال بعض رجاله لضرب الرجل فى بيته . فى مكة ، وعندما كان يحين موعد الصلاة ، كان سعود يطلق رجاله على شكل دوريات فى الشوارع ، وكل واحد منهم ممسكا فى يده عصا غليظة، ويروحون يسوقون السكان بالقوة إلى المساجد ؛ صحيح أن هذا إجراء قاس ، ولكن مبرره عدم تدين المكيين . كان سعود يواظب كل عام على أداء فريضة الحج . وكان الرجل كلما سنحت له الظروف يأتى إلى هذا المكان المقدس (مكة) بالآلاف من العرب من الجنسين : الرجال والنساء . وكان آخر حج لسعود فى عام ١٨١٢م .

حاول سعود الحد من الطلاق بين مواطنيه ، لأن زيادة معدل الطلاق تؤذى من الناحية الاجتماعية والأخلاقية ، لذا ، فعندما كان يسمع أحداً يحلف بالطلاق قائلاً : (علىّ الطلاق من مراتى) ، كان يأمر بضربه . الإفطار فى رمضان بلا عذر يعرض صاحبه للإعدام . أما عبد العزيز (الذى كان أكثر تشددا من ولده) فقد أعدم أعرابيا ذات مرة جزاء له على إفطاره فى رمضان . شرب الدخان على الملأ ممنوع ؛ لكن معروف أن أهل نجد يمارسون هذه العادة فى منازلهم ؛ كما يمارس الوهابيون شرب الدخان أيضا فى مخيماتهم أثناء الليل . بعد الاستيلاء على مكة أمر سعود سكانها كلهم بأن يأخذوا غلايينهم الفارسية (التى يسميها العرب " شيشه ") على بقعة خضراء من الأرض الواقعة أمام المنزل الذى يقيم فيه سعود ، ثم أمر بتكوين تلك الغلايين على شكل كومة كبيرة حتى أشعل فيها النار ، هى والتبغ الذى جرت مصادرته من الدكاكين . بعد ذلك بفترة ، أبلغ أحد رجال حاشيته على الملأ ، أن المكيين أغفلوا أوامره ، ومازالوا يدخنون . سأله سعود : " أين وجدتهم يدخنون ؟ " رد المبلغ قائلا : " فى منازلهم " . رد سعود قائلا : " ألا تعرف أن القرآن ينص على عدم التجسس على أسرار منازل المؤمنين ؟ " . وبعد أن انتهى سعود من تلاوة آية قرآنية (*) أمر بضرب المُبَلِّغ بالعصا ، وترتب على ذلك عدم الاكتراث بالتدخين فى الأماكن الخاصة .

(*) لعله يقصد قوله تعالى ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً﴾ الحجرات - ١٢

لا يزال المكيون يذكرون بالفضل ، ذلك النظام المجتمعى الممتاز الذى كانت قوات سعود تراعيه ، وبخاصة بعد استيلائه على المدينة ، وهذا الحرص البالغ نراه أيضا فى سعود عندما كان يراقب جنوده أثناء الحملات التى يقوم بها ؛ ومن يحصل من سعود على كلمة " أمان " يصبح فى مأمن تماما من سوء تصرف الجنود . وقد ورد مثل عن حسن نية الوهابيين وصدق عقيدتهم ، وقد تمثل هذا المثل فى أن بعض الوهابيين كانوا يشاهدون فى كثير من الأحيان داخل الحرم المكى وهم يبحثون عن أصحاب بعض الأشياء المفقودة التى جرى العثور عليها ، لكى يعيدوها إلى أصحابها.

كان سعود يحمى التجارة فى ممتلكاته ، شريطة ألا تكون مع من يُسَمَّوْن المسلمين الكفرة ، أو المهرطقين ؛ وتتمثل تجارة نجد الرئيسية فى التموينات والمؤن ؛ وكانت قبائل المناطق الداخلية تفد على الرياض لشراء احتياجاتها ؛ ونظرا لكثرة سنوات القحط والجفاف فقد راح الأثرياء يخزنون كميات كبيرة من القمح . لم يكن سعود يتدخل فى هذه الأمور مطلقا ؛ وكان يسمح لهؤلاء الأثرياء فى سنوات القحط ببيع القمح بالسعر الذى يرتضونه على الرغم من أن ذلك يمكن أن يزيد من كرب الفقراء ؛ والسبب فى ذلك أن سعود كان يقول : إن محمد ﷺ لم يمنع التجار من تحقيق أكبر قدر ممكن من الأرباح من خلال أموالهم .

لقد حرَّم سعود الربا ، وهو إقراض المال بفائدة (وهذا أمر شائع بين البدو) ، وفرض لذلك عقوبات قاسية ، باعتبار أن الربا يخالف صحيح الشرع . فى حال إقراض المال ، فإن شروط الإقراض تقضى بالمشاركة فى الخسائر ، وأخذ نصف الربح فقط .

الوهابيون ليست لهم عمله معدنية خاصة بهم ، والدولارات هى العملة السائدة ؛ والسلع قليلة القيمة يجرى تقييمها بمعايير القمح ، أو يجرى شراؤها أيضا بعملات قديمة مصنوعة من النحاس الأحمر وترجع إلى أيام أئمة اليمن . ويجرى أيضا تداول عملات الزكوين البندقية لكن العملات المعدنية التركية لا يجرى تداولها مطلقا أثناء الحرب الأخيرة فى الحجاز ، وكان الوهابيون عندما يقتلون الجنود الأتراك

يجردونهم مما معهم ، وكانوا إذا عثروا على بضعة قروش فى جيوب هؤلاء الجنود ، يلقون بها على الأرض وهم مستاءون ، ومشمئزون .

الإيردات أو الدخل

تأسست الإيرادات الوهابية على نظام مماثل لذلك النظام الذى كان سائدا فى زمن محمد ﷺ . هذه الإيرادات تتمثل فيما يلى :-

١- خمس الغنيمة التى يجرى الاستيلاء عليها من المخالفين فى الحروب . هذه النسبة يجب تخصيصها للشيخ (الرئيس) ، سواء أكان هو أم أحد من ضباطه حاضرا فى تلك الحملة ؛ ويعد شيخ أبعد القبائل مسئولا عن توريد تلك النسبة كبرت أم صغرت . لم يحاول سعود مطلقا سحب الأخماس الأربعة بأعلى سعر عقب العملية الحربية مباشرة . ويتم بعد ذلك توزيع ثمن هذه الحيوانات على القوات . الجندى الخيال يحصل على ثلاثة أنصبة (نصيب لنفسه ، ونصيبين للفرس ، على حد قول العرب) ؛ ويحصل المشاة على نصيب واحد . إذا ما قتل وهابى أحدا من أفراد العدو ، واستولى على فرسه ، فإنه يسمح له بالاحتفاظ بالفرس لتكون ملكا خاصا له ، من باب مكافأته على شجاعته . وأنا لست بحاجة هنا إلى تكرار أن محمد كان يأخذ خمس إجمالى الغنائم .

٢- " الصدقات "(*) مبدا أساسى من مبادئ الشريعة الإسلامية . ومحمد هو الذى قنن مقدارها وهو ما يتبعه المشرّع الوهابى . هناك صدقات أخرى محددة من قبل الأتراك ، لكن التوزيع متروك لضمير الإنسان نفسه ؛ والوهابيون ملزمون بتقديم الصدقات للرئيس لتوزيعها . الشريعة الإسلامية حددت تحديدا دقيقا نسبة الصدقات

(*) لم يفرق الكاتب بين الفدية التى يدفعها الأمير نظير حريته وبين الصدقة التى لم يقدر الشرع مقدارها ، فقداختلط الاثنان على المؤلف ولم يفرق بينهما وبين الزكاة التى قررها المشرع وحدد مقدارها . المراجع

(الزكاة) فى الممتلكات ؛ والوهابيون لم يغيروا أى شىء فى هذا التحديد . النسبة المحددة فى الخيول ، والأغنام ، والإبل طبقا لمذاهب أهل السنة ، يمكن الوقوف على تفاصيلها فى الكتاب الممتاز الذى ألفه " دى أوهوسون " حول هذا الموضوع . كان سعود يقسم الزكاة التى يجمعها من رعاياه إلى قسمين ، القسم الذى يجىء من البدو وكان يدخل إلى خزانته الخاصة ؛ لكن الزكاة التى كانت تأتى من سكان المدن ومن الفلاحين كانت تذهب إلى الخزانة العامة أو إن شئت فقل " بيت المال.

كان سعود يُحَصِّل عشر إنتاج الزراعة المروية بمياه الأمطار فقط ؛ أما الزراعة التى تروى بمياه الآبار أو العيون ، والتى تكلف أصحابها ، فكان يحصل منها على واحد على عشرين من الإنتاج .

كان التجار يدفعون زكاة أموالهم كل عام بواقع اثنين ونصف فى المائة ، وكان كل واحد منهم يؤدى اليمين أمام جامع الزكاة ، ومع ذلك ، معروف تماما أن التجار لم يكونوا يفصحون إلا عن ربع ثروتهم أو رؤوس أموالهم ، وهذا تاجر من تجار الخضيرة فى منطقة القصيم أبلغ عن سرقة ثلاثة آلاف دولار . وتقدم على إثر ذلك بطلب إلى سعود يطلب المساعدة ، وهنا طلب سعود من كاتب بيت المال ، أو أن شئت فقل الخزانة ، فى الخضيره أن يفيده عن رأس المال الذى أبلغ عنه ذلك التاجر عند دفع الزكاة ؛ وأفاد الكاتب أن ذلك التاجر أبلغ عن ألف دولار فقط . وهنا قام سعود بمصادرة فرس التاجر وإبله، جزاء له على بلاغه الكاذب .

هذه الزكاة تثير سخط وغضب العرب الواقعين تحت حكم سعود ، والسبب فى ذلك أن هؤلاء العرب كانوا لا يدفعون ضرائب من أى نوع كان . يزاد على ذلك أن القبائل البعيدة قد تمردت فى أحيان كثيرة على هذه الصدقات ، وكانت تطرد الجباة، وتعيدهم . هذا يعنى أن البدوى لا يدفع أو يعترف بأى نوع من الضرائب، إلا إذا كان واقعا تحت ضغط أو بسبب الضرورة ، وبالمثل أيضا نجد أن الإعفاء من الزكاة هو الذى قلل من معاداة البدو لمحمد على باشا ، وذلك على العكس مما لو بقيت هذه الزكاة مفروضة عليهم ؛ وسبب ذلك أن أول إجراء اتخذه محمد على باشا هو إعفاء كل من البدو والسكان المستقرين من الضرائب كافة .

٣- القسم الأكبر من المداخيل الوهابية يأتى من ممتلكات سعود الخاصة حيث وضع قاعدة ، مفادها أنه إذا ما أعلنت منطقة من المناطق أو مدينة من المدن تمردها للمرة الأولى قام سعود بتخريبها ؛ وإذا ما حدث التمرد ثانية، جرى سلب المدينة ونهبها ومصادرة ممتلكاتها، وأراضيها، وضمها إلى الخزانة العامة . وهنا يقوم سعود بإعطاء بعض هذه الممتلكات للغرباء ، لكنه يترك القسم الأكبر منها فى أيدى الملاك السابقين ، الذين يتحولون عندئذ إلى مجرد فلاحين عند سعود ، ويكونون مجبرين حسب الظروف ، على تقديم الثلث أو النصف من الإنتاج . ويجرى نقل ملكية أولئك الذين كانوا ضالعين فى التمرد إلى أشخاص آخرين، فى حين يجرى إعدامهم ، أو يفلحون فى الهرب .

ونظرا لأن العرب لم ينتهجوا النظام الوهابى إلا بعد صراعات كثيرة، فقد جرت مصادرة مناطق كثيرة لصالح الرئيس (سعود) ، وبمجرد أن أصبحت له سلطة على الحجاز فقد تصرف بالطريقة نفسها ، فى ممتلكات كل أولئك الذين انضموا إلى محمد على باشا . فى الوقت الراهن نجد أن ملكية الأرض فى نجد مملوكة فى معظمها لبيت المال أو إن شئت فقل : الخزانة ؛ لكن ملكية أرض القصيم ، التى تمرد سكانها بصورة مستمرة ، فهى على شكل مزرعة ؛ يضاف إلى ذلك أن الكثير من قرى الحجاز ، وقرى الجبال المتاخمة لليمن مملوكة للخزانة .

٤- الغرامات التى يجرى تحصيلها نتيجة الخروج على الشرع . جريمة العصيان يجرى العقاب عليها بغرامة . وهناك معيار ثابت فى المحاكم الوهابية يقضى بفرض غرامة مالية على من يتهم إنسانا بتهمة باطلة ، وتذهب هذه الغرامة للدولة .

هذه الدخول ، فيما عدا الزكاة ، التى يجرى الحصول عليها من البدو ، يجرى إيداعها فى الخزانة العامة ، أو إن شئت فقل : بيت المال . كل بلدة وكل قرية لها خزانتها الخاصة ، التى يدفع السكان لها الحصص المقررة عليهم . وكل خزانة لها كاتب يأتى من قبل سعود ، ولديه أوامر بمنع شيخ المكان من أخذ أى شىء منها بطريقة غير شرعية . ولا يسمح للشيوخ بجمع الزكاة أو مناقشة المدفوعات . هذه

المبالغ تخصص للخدمات العامة ، ومن ثم يجرى تقسيمها إلى أربعة أقسام .. يذهب ربع هذه المبالغ إلى الخزانة العامة فى الدرعيه ؛ وربع آخر يذهب لغوث الفقراء ودفع أجور العلماء الذين يعلمون القضاة والأطفال ؛ وإصلاح وصيانة المساجد ، وحفر الآبار العامة ، إلخ . ويجرى صرف النصف الآخر على الجنود الفقراء الذين يجرى تزويدهم بالتموينات أثناء القيام بحملة من الحملات ، أو بالإبل فى حال الضرورة ؛ كما يستعمل هذا النصف أيضا فى إكرام الضيوف. من هنا فإن النقود المخصصة للضيافة يتقاضاها الشيوخ ، الذين يفتحون بيوتهم للضيافة ، ليفد إليها الغرباء ويحصلون فيها على الطعام مجانا ؛ ومن هنا تصبح مشاركة المجتمع كله فى هذا النوع من الضيافة نوعا من العدل أيضا . من هنا نجد أن ابن على ، شيخ بنى الشمر ، فى جبل الشمر ، يحصل من خزانة منطقته فى كل عام على حمولة جملين من القمح ، ومائتى حمل من التمر ، وألف دولار إسبانى ، وهو يستعمل هذا المبلغ فى شراء اللحم ، والزبد ، والبن ، ويجرى استعمال ذلك كله فى استضافة ما بين مائتين أو ثلاثمائة غريب من مختلف الأنواع ، يجرى استقبالهم وإطعامهم يوميا فى مضيفته .

من خزانة الدرعية العامة ، يجرى صرف مبالغ لغوث رعايا سعود المؤمنين ، الذين قام العدو بالاستيلاء على ممتلكاتهم الضائعة . والدرعية تعج بأولئك العرب الذين يطلبون من سعود تعويضهم عن جزء عن ممتلكاتهم الضائعة . وإذا ما تأكد سعود أن الطالب من أتباعه ، فإنه يعطيه ثلث ما يطلب . تدفع خزانة الدرعية أيضا مبالغ أخرى للعرب الذين فقدوا ماشيتهم بسبب المرض أو الحوادث . وإذا ما مات أثناء حملة من الحملات فرس أو جمل جندى من الجنود ، وجرى الحصول على غنيمة بعد هذه المعركة ، فإن سعود يعطى مثل هذا الجندى فرسا أو جملا عوضا عما ضاع منه ؛ وإذا لم يتمكن عن الحصول على غنائم من المعركة، فإن العربى يتحمل خسارته .

يحصل شيوخ العرب فى كل عام ، على هدايا من الخزانة العامة فى الدرعية ، وذلك من باب التعبير عن نية سعود الطيبة تجاه هؤلاء الشيوخ ، هذا أيضا بالإضافة إلى ما يدفع إلى شيوخ المناطق ، وشيوخ البلدان وشيوخ القرى لقاء استضافتهم للغرباء . هذه الهدايا التى يحصل عليها شيوخ البدو من خزانة الدرعية تتردد قيمتها بين خمسين وثلاثمائة دولارا إسبانيا ، ويجرى تأدية هذه العطايا تأسيا بسنة محمد ﷺ .

جباة الأموال (الذين يطلقون عليهم اسم " نواب " أو " مزكىٍّ " أو " عامل ") يوفدون كل عام من الدرعية إلى مختلف المناطق ، أو القبائل ، ويتقاضون مبلغا محددا لقاء مشاق الرحلة ومصاريفها . من هنا نجد أن كل جابٍ (عامل) من جباة الزكاة يوفد من الدرعية إلى الصحراء السورية يتقاضى خمسة وسبعين دولارا إسبانيا . والعامل عندئذ يتسلم الزكاة بعد أن يقدم إيصالا بذلك .

يتعين على البدو دفع هذه الزكاة بعد انقضاء الشهر الأول من شهور الربيع ، بعد أن تكون الإبل والنعاج قد وضعت حملها . وهنا يتفق كل من الشيخ والعامل على تحديد مكان محدد ، وليكن مسقى من المساقى على سبيل المثال ، يُخْطر عرب القبيلة كلهم بالتجمع عنده . وعليه ففى عام ١٨١٢ م على سبيل المثال قام سعود بتحصيل الزكاة من البدو المحيطين ببغداد فى منطقة المسقى المسمَّى "هندى" ،الذى يبعد عن هذه المدينة مسافة تقدر بمسير يومين أو ثلاثة .

وفى العام نفسه دفع عرب الجلاس زكاتهم عند مسقى من المساقى يبعد اثنى عشر ميلا عن مدينة حلب .

وسعود يدفع من خزانته الخاصة مصروفات منشآته الخاصة، وحرسه الخاص .

وهنا يجب ألا يغيب عنا أن الشيخ الوهابى يكشف عن جشع كبير فى تعامله مع رعاياه ؛ هذا يعنى أن دخل سعود كبير على نحو يجعله قادرا على تحمل الإنفاق العام – وهو إنفاق ليس بكبير – إضافة إلى أن جيشه لا يكلفه شيئا . وعلى سبيل المثال

العرب يقولون : إن أى إنسان إذا ما كان يمتلك فرسا جيدة ، فإن سعود يختلق له مخالفة كى تكون مبررا لاستيلائه على تلك الفرس . وهم يقولون أيضا إن الثروات الطائلة التى جمعها زادت من رغباته فى جمع المزيد : والعرب يعلنون أنه منذ قيام سعود بالاستيلاء على مقام الإمام الحسين ، الذى استولى فيه على كثير من الغنائم ، ومنذ سلب ونهب مدن اليمن ، بدأ تدهور كبير يظهر على شخصية سعود ، كما ازداد جشعا على جشعه اليومى . وأنا لم أسمع مطلقا عن تجريد سعود لممتلكات أى عربى دون أن يكون لذلك سبب شرعى . جشع سعود هذا هو الذى جعل الشيوخ يتحولون عن مساندته قبل أن يهاجم محمد على باشا الحجاز بزمن طويل ؛ ولو كان سعود قد تصرف بحرص فى ذلك الوقت مثلما فعل الباشا فى مسألة توزيع النقود على الشيوخ ، لاستحال على محمد على باشا الحصول على موطئ لقدم فى تلك البلاد .

لم ينكر سعود أنه كان مذنبا فى عقابه القاسى للمجرمين ؛ وكان الناس يسمعونه يقول : إنه لولا الأعمال السيئة التى قام بها هو وأصدقاؤه ، لشق الدين طريقه إلى القاهرة ، وإلى القسطنطينية منذ زمن بعيد .

هناك كثير من الأقوال المبالغ فيها عن دخل الدولة السعودية . بعض المكيين العليمين ، الذين كانوا وثيقى الصلة بسعود فى معظم الأحيان ، وبأسرته أيضا ، وأتيحت لهم - أيضاً - فرص كثيرة لمعرفة الحقيقة ، ولم يكن لديهم أى مبرر لإخفائها ، أبلغونى أن أعظم مبلغ تسلمه سعود شخصيا ، أو جرى إيداعه فى الخزانة العامة فى الدرعية ، خلال عام واحد ، هو مليونا دولار إسبانى ؛ بينما هذا المبلغ لم يكن يزيد على مليون دولار فى كل عام . وهذا لا يشمل المبالغ التى تتسلمها الخزائن الموجودة فى المناطق والمدن ؛ والتى كان يجرى صرفها كلها دون أن يتبقى منها شىء فى نهاية العام .

ولما كانت نفقات سعود الخاصة شديدة الاعتدال ، فذلك يعنى أن الرجل لابد أن يكون ثريا للغاية من الناحية المالية ، وأنه كان يحتفظ بذلك النقد فى منزله فى الدرعية . ومع ذلك ، وفى ظل هذه الثروة ، ومع كل هذه القوة ، لم يستطع سعود أو والده

إخضاع العرب الذين ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؛ هذا يعنى أن سعود ووالده اضطرا إلى ترك هؤلاء العرب أحرارا ؛ كما يجب عدم التسليم بأن العرب يستسلمون لأى حاكم مطلق آخر ، أو لأى غازٍ أجنبى ، قد يمر عابرا بلادهم ، ولا يمكن له أن يقيدهم بسلاسل دائمة . العرب فى الوقت الحالى يطيعون القانون، ولا يطيعون سعود ، الذى هو الشيخ الكبير فى واقع الأمر ، وليس سيدا للجزيرة العربية ، وعلى الرغم من كراهية العرب للزكاة ، فهم يعلمون أن قسما كبيرا منها ينفق فى مصالح تخصهم هم شخصيا ، وهذا حل أو مصالحة لا ينعم بها الفلاحون الأتراك مطلقا .

الشئون العسكرية الوهابية

فى المسائل العسكرية لا يوجد بين الوهابيين والبدو سوى فرق طفيف . فى غياب الجيش النظامى يقوم شيخ القبيلة بتجميع العرب المحاربين من أهل مخيمه عند الاستعداد للقيام بحملة على العدو ، ويجرى حل هذا الفيلق بعد العودة مباشرة من الحملة . هذا هو حال الوهابيين . لم يحدث أن كان لسعود ووالده جيش أو قوات نظامية باستثناء حوالى مائة رجل يجرى الاحتفاظ بهم فى الدرعية . والشيخ الوهابى (سعود) إذا ما أراد القيام بحملة من الحملات ، أصدر أوامره لشيوخ القبائل وشيوخ المناطق ، بالحضور فى تاريخ محدد إلى مكان محدد ، يكون معروفا وشهيرا فى الصحراء . فى بعض الأحيان يطلب الشيخ الوهابى عددا محددا من الجنود من أحد الشيوخ ، الذى يقوم بتجميع هؤلاء الجنود من القرى والمخيمات التى تحت إمرته . وعلى سبيل المثال ، إذا ما طُلب من شيخ القصيم تجميع ألف جندى فإن كل منطقة يتعين عليها المساهمة فى ذلك العدد طبقا لعدد سكانها . سكان المدن (أو مخيمات البدو) يقومون بتسوية هذه المسائل وديا فيما بينهم . وبذلك يجرى تقسيم أصحاب الذلل أو إن شئت فقل : إبل الركوب ، إلى مجموعتين ؛ تذهب واحدة منهما إلى الحرب فى الحال ، أما الثانية فتكون تحت الطلب . الجميع بدءا من سن الثامنة عشرة إلى سن الستين يتحتم عليهم المشاركة فى الحرب ، سواء أكانوا

متزوجين أم غير متزوجين ، أو حتى أرباب عائلات . وكل من يملك فرسا لابد أن يشارك في الجماعة كلما دعا الداعي ، اللهم باستثناء الخيالة من ذلك بناء على أوامر الشيخ الوهابي ؛ وإذا ما تأخر أحد أو تقاعس عن المشاركة قام الشيخ بالاستيلاء على فرسه ، أو جمله ، أو بعض من أغنامه ، على سبيل الغرامة . كان سعود قاسيا تماما في مسألة الغرامات ؛ يضاف إلى ذلك أن المهام العسكرية الثقيلة التي ألقيت على عاتق أصحاب الخيول اضطرتهم أمام وطأة هذه المهام إلى بيع تلك المخلوقات النبيلة القيمة ، الأمر الذي أدى إلى نقص عدد الخيول في ممتلكات سعود .

في بعض الأحيان كان يجري طلب تجميع القوات دون تحديد أعداد بعينها : في مثل هذا الحال يتعين على كل من عنده ذلول الحضور . في بعض الأحيان كان الرئيس الوهابي (سعود) يقول : " نحن لن نحصي أولئك الذين انضموا إلى الجيش وإنما سنحصي أولئك الذين تخلفوا : " وهنا يضطر كل من يقدر على حمل السلاح إلى الحضور والمشاركة ، وكان الفقراء يجري تزويدهم بالإبل والسلاح عن طريق الأغنياء ، أو عن طريق بيت المال . وفي حال القيام بحملة بعيدة المسافة (مثل الحملة التي جردها سعود على دمشق في عام ١٨١٠ م ، أو الحملة التي جُرِّدت على عُمان)، كان سعود يأمر شيوخه بإحضار " السَّل " (والمقصود " بالسَّل " هنا هم صفوة الخيَّالة ، وصفوة الجمَّالة) . في مثل هذا الحال لا ينضم إلى الجيش سوى واحد فقط من بين كل عشرين ، على الرغم من معرفة الجميع بالغرامة الثقيلة التي تفرض في مثل هذه الظروف . وهم يفضلون ذلك على تحمل النفقات الباهظة استعدادا للحملة ، وتوفير تموينات ومؤن تكفي مدة أربعين أو خمسين يوما ، يدفعون هم أثمانها من أموالهم .

تعيينات الجندي الوهابي وتموييناته عبارة عن مائة رطل من الدقيق ، وخمسين أو ستين رطلا من التمر ، وعشرين رطلا من الزبد ، وجوالا من القمح أو الشعير للجمل ، وقربة ماء . يجري خلط الدقيق بالتمر وعجنه على شكل عجينة ، يجري خبزها في الرماد المتخلف عن النار ، وتلك هي وجبة الإفطار أو إن شئت فقل : وجبة

الصباح ، وأيضا هي وجبة المساء . يزاد على ذلك أن ثمن هذه التموينات ، والوقت الذى تستغرقه أى حملة من الحملات ، ويجب الاستفادة منه إلى أبعد حد ممكن ، وكذلك الإصابات التى تلحق بالجمل نتيجة الجهود المضنية (التى تقتل الكثير من الإبل على الطريق) ؛ كل هذه الأمور تجعل الحضور العسكرى أمرا مرهقا يكلف الرجل الفقير الكثير . إذن : لم تكن مسألة الاستدعاء عامة يجوز للعربى أن يستأجر بديلا نظير مبلغ يتردد بين ثمانية وعشرة دولارات إسبانية فى الحملة العادية التى تستمر أربعين يوما ، إضافة إلى المؤن والتموينات المطلوبة للجندى .

فى حالة قلة عدد الإبل ، يمكن لراكب الجمل أن يأخذ معه رفيقا (والعرب يسمون هذا الرفيق "الرَّديف " وهو يركب خلف الجمَّال)

كل الرجال الوهابيين جنود إلى حد أن الشيخ الوهابى (سعود) يمكنه استدعاؤهم للخدمة فى أى وقت يشاء، بل فى أى لحظة من اللحظات ؛ وخلال أسبوعين يستطيع سعود جمع جيش من القوات الممتازة . لكن هذا النظام ، على الرغم من الغزوات ، لا يناسب مشروعا للقيام بعملية غزو دائم على مسافة بعيدة .

المذهب الوهابى يجعل الحرب مشروعة ضد مخالفيه. من الواضح أن القسم الأكبر من الجزيرة العربية أصبح خاضعا للوهابيين ، إذ كانت حملاتهم موجهة أصلا ضد جيرانهم الشماليين ، بدءا من البصرة ، وبطول نهر الفرات وصولا إلى سوريا . يبدو أنهم لم يكونوا يرغبون فى مد ممتلكاتهم إلى ما وراء الجزيرة العربية ؛ الأمر الذى جعلهم يقصرون هجومهم على كل من العراق ، وبلاد الرافدين ، وسوريا، وكان الهدف الرئيسى من تلك الهجمات هو السلب والنهب . والهجوم المفاجئ هو أفضل أنواع الهجوم فى حال السلب والنهب ؛ ولم يخض الوهابيون أى نوع من العمليات الحربية سوى هذا النوع فقط ؛ هذا يعنى أن شيخ (رئيس) الوهابيين كان ينتوى ، بلا أدنى شك ، أن يجعل من نفسه سيدا أوحد للجزيرة العربية وقبائلها ؛ يزاد على ذلك أن كل أولئك الذين رفضوا دعوة شيخ الوهابيين (سعود) إلى أن يصبحوا مسلمين حقيقيين ، كانوا يتعرضون فى سائر الأنحاء لهجمات أتباعه عليهم ؛ كان

الوهابيون يدمرون حقول هؤلاء الناس ، ويقضون على نخيلهم ، أو يستولون على ماشيتهم ؛ فى حين كان جيرانهم الذين اعتنقوا المذهب الجديد ، يواصلون حيواتهم المعتادة دونما مضايقات من الوهابيين . عند هذا الحد بدأت جموع من الناس تتوافق مع الوهابيين أملا فى إنقاذ ممتلكاتهم وأنفسهم من المضايقات المستمرة ؛ لكن قلة قليلة من المناطق أو القبائل التى قبلت المذهب الجديد من الناحية الظاهرية ، بينما أبقت على أعرافها وشرائعها من الناحية الفعلية . وهنا قام شريف مكة بتشكيل فرق كثيرة لمقاومة الأسرة السعودية ، أو بالأحرى أسرة سعود ، شيخ الوهابيين ؛ واعتبر البدو خضوعهم فى أول الأمر كأنه تحالف مع قبيلة أقوى منهم من قبائل الجوار ، وأن بوسعهم التحلل من هذا التحالف فى أى وقت ، وإحالته إلى حرب . وعليه سارعت المناطق القوية موقعًا وسكانًا ، مثل الشمر ، والحجاز ، واليمن ، ومناطق أخرى بعيدة عن المقر الرئيسى للسلطة الوهابية فى نجد إلى الاسترخاء والتكاسل فى إطاعة أوامر الرئيس الأكبر (سعود) ، وأصبحت لا تلتزم أو تنتظم فى دفع الزكاة .

فى بداية الأمر ذكَّرهم الرئيس الأكبر بما هو مطلوب منهم عن طريق النصح الأبوى ، الذى أخذوه على أنه مؤشر ضعف من جانب الرجل ، ومضوا بعد ذلك فى التمرد بصورة علنية . فى مثل هذا الحال ، أعلن سعود لكل شيوخه أن " هؤلاء الأعراب قد أصبحوا أعداءً ؛ وأن كل إنسان حر فى الهجوم عليهم دون أوامر منه " . ثم جرد بعد ذلك ثلاث أو أربع حملات سريعة على هؤلاء الأعراب ؛ وسرعان ما أعيد إخضاعهم ، مخافة أن تضيع منهم محاصيلهم وماشيتهم . فى أحيان كثيرة كان الناس يسمعون سعود وهو يقول : إن العرب لا يتحولون إلى وهابيين مخلصين إلا بعد أن تقوم قواته بالهجوم عليهم مرتين أو ثلاث مرات ، وتدمر ممتلكاتهم ، وتسلب منهم ماشيتهم .

بعض القبائل القوية جدًا والنائية جدا ، نجحت فى معارضتها دفع الزكاة ، على الرغم من اعتناق المذهب الوهابى ، وعليه ، وفى عام ١٨١٠ م وبعد أن ترسخت سلطة

سعود فى الجزيرة العربية ؛ رفض العنزة دفع الزكاة ؛ وهنا وجد سعود أن من الحكمة ألا يحاول إخضاعهم عن طريق القوة ، ولكنه واصل مراسلاته مع شيوخهم الذين كانوا يطيعونه من الناحية الاسمية فقط ، لكنهم كانوا يتصرفون فى واقع الأمر بدافع من مصالح قبائلهم .

من السهولة بمكان ملاحظة أن الوهابيين بشكل عام كانوا فى حالة حرب مستمرة وكان سعود يقوم كل عام بحملتين أو ثلاث حملات كبيرة ؛ وكانت المناطق المجاورة للبصرة (الغنية بالماشية والتمور) وكذلك ضفاف شط العرب ، والفرات وكذلك منطقة أناه ، بمثابة المسارح التى توجه إليها تلك الحملات كل عام . لقد وصل الأمر إلى أن قوات سعود كانت تعبر الفرات وتنشر الفزع والخوف فى بلاد الرافدين ؛ وفى الناحية اليمنى من ممتلكات سعود لم يكن بعد قد استولى على اليمن، أو حضرموت أو عُمان التى كانت تمثل غنيمة من الحقول الخصبة . لم يكن سعود يصاحب تلك الحملات ، وإنما كان يرسل واحداً من أبنائه لقيادة الحملة ، أو يرسل بدلا من ولده واحداً من الشيوخ المرموقين ؛ وقد شاهدنا مرارا واحداً من عبيده السود ، وهو المدعو " حرك " على رأس فيالق وهابية متعددة .

وابن سعود حينما كان يخطط لحملة من الحملات لم يكن أحد يعرف الهدف منها إلا هو وحده . وقد درج على جمع أمرائه عند أحد المساقى ، على نحو يخدع العدو الذى ينتوى الهجوم عليه . من ذلك مثلا أن الحملة المنتظرة إذا ما كانت ستهجم على شمالى الدرعية ، فإن الرجل يقوم بتجميع جيشه فى مكان فى جنوبى الدرعية على بعد مسير أيام عدة . ثم يبدأ بعد ذلك هجومه من ناحية الجنوب ، لكنه سرعان ما يلتف ، ويختصر الطريق ويهجم على العدو ، الذى يفاجأ بالهجوم . هذه المراوغة أمر ضرورى جداً ، والسبب فى ذلك أن الأخبار كانت تنتشر مثل البرق فى سائر أنحاء الجزيرة العربية ، لتفيد أن سعود قد استدعى قواته للقائه فى مكان بعينه ؛ وإذا ما استطاع العدو التعرف على الهدف الذى يبتغيه الهجوم يصبح فى وسعة الاستعداد للمقاومة أو الهرب .

كانت حملات سعود مخططة بحرص كبير وبُعد نظر ، وكانت تُنفذ بمهارة يصعب معها فشل أية حملة من تلك الحملات . من ذلك مثلا أنه عندما غزا الحوران فى عام ١٨١٠ م ، وعلى الرغم من أن وصوله إلى نقطة الهجوم قد استغرق خمسة وثلاثين يوما ، فإن أنباء اقترابه من ذلك المكان لم تصل إلى أحد إلا قبل الوصول بيومين ؛ ولم يكن معروفا مطلقا ذلك الجزء الذى سيجرى الهجوم عليه فى سوريا ؛ وبذلك تمكن جنود سعود من سلب ونهب وتدمير خمسة وثلاثين قرية من قرى الحوران قبل قيام باشا دمشق بأية عملية من العمليات الدفاعية .

شكل سعود لنفسه، من بين أشجع الشجعان وأشهر المحاربين ، حرسا خاصا يقولون له " منجية " ؛ وهو يحتفظ بهذا الحرس فى الدرعية بصورة دائمة ، كما أنه يشكل القوة النظامية الوحيدة من بين قوات سعود . الذى عندما يسمع عن خَّيال بارز ، يدعوه إلى الدرعية ، ويدخله فى خدمته ، ويعطيه هو وأسرته مؤنة سنوية من القمح ، والزبد ، والتمر . كما يعطى ذلك الخيال أيضا فرسا أو ذلولا جيداً . هذا الحرس الخاص يرافق سعود بصفة دائمة أثناء حملاته . واسم هذا الحرس الخاص يخشاه ويخافه أعداء الوهابيين ، والسبب فى ذلك أن هذا الحرس لم يتخل مطلقا عن طبيعته الشجاعة . وسعود يحتفظ بهم كنوع من الاحتياطى أثناء المعركة ، وقد تلحق جماعات صغيرة من هذا الحرس على القوات لمعاونتها . يصل عدد أفراد هذا الحرس الخاص إلى ما يقرب من ثلاثمائة رجل ، وهم جميعا يحاربون وهم يرتدون دروعا كاملة . خيول الحرس الخاص يغطيها " اللباس " واللباس نوع من المادة المكونة من الصوف (المكسو باللباد) ويصعب على الحراب اختراقه ، كما يصعب أيضا على السيوف قطعه . ولما كانت الخدمة العسكرية اختيارية ، فإن سعود كان يثق تماما فى ولاء هذا الحرس له .

أخذ سعود معه فى الدرعية ، علاوة على " المنجية " أو إن شئت فقل : الحرس الخاص ، كثيرا من العقداء أو بالأحرى رؤساء الحروب فى القبائل البدوية (وقد سبق

الإشارة إلى هؤلاء العقداء ، في موقع من الصفحة رقم ١٦٨ من النص الإنجليزى) . قلل سعود من قوة تلك القبائل عندما أخذ منها شيوخها ، وقوى هو جانبه بوصوله إلى هؤلاء الرجال الشهيرين ؛ الذين كانوا ، إذا ما وثق بأمانتهم وحرصهم على مصالحه ، راح يسند إليهم قيادة حملاته .

الوهابيون يشنون هجماتهم طوال العام ، أو بالأحرى فى كل شهور السنة ، كما يشنونها أيضا فى شهر رمضان المعظم . كان سعود مولعا ولعا شديدا بشهر ذى الحجة وأتباع سعود يدعون أنهم لم يهزموا قط فى أية حملة من الحملات التى قاموا بها فى ذلك الشهر . ولما كان سعود يؤدى فريضة الحج سنويا وبصفة منتظمة ، فإن أعداءه – وبخاصة قبائل بلاد الرافدين القوية – كانوا يتحينون فرصة غيابه فى مكة ويهاجمون أراضيه .

عندما كان سعود يشعر بالحرج إزاء خيارين متساويين فى المزايا والعيوب ، كان يلجأ فى معظم الأحيان إلى ما فعله محمد ﷺ ، بأن يصلى صلاة قصيرة ، قبل النوم ، ويفسر فى صبيحة اليوم التالى الحلم الذى رآه أكان مع ، أم ضد ما يريد(*) . ولم يكن سعود يسمح للشيوخ بمعرفة أى شىء عن خططه .

أثناء الحملة يحمل كل شيخ من الشيوخ بيرقه الخاص به ، وسعود نفسه لديه بيارق عدة من ألوان مختلفة . وخيامه شديدة الأناقة ، مصنوعة فى دمشق وبغداد ؛ لكن أتباعه خيامهم خيام عربية سوداء اللون ، لكن السواد الأعظم من هؤلاء الأتباع ليس لديهم خيام . وأمتعة سعود ومؤنه وتمويناته يحملها مائتا جمل . وهو يحمل معه تموينات كبيرة فى الحملات البعيدة ، كى يستطيع إغاثة قواته التى قد تخسر مؤنها وتمويناتها ؛ وهو عندما يمر على منطقة مأهولة بالمستوطنين المستقرين أو البدو ، فإن الناس ينتظرون منه معاملة الضيوف كلهم بالطريقة نفسها مثلما يحدث فى الدرعية .

(*) تلك الصلاة عرفت عند المسلمين بصلاة الاستخارة – المراجع –

وإذا ما كان مسير الجيش أثناء الليل، فإن سعود وكبار الشيوخ تتقدمهم المشاعل . المسير أثناء الليل لا يحدث إلا عندما تكون نقطة الهجوم محددة ، وهنا يجرى عبور المسافة التى تستغرق أربعة أو خمسة أيام فى يومين فقط . الجيش الوهابى تتقدمه دوما مقدمة مكونة من ثلاثين خيالا (يسمونها " السَّبر ") وهذه المقدمة تتقدم الجيش فى المسيرة التى تستغرق يوما أو يومين . والبدو لديهم عرف مماثل يرسلون بمقتضاه مقدمة تسبقهم ببضع ساعات .

عندما يقترب الجيش من العدو ، ينقسم إلى ثلاثة أو أربعة أقسام (فيالق) واحدا بعد الآخر . أول هذه الفيالق والذى يقوم بالهجوم يكون مكونا من الخيالة ، باعتبارها القوة الرئيسية فى الجيش . يقوم الفيلق الثانى بمساندة هذا الفيلق ، والفيلق الثانى يكون مكونا من الجمّالة الذين يتقدمون إذا ما انهزم الخيالة . توقف سعود شخصيا منذ زمن طويل عن القتال ، وأصبح ينتظر فى المؤخرة . تفوق قواته على قوات العدو هو مايمكنه من إرسال التعزيزات إلى رجاله فى المعركة بصفة مستمرة ، ولم يحدث أن تشكك الوهابيون فى النصر فى أى وقت من الأوقات . من أشهر خدع سعود أنه كان يفر أمام العدو ، ثم يتوقف فجأة للهجوم على المطاردين المرهقين .

وسعود يؤكد على دخول مقاتليه الذين يموتون فى القتال الجنة ، طبقا لما نص عليه القرآن . وعندما يُقتل شيخ فى المعركة وتعدو فرسه (كما هى العادة) عائدة إلى صفوف القوات ، التى تعرفها ، يجرى إبلاغ ذلك إلى الرئيس الأكبر باعتباره خبرا يحمل مضمونا مفرحًا ؛ والسبب فى ذلك أن الشيخ يكون قد دخل الجنة بالفعل . وهنا يستعمل المبلغون العبارة التى تقول : " مرحى لك يا سعود ! لقد عادت فرس فلان ! " .

الفيالق الوهابية الطائرة ، إذا ما قامت بتخريب وسلب ونهب مخيم من مخيمات العرب ، فهم يجبرون النساء على التعرِّى ، ويبتعدون عنهن ويلقين لهن بعض الخرق لستر عوراتهن . ولا تهان المرأة أكثر من ذلك . وبعد توقف الغزو يقوم الأمير قائد

الغزو بتوزيع بعض الملابس عليهن ، ويعطى كل أسرة جملا وكمية من التموينات تكفيهم أثناء رحيلهم إلى مخيم من مخيمات الأقارب أو الأصدقاء . ونظرا لأن أزواجهن قد لا يكونون قتلوا فربما فروا هربا ، فيترتب على ذلك ، فى بعض الأحيان ، بقاء نساء المخيمات التى جرى غزوها ، أيام عدة مع الغزاة ، ويمشين معهم طلبا للحماية على الطريق .

والوهابيون وهم ينشرون مذهبهم ، أرسوا قاعدة أساسية تقضى بقتل الأعداء المسلحين كلهم ، سواء أكانوا من الكفار الأجانب (مثل الجنود السوريين ، أو جنود بلاد الرافدين ، أو الجنود المصريين) ،أم من العرب أنفسهم الذين عارضوا الرئيس الأكبر ، أو تمردوا عليه فإن هذا الإجراء (الذى يتأسى فيه الوهابيون بناشرى الإسلام الأولين) هو الذى يجعل الناس يخافون الاسم الوهابى ويخشونه تماما . طوال حرب الوهابيين مع جنود محمد على باشا التى دامت أربع سنوات لم يحدث أن آوى الوهابيون تركيا واحداً . وبعد الاستيلاء على كربلاء (مشهد الحسين) والطائف ، قام الوهابيون بذبح السكان الذكور كلهم ؛ وفى المدينة السابقة المسماة حارة العباسية أو بالأحرى حى العباسية ، هو الوحيد الذى لم يجر تخريبه نظرا لأن سعود كان يوقر الخلفاء العباسيين توقيرا شديدا . الشىء نفسه يحدث عندما يقوم الوهابيون بتخريب أو غزو مخيمات البدو ؛ هذا يعنى أن كل من يقبض عليه وهو حاملا سلاحا يجرى قتله بلا رحمة أو هوادة . هذه العادة الوحشية هى التى أوحت للوهابيين بتشدد وحشى يجعلهم مصدرا للرعب والفزع عند خصومهم ، الأمر الذى سهّل من عملية نشر المذهب الوهابى .

القائد الوهابى على استعداد لإعطاء السلام لأعدائه إذا ما استسلموا له طواعية واختيارا ؛ والوهابيون يميلون إلى ذلك فى معظم الأحيان ، كما لو كانوا لا يعرفون أن الوهابى الكبير قد حنث فى وعده فى مرة من المرات . وهنا يجب أن نقر ونعترف بحسن نية البدو تجاه عدوهم ؛ بل هذه صفة نبيلة فى شخصيتهم . هذا يعنى

أيضا ذيوع صيت سعود أثناء حربه مع محمد على باشا ؛ وهذا على العكس تماما من خيانة الأتراك .

وسعود إذا ما هدد استسلم له العرب قبل أن يصل انتقامه إليهم ، وهو عادة ما يعطيهم " أمان الله" بشرط " الحلقة " التى تستبعد من الأمان ، الخيول كلها ، والإبل كلها ، والدروع ، والحراب ، والسيوف ، والأوعية النحاسية كلها ، التى ينبغى تسليمها غنيمة للوهابيين ؛ وما يتبقى بعد ذلك يظل بأيدى أصحابه بلا مساس .

فى بعض الأحيان يعطى سعود الأمان بلا قيد أو شرط ، ويمتد إلى الأشخاص والممتلكات . القادة الوهابيون كلهم لديهم تعليمات صارمة بقبول أى عرض من عروض الاستسلام من العدو، وأن يلتزموا تماما بوعد " الأمان " الذى جرى قطعه .

بعد أن يقوم سعود بإخضاع قبيلة متمردة أو منطقة متمردة ، يرسل (عقب إبرام الصلح مباشرة) فى طلب شيوخ المتمردين ، ويجعلهم يقيمون مع أسرته أو عائلته فى الدرعية ، أو فى منطقة قريبة منها ، ويروح يزودهم بكميات كبيرة من المؤن والتموينات . وبذلك يضعف من نفوذ هؤلاء الشيوخ بين أهليهم ؛ مستبدلا إياهم بشيوخ آخرين من الذين يعتمد على ولائهم ، منتقيا إياهم من بين العائلات التى كانت على خلاف مع الشيوخ الذين جرى إخضاعهم . وبذلك تمكن سعود من تجميع عدد كبير من الشيوخ من سائر أنحاء الجزيرة العربية ، ليكونوا قريبين منه فى الدرعية وفى نجد . هذا لا يعنى أن هؤلاء الشيوخ فى عرف المسجونين أو الأسرى ؛ لكنهم لا يستطيعون الهرب من المكان المحدد لهم . وكل سكان الصحراء يعرفون حق المعرفة أن أى شيخ من الشيوخ لا يمكن أن يقبل أن يكون " نكرة " طوال حياته .

بعد الاستيلاء على المدينة (المنورة) وجد سعود أن من الضرورى أن تبقى فيها حامية وهابية بصورة مستمرة ؛ ولم يحدث ذلك إلا مرة واحدة طوال سنوات حكمه . والسبب فى ذلك أن سعود لم يجد من الحكمة الإبقاء على حامية فى المنطقة التى فتحها ، لكنه كان يعتمد على الشيخ الذى ينصِّبه على مثل هذه المنطقة من ناحية ،

وعلى الفزع والخوف الذى ينطوى عليه اسم سعود نفسه من ناحية أخرى، الأمر الذى يؤدى إلى استمرار خضوع المنهزم . ومع ذلك ، كان سعود يأمر شيوخه الجدد فى بعض المناطق ، فى جنوب مكة ، ببناء قلاع صغيرة ، أو أبراج للدفاع عن منازلهم . فى المدينة (المنورة) ذلك المعقل المهم ، والذى كان ابن سعود على ثقة بأن أهلها معارضون لمذهبه ولشخصه أيضًا ، لذا فقد رأى الاحتفاظ فيها بحامية من عرب نجد واليمن ، وسلحها بالبنادق الفتيلية ، وكان يدفع لكل فرد من أفراد الحامية سبعة دولارات إسبانية شهريا، بالإضافة إلى بعض المؤن من الدقيق والزبد . هؤلاء السكان من مدن نجد ، والمسلحين ببنادق فتيلية ، هم عبارة عن أحسن الفيالق المنتقاه فى الجيش الوهابى . وهو يعهد إلى هذه الفيالق بأشد المهام صعوبة . هذه الفيالق هى التى غزت كربلاء واستولت عليها .

استيلاء الوهابيين علي المدينتين المقدستين مكة ، والمدينة (المنورة)

أثناء مقامى فى الجزيرة العربية تحريت مرارا مسألة العثور على تاريخ مدون للوهابيين، ظنا منى أنه ربما قام أحد المتعلمين فى مكة (المكرمة) أو المدينة (المنورة) بتأليف عمل من هذا القبيل ؛ لكن بحثى لم يسفر عن شئ . لا أحد يدون الأحداث اليومية ، وسرعان ما ينسى الناس تواريخ مثل هذه الأحداث ، قلة قليلة من الناس ، الذين على علم تام بما يجرى فى المناطق المجاورة لهم ، لا يعرفون القدر اليسير عن المعاملات البعيدة ؛ يضاف إلى ذلك أنه قبل كتابة تاريخ كامل و مقنع للشئون الوهابية يتحتم القيام برحلة خلال كل أجزاء الجزيرة العربية . بغداد بحكم قربها من نجد ، المركز الرئيسى للممتلكات الوهابية ، تعد فى الوقت الراهن أنسب الأماكن التى يمكن الحصول منها على المعلومات والأخبار الدقيقة .

وأنا سوف أورد هنا بعض التفاصيل القليلة الخاصة بهؤلاء الناس غير العاديين قبل قيام الأتراك بغزو الحجاز مرة ثانية ؛ وهذا حادث وأنا قادر على وصفه

وصـفا على قدر كبير من الدقة ؛ نظرا لأنى عشت فى هذه البلاد يوم أن كانت الحرب لا تزال دائرة .

كان الوهابيون قد أرسوا مـذهبهم الجديد ، ونجحوا فى اكتساب العديد من المتدينين الجدد ، كما نجحوا مرات متتالية فى غزو نجد والاستيلاء عليها ، وإخضاع القسم الأكبر من القبائل البدوية الكبيرة التى تتغذى ماشيتها على مراعيها فى فصل الربيع ، ثم تتراجع إلى الصحراء من جديد . ومع ذلك لم تكن الحرب قد أعلنت ، أو تعدى الوهابيون خلسة على حقوق الحكومتين القريبتين منهم ؛ أى حكومة بغداد فى الشمال ، وحكومة الحجاز فى الجنوب . فقد كانت قوافل الحج تمر خلال أراضيهم قادمة من دمشق ومن بغداد دون مضايقات . زيادة قوة الوهابيين وصرامتهم فى نشر مذهبهم ، استثار ، فى بداية الأمر ، حقد الشريف غالب وحده . كانت القبائل كلها المستقرة فى الحجاز خاضعة لسلطته ونفوذه إلى حد ما ، وكان الحال نفسه ينطبق على قبائل أخرى متعددة من قبائل الحدود . ولم تكن محاولات عبد العزيز لكسب القبائل الحدودية إلى جانبه بعد أن نجح فى إخضاع القبائل المجاورة لها ، بعيدة عن ذهن أو فكر الأمير غالب ، الذى نعده واحدا من شيوخ البدو الأقوياء أقوى منه أميرا شرقيا ؛ وهنا أدت الأسباب الداعية للحروب المستمرة بين القبائل الكبيرة المتجاورة فى الصحراء ، إلى بذر بذور الصراع بين الأمير غالب والوهابيين . وبعد أن تولى الأمير غالب حكم مكة بسنوات قلائل ، دخل معارك علنية وصريحة مع الوهابيين ، وكان ذلك على وجه التقريب فى العام ١٧٩٢م أو ١٧٩٣م . واستمر الأمير غالب فى هذه العمليات الحربية إلى أن استسلمت مكة . وهنا تقوى جانب الأمير غالب بفعل قبائل البجوم (فى تربه) فى الجنوب ، وبفعل بنى سالم (فى بيشه) ، وقبيلة غامد (فى الظهران) ، وبواسطة البدو العديدين المحيطين بالطائف . تواصلت تلك الحروب على الطريقة البدوية ، ولم يتخللها سوى بضع هدنات قصيرة . قام الجانبان بغزوات مفاجئة ضد بعضهما ؛ وحصل الجانبان على غنائم متوازنة . وراح غالب ، الذى كان بينه وبين الباب العالى مراسلات منتظمة فى ذلك الوقت ، يستقبل قافلة

الحجاج كل عام ، ولجأ الرجل إلى استعمال الوسائل الممكنة كلها لتشويه سمعة الحكومة التركية وموقفها المتخاذل من أعدائه . كان يقول عن الوهابيين إنهم كفره ، وإن موقفهم من الحجاج الأتراك لا يغير من هذا الرأى المشين . وراح الباب العالى يصغى إلى هذه الشكاوى والأوصاف نظرا لأن شريف مكة ، له نفوذ كبير على كثير من القبائل البدوية المجاورة له . كانت بعض هذه القبائل فى حرب مع الوهابيين ، الذين كان الناس يخشون حملاتهم على ضفاف نهر الفرات . يضاف إلى ذلك أن البلاد المحيطة كان يزورها كل عام تقريبا رهط من الوهابيين ، الذين يذبحون الكثيرين من العرب الذين يقيمون على الجانب الأيمن من النهر ، والذين كانوا رعايا لحكومة بغداد .

كانت الحجاج الفرس ، الذين يسافرون للحج عن طريق بغداد والدرعية ، يشكون أثناء عودتهم من المضايقات الكبيرة التى كانوا يلقونها من الوهابيين ، الذين كانوا يجبرون الحجاج الفرس على دفع ضريبة ، أو بالأحرى رسم مرور مبالغ فيه .

كانت أنسب المدن لشن هجوم على الدرعية هى مدينة بغداد . ومع ذلك ، كان باشا بغداد ، قليل الموارد إلى حد بعيد ، إضافة إلى أن سلطته ليست كاملة على كل حدود منطقته ، الأمر الذى عطل شن العمليات الحربية إلى ما بعد عام ١٧٩٧ م . كان سليمان باشا فى ذلك الوقت حاكما على بغداد ، وكان مشهوراً بشجاعته ، وطاقته ، وعدله ، فضلا عن الشمائل الأخرى اللازمة لشخصية تركية كبيرة تود الاحتفاظ بمنصبها . كان مساعده العسكرى مكلفا بإعداد الحملة التى ستنطلق من بغداد . كان الجيش الذى سيقوم بالحملة مكونا من أربعة ، أو خمسة آلاف مقاتل تركى ، وضعف هذا العدد من العرب الحلفاء من قبائل ظوفر وبنى الشمر ، والمنتفق. وكان خط سير الحملة موازيا للخليج الفارسى ، عبر جزء من الصحراء تتوفر فيه آبار المياه عند كل محطة من محطات التوقف . كانت الحملة فى بدايتها موجهة ضد منطقة الأحساء ، أغنى الممتلكات الوهابية وأغزرها إنتاجا .

بدلا من تقدم الجيش من ذلك المكان إلى الدرعية مباشرة (التى لا تبعد عن هذا المكان سوى مسير خمسة أو ستة أيام) ، قام بمحاصرة قلعة الأحساء المحصنة التى توقع قادته الاستيلاء عليها بلا أية متاعب . لكن طالت مقاومة القلعة مدة تزيد على شهر من الزمن ؛ وهنا أثار وصول قوة وهابية قوية بقيادة سعود ولد عبد العزيز الذى بقى فى الدرعية ، شكوكا حول مسألة النجاح ، وهنا قرر الأتراك الانسحاب والتراجع . كان سعود يتوقع ذلك الارتداد ، لذا سارع قبل الأتراك ، وخيم مع قواته عند أحد الآبار يدعى "ثاج"، على بعد مسافة مسير ثلاثة أيام من الأحساء . كانت البئر الثانية على بعد حوالى ميلين ، فقام سعود بإتلافها إذ وضع فيها أحمالا عدة من الملح ، الذى أحضره معه لهذا الغرض خصيصا . وتوقفت قوات بغداد عند تلك البئر ، وهنا يمكن لنا تصور مدى الآلام والمتاعب التى عانتها الماشية والرجال جراء ندرة المياه ؛ ولم يكن من الحكمة استمرار المسير، مخافة أن يباغت سعود الجيش ويأخذه على غرة . على الجانب الآخر ، لم يخاطر هذا القائد الوهابى بالهجوم على الأتراك الذين كانت مدفعيتهم شديدة الوطء عليه وعلى أعرابه . وبذلك بقى الجيشان طيلة ثلاثة أيام أمام بعضهما وعلى مرأى من بعضهما ، وفى موقفين متعارضين ؛ لم يكن هناك سوى خيال واحد من كل جانب من الجانبين يخرج بين الحين والآخر للاستعراض فيما بين الجيشين أو إن شئت فقل المعسكرين . وجرى تفاوض ووقعت هدنة سلام مدتها ست سنوات بين سعود الوهابى ، وبشالك بغداد ، وبعد توقيع الهدنة عاد الجيشان فى هدوء إلى موطنيهما .

جاء فشل هذه الحملة بمثابة السبب الأول فى الكوارث والمصائب التى حلت بالجانب التركى من جميع النواحى ، نظرا لأن الوهابيين كانوا قد تعودوا على احتقار القوات العثمانية والتقليل من شأنها . وسرعان ما انهار السلم . فقد جرى الهجوم على قافلة حج فارسيه كان يرافقها حارس وهابى ، وجرى سلب كل ما مع تلك القافلة فى المنطقة ما بين الحلة ومشهد ، بأيدى العرب وبتوجيه وإشراف تركى من بغداد ، وهنا بدأت بعض الجماعات الوهابية التخريبية تزور المنطقة المحيطة بالبصرة ؛ وأدى

سلب ونهب قبر الإمام الحسين ، فى عام ١٨٠١م ، إلى نشر الرعب والفزع بين المسلمين الحقيقيين ، كما أدى ذلك إلى رفع شأن الوهابيين . وجاءت مسألة توقير قبر الإمام الحسين ، حفيد محمد سببا كافيا لإثارة غضب الوهابيين وحنقهم على ذلك القبر . وجرى ذبح حوالى خمسة آلاف شخص فى تلك المعركة . وأبقى الوهابيون على حياة كبار السن من الرجال ، وابقوا أيضا على النساء والأطفال فى حين جرى احترام حارة العباسية ، احتراما من الوهابيين لمؤسس تلك الحارة . ودمر الوهابيون قبة قبر الحسين . ولكن كنوز ذلك المسجد ، وكذلك تحف وكنوز مشهد على ، جرى التحفظ عليها ونقلها بعد ذلك فى اتجاه بغداد . بعد أن أسند الوهابيون جذوع النخيل على الجدار الذى يحمى مدينة الحسين ، تسلقوا ذلك الجدار ، واشتركوا على مدار خمسة أو ستة أيام فى المذبحة التى أقاموها لسكان هذه المدينة ، كما قاموا بسلب ونهب ممتلكات السكان أيضا ؛ ثم تراجع الغزاة بعد ذلك وراحوا يهاجمون السكان العرب المستقرين فى منطقة شط العرب ؛ لكن عرب الزبير صدوهم وردوهم على أعقابهم ، كما صدهم أيضا سكان مشهد على . وحمل الوهابيون معهم كل الغنائم التى استولوا عليها، وعادوا بها إلى بلادهم .

يبدو أن أفكار الوهابيين أخذت تتوسع توسعا كبيرا بعد تدمير القبة التى على قبر الإمام الحسين ، وبخاصة بعد فشل الحملة الثانية التى جرى شنها على المنطقة المجاورة لبغداد . فقد قام الثوينى ، شيخ قبيلة المنتفق ومعه أهله وناسه وقبائل الظافر ، والشمر ، وبنى كعب بالإضافة إلى مجموعة من الجنود الأتراك ، قاموا جميعا بحملة على نجد . ودون توقف فى الأحساء واصل الجميع سيرهم إلى الدرعية ، إلى أن وصلوا إلى بئر " الصبيحى " الذى يبعد مسير يوم واحد عن المسقى المطروق الذى يسميه الناس " القويط " والذى يبعد عن الدرعية مسير خمسة أو ستة أيام . وبينما كانت القوات مخيمة فى ذلك المكان ، قتل الثوينى ، القائد ، بأيدى عبد ينتمى إلى بنى خالد ، من الوهابيين المتشددين ، وهنا وصل سعود على الفور ، وهرب جنود بغداد ؛ لكن آلافا عدة من هؤلاء الجنود لم يكونوا يعرفون الطرق ولذلك جرى قتلهم ،

على الرغم من هرب السواد الأعظم من قوات البدو . لكن كثيرا من البدو عادوا في الليلة التالية إلى بئر " الصبيحى " على أمل الحصول على شيء من الماء ، أو على أمل المرور دون أن يلاحظهم أحد، أو معاملتهم معاملة الأسرى . لكن سعود لم يحد عن عرفه الثابت ؛ فقد أمر أعرابه بقتل كل هؤلاء .

كشف عرب نجد وعرب الصحراء الشمالية عن إنسانية أكبر من الآخرين ؛ فقد أخفوا في خيامهم كثيرا من الأعداء البائسين التعساء ، وقدموا الماء اللازم لهم على الطريق ، أطلقوهم لحال سبيلهم قبل طلوع النهار ؛ في حين نجد بدو الجنوب ، على العكس من ذلك ، (وبخاصة بدو القحطان وعتيبة) قاموا بإعدام كل أولئك الذين توقفوا عند خيامهم ، ومع ذلك ، وبغض النظر عن تشددهم، أو أوامر رئيسهم، لم يستطع البدو كبت مشاعرهم ؛ وقد أكد لي أحد شهود العيان أن كل ضال من هؤلاء الجنود كان يُسمح له بأن يروى ظمأه قبل أن يلقى ضربة تودى بحياته . لقد ذكرت بالفعل أن الرئيس الوهابي لا يسمح بحق الدخيل أو بالأحرى الحماية لصالح شخص أو فرد محكوم عليه بالموت طبقا للمذهب الوهابي، وبخاصة عندما يكون عدوا وجرى القبض عليه وهو يحمل السلاح .

بدأ عبد العزيز والد سعود ، في عام ١٨٠١ م هجومه على الحجاز وعلى الشريف غالب ، بشراسة وحماس أكثر من ذى قبل . كان غالب في الحملات التي قام بها على الوهابيين ينتصر تارة وينهزم أخرى ؛ وقد حدث أن اخترق الشريف غالب نجد وظل يحتفظ طوال عام كامل بالبلدة الصغيرة التي يسمونها " شعرة " في منطقة القصيم . وفي مرة أخرى ، وبعد أن طوقته القوات الوهابية ، راح يحاربهم وشق لنفسه طريقا خرج منه أثناء الليل ، وهرب إلى بيته هو ومجموعة صغيرة من أتباعه . كان الوهابيون خلال بضع سنوات قد استطاعوا مد أذرعهم ومذهبهم إلى السواد الأعظم من قبائل الصحراء والجبال في جنوبي الطائف في اتجاه اليمن ، وهؤلاء أناس على درجة كبيرة من القوة وشدة البأس . وجرى تعيين أبو نقطة ، شيخ عبد العزيز قائدا للجميع . واضطر العرب القريبين من الطائف إلى الاستسلام

فى عام ١٨٠١ م . كان عثمان المضايفة نسيب الشريف غالب، وشيخ قبيلة العدوان التى تقيم فى تلك الأجزاء ، على عداء منذ سنوات مع الشريف غالب ؛ ونظرا لأن عثمان المضايفة كان يتمتع بكل الصفات المطلوبة للشيخ البدوى فقد عينه عبد العزيز ، بعد إخضاع هذه المنطقة ، شيخا لقبائل الطائف ومكة ، وامتد نفوذه أيضا حتى منتصف الطريق المؤدى إلى المدينة (المنورة). وهنا أمكن تحجيم غالب تحجيما تاما ، لكن ذلك لم يفقده قوته ؛ فقد قام غالب بتجميع البقية الباقية من أتباعه ، وراح يحاول غزو نجد من جديد ، لكنه لم يحقق نجاحا كبيرا .

فى عام ١٨٠٢ م قام عثمان المضايفة بمحاصرة الطائف ؛ وجرى الاستيلاء عليها بعد مقاومة باسلة ، تلك المدينة الجميلة ، المنتجع الصيفى لكل المكيين الأثرياء ، وجنة الحجاز على حد قول العرب . هذه المدينة لقيت مصير قبر الإمام الحسين ، لكن بفارق واحد ، وهو أن عداء عثمان المضايفة للشريف غالب هو الذى أغراه وجعله يدمر القسم الأكبر من مبانى المدينة الجميلة ، يضاف إلى ذلك أن جنود عثمان المضايفة فى المذبحة التى أقاموها لأهل هذه المدينة ، لم يتركوا الضعفاء أو الأطفال، وإنما قتَّلوا الجميع كبارا وصغارا . وفى العام نفسه استولى المضايفة أيضا على القنفذة ، ذلك الميناء الذى يقع على البحر الأحمر ، والذى يبعد مسير سبعة أيام جنوبى جده والذى كان من بين ممتلكات الشريف غالب .

لقد زادت هذه النجاحات الوهابيين شجاعة على شجاعتهم . واعتبارا من ذلك الحين بدأت قوافل الحج السورية والمصرية تمر إلى الحجاز بصورة منتظمة . على الرغم من محاولات الشريف غالب المستميتة شن حرب علنية وصريحة بين الباب العالى والوهابيين . كان الجزار ، باشا عكا ، يوم أن كان باشا على دمشق يتولى قيادة قافلة الحج بنفسه فى بعض الأحيان إلى مكة وسط مظاهر العظمة والأبهة ؛ وكان عبد الله باشا ، يفعل الشىء نفسه عندما كان باشا على عدن ، كان عبد الله باشا ، قد التقى مرات عدة ، فى سهل عرفه أثناء موسم الحج ، جماعة الحجاج الوهابيين ؛ وجرى تبادل الهدايا بينه وبين عبد العزيز . والوهابيون عندما يرفضون

مرور القوافل ، فإن ذلك الرفض يكون نابعا من دوافع دينية ، لأنهم كانوا يعرفون أن الجنود المرافقين لهم لا يمكنهم القيام بأية إجراءات عدائية فى بلد سيصبحون فيه معزولين عن مختلف التموينات والتدعيمات . لكن الحجاج الذين كانوا ضمن هذه القوافل كانوا يتصرفون على نحو غير لائق تماما ، فقد راح شيوخهم يأتون أبشع وأرذل الممارسات ، بل إن مراسم الحج نفسها جرى تلويثها بفعل سلوك هؤلاء المتحمسين ، إلى الحد الذى جعل الوهابيين الذين كانوا يصرون على الإصلاح منذ زمن طويل ، يبادرون إلى إنهاء هذه الرذائل . وقامت القافلة السورية بالحج للمرة الأخيرة فى عام ١٨٠٢م .

فى شمالى الحجاز قام الوهابيون بالهجوم على قبيلة بنى حرب القوية المحبة للحرب ، كما قاموا أيضا بمحاصرة المدينة (المنورة).

فى عام ١٨٠٣ م أكمل الوهابيون استيلاءهم على الحجاز، ومدوا سلطتهم إلى ما وراء الحدود . وكان سعود ولد عبد العزيز هو وعثمان المضايفة قد جمعا فى مطلع ذلك العام قوة كبيرة فى الطائف ، واستطاع الجيش الوهابى بعد معارك عدة خاضها ضد الشريف غالب ، الاقتراب من مكة وأقام الجيش مركز رئاسته فى قرية الحسينية التى يمتلك المكيون فيها كثيرا من المنتجعات الصيفية الجميلة ، على بعد مسافة ساعة ونصف الساعة من مكة (المكرمة) فى اتجاه الجنوب . حاصرت قوات الوهابيين الخفيفة المدينة من كل جانب ؛ وهجموا على الحى الشرقى الذى يطلق الناس عليه اسم " المعبدة "، وظلوا محتفظين به فترة من الوقت ، هو وقصر الشريف غالب فى ذلك المكان ؛ ومن هذا المكان راح الوهابيون يشنون غارات متكررة على مكة من الداخل ، وبخاصة أن مكة لم يكن لها سور للدفاع عنها ، واستبسل غالب ، ودافع عن المدينة دفاعا شجاعا ، وزرع حقل ألغام بالقرب من قصره ، وعلى الرغم من عدم نجاح ذلك الحقل نجاحا تاما فقد أجبر العدو على التراجع .

وهنا قام الوهابيون بقطع إمدادات الماء العذب عن مكة ، والذى كان يأتى من عرفات من خلال قناة تنقله إلى المدينة المقدسة ؛ وقد أدى قطع المياه إلى إجبار

السكان على الشرب من مياه الآبار المالحة . وبعد حصار دام أشهرا عدة، بدأ سكان مكة يعانون معاناة شديدة من الماء المر ونقص المؤن والتموينات . بينما كان الشريف غالب نفسه هو وجنوده لديهم بعض المخزونات التى كانت تحت إمرتهم ؛ لكن شيئا من هذه المخزونات لم يجر توزيعه على أفراد الطبقات الدنيا ، الذين اضطروا فى ذلك الوقت إلى المغامرة بالخروج أثناء الليل لجمع العشب من الجبال المجاورة وجلبه لخيول الشريف غالب ، مقابل حفنة من القمح .

وبعد أن التهم الناسُ قطط مكة وكلابها ، وبعد أن قلّت أو كادت تنفذ تموينات الشريف غالب غادر الرجل المدينة ، وبصحبته عائلته وأمتعته ، بعد أن أضرم النار فى أثاث قصره الذى تعذر عليه حمله . وانسحب الرجل إلى جدة ، وترك مكة (المكرمة) . فى صباح اليوم التالى لانسحاب الشريف غالب خرج كبار سكان المدينة ليعلنوا استسلامهم بمحض إرادتهم ؛ ودخل سعود مكة فى اليوم نفسه . ووقعت هذه الأحداث فى شهرى إبريل ومايو من عام ١٨٠٣ م . وأهل مكة لا يزالون يذكرون ذلك النظام الممتاز الذى اتبعه أولئك الوهابيون عندما دخلوا مكة ، فلم يرتكبوا أية تجاوزات . وفى اليوم التالى جرى فتح الدكاكين كلها بأمر من سعود وجرى شراء مستلزمات قوات سعود نقدا ، وهنا أعلن أنه كان بوسعه الاستيلاء على المدينة قبل ذلك عن طريق اقتحامها ، لكنه حاول تجنب الفوضى والتجاوزات ؛ وأبلغ العلماء الذين قام بالاجتماع بهم أنه أنه رأى محمد ﷺ فى الحلم ، وأخبره بأنه لن يعيش أكثر من ثلاثة أيام إذا ما أخذ من مكة شكا أو ملوجة قمح واحدة عنوة .

تحول أهل مكة إلى المذهب الوهابى ؛ وهو مايعنى أن ينتظم الناس فى الصلاة أكثر من ذى قبل ، وأن يتخلوا عن ملابسهم الحريرية الفاخرة أو يخفوها ، وأن يمتنعوا على التدخين فى العلن . وجرى جمع أكواما من الشيش الفارسية ، من كل منازل مكة ، ليجرى حرقها كلها أمام مركز رئاسة سعود ، ومُنِع بيع التبغ . وقام سعود بتنصيب عبد المعين شقيق الشريف غالب ، رئيسا لحكومة مكة ؛ كما جرى تعيين ابن نعمة أحد علماء الدرعية ، قاضيا للمدينة . لقد بلغ ذلك القاضى البدوى من

الاستقامة حداً أصبح معه مضربا للأمثال ، والمكيون يقولون وهم يحتقرون قاضيهم القسطنطيني " ها هو ابن نعمة !" وعند هذا الحد ألغيت مسألة الدعاء للسلطان أثناء الصلاة في المسجد الحرام .

حول سعود أسلحته من مكة إلى جدة ، التي لجأ إليها الشريف غالب . ، حيث جرى حصارها مدة اثني عشر يوما ؛ لكن سكانها حاربوا وأبلوا بلاء حسنا ؛ وعندما يئس سعود، لعجزه عن تجاوز أسوار المدينة ، فضل الانسحاب والتراجع . كثير من الناس يؤكدون أن غالب كان قد جهز سفينة كبيرة في الميناء ، للهرب عن طريق البحر ، وأنه أقنع سعود بالانسحاب من مكة نظير رشوة مقدارها خمسين ألف دولار إسباني . وهنا تراجع الوهابيون إلى الصحراء الشمالية . وخرج الشريف غالب من جدة واستأنف حكم مكة من جديد (في شهر يوليو من العام ١٨٠٣ الميلادي) ، حيث استسلمت له القلعتان الصغيرتان بحاميتيها الوهابيتين الصغيرتين ، كما استسلم له أيضا أخوه عبد المعين ، ذلك الرجل صاحب الشخصية المسالمة ؛ لكن غالب عندما أدرك بعد ذلك بفترة قصيرة أنه سيعجز عن الدفاع فترة طويلة من الزمن ، راح يحاول الوصول إلى حلول وسط مع سعود ، وبالتالي استسلم له ، وعلى الرغم من حدوث تلك الحرب قبل أحد عشر عاما من ترحالي في الحجاز ، فإن تفاصيل هذه الحرب رواها لي أشخاص متباينون ، وفق روايات مختلفة .

حصل الشريف غالب في هذه المناسبة على شروط أفضل من تلك الشروط التي تقوم في مثل هذه الظروف . هذا يعني أن الشريف غالب تركت له ملكية مدنه والدخول التي تأتي منها . كما سمح لقبائل بدوية متعددة بالبقاء تحت نفوذه وسلطته ؛ وتقديرا لمكانة الشريف غالب العالية ، وتقديرا أيضا للاحترام الواجب لسكان المدينة المقدسة ، لم يطلب من الشريف غالب أو المكيين دفع ضريبة للوهابي الكبير (سعود) ؛ يضاف إلى ذلك أن الشريف غالب منع تحصيل رسوم جمركية من كل الوهابيين .

جاء الاستيلاء على مكة بمثابة بداية انتصارات للوهابيين . واضطرت قبيلة حرب إلى الاستسلام ، لكن ذلك لم يحدث إلا بعد صراع عنيف وشديد ، أرهق الوهابيين على نحو جعلهم يعاملون أفراد قبيلة حرب معاملة أكثر صرامة من بدو البلاد الآخرين . واستطاع فرع من حرب ، وهم بنو صبح، البقاء فى جبالهم المنحدرة ، ولم يحدث مطلقا أن أجبروا على الاستسلام . واستسلمت ينبع بعد أن انضم بنو حرب هم والجهاينة (الجهينى قبيلة أخرى كبيرة من تلك المنطقة) إلى الطرف الوهابى ؛ وهنا حذت المدينة (المنورة) حذو ينبع (وكان ذلك فى مطلع ربيع عام ١٨٠٤ م) . كان حسان الكلاجى ، تلك الشخصية الرئيسية فى المدينة ، قد اغتصب لنفسه سلطة إقطاعية استبدادية ، وارتكب أسوأ أنواع المظالم طوال فترة الكرب والضُّر العام ، عندما قام الوهابيون بسحب التموينات كلها من المدينة ومنعها عنها . وسرعان ما راح حسان الكلاجى هذا يعض بالنواجز على الكنز المتصل بقبر محمد ﷺ وأخذ يوزع بعضا منه على أتباعه ؛ ثم عرض الاستسلام بعد ذلك ، كان سكان المدينة (المنورة) الأكثر ميلا من المكيين إلى المصالح التركية ، والذين يعتمدون فى معيشتهم على الأرباح التى يجنونها من زوار مسجد (الرسول ﷺ) و لم يعاملهم الوهابيون معاملة هينة لينة مثلما فعلوا مع أهل مكة . فقد طلبوا منهم دفع الجزية ، لكنهم لم يسلبوا أو يخربوا ملكيات أهل المدينة الخاصة . وهنا أجبر أغا الحرم ، ذلك المسئول التركى الكبير (والمعين من قبل السلطان) ، على مغادرة المدينة (المنورة) وبصحبته كثير من الحجاج الأتراك ؛ وعُيِّن المضيَّان - الذى سبق أن عينه سعود شيخا على قبيلة حرب - حاكما للمدينة (المنورة) .

لقد فرض الوهابيون فروضًا صارمة على سكان المدينة من بينها ، الانتظام فى أداء الصلاة وكانت تجرى المناداة على أسماء الذكور فى الحرم بعد صلاة الفجر ، وصلاة الظهر ، والمغرب والعشاء ؛ وكان المتغيبون عن الصلاة تجرى معاقبتهم . حدث أن اتُّهمت امرأة محترمة بتدخين الشيشة الفارسية فوضعها الوهابيون على ظهر حمار وعلقوا فى رقبتها الشيشة ، ولفوا حولها اللىَّ الطويل المرن ، أو إن شئت فقل :

الثعبان : وجرى زف تلك المرأة خلال المدينة على هذا النحو . كان حسَّان(*) لا يزال يحتفظ بشيء من النفوذ ، أثناء الحكم الوهابى ، ولذلك راح يضايق السكان .

قام سعود بعد ذلك مباشرة بزيارة للمدينة (المنورة) ، وأمر بتجريد قبر محمد ﷺ من الأشياء الثمينة ، التى كانت على القبر إلى ذلك اليوم (كانت ألأوانى الذهبية قد سبق رفعها قبل ذلك) . وحاول سعود أيضا تحطيم القبة المقامة فوق القبر ، ولم يسمح للحجاج الأتراك بدخول المدينة من أى جانب من جوانبها ؛ وكان الوهابيون يسيئون معاملة الحجاج الأتراك الذين كانوا يحاولون المرور بينبع إلى المدينة المنورة ؛ وقص الوهابيون لحى الحجاج الأتراك . وأعلنوا أن النبى ﷺ لم تكن له لحية طويلة غير مشذبة مثل لحى أتراك الشمال ؛ يضاف إلى ذلك أن الوهابيين كانت لحاهم قصيرة أيضا . كان ذلك يحدث من قبيل الطبقات الوهابية المتدينة ، لا لشيء سوى احتقار الأتراك وازدرائهم ، وليس استجابة أو تنفيذا لحكم شرعى .

وعلى الرغم من ذلك ، واصل الوهابيون زيارتهم للمدينة (المنورة) تكريما لمحمد ﷺ ؛ وقد كانوا فعلا يزورون مسجد النبى ﷺ ، لكن زيارتهم كانت مختلفة عن زيارة سائر المسلمين الآخرين ، ومعروف أن قبر النبى ﷺ يقع داخل هذا المسجد . لم يصب القبر بأية أضرار ؛ لكن سعود كان ينظر إلى أى صلاة من أى نوع فى هذا المسجد باعتبارها نوعا من عبادة الأوثان ، كما كانت نظرته إلى الدعاء والاستجارات على أن ذلك يعد نوعا من عبادة الأوثان ، ومن هنا جاء تحريم سعود لتلك الزيارات والصلوات والدعوات والاستجارات التى من هذا القبيل . لكن ما قيل بأن زيارة المدينة المنورة قد منعت تماما ، هو قول غير صحيح ، فقد استمر توافد الأتراك على المدينة

(*) حسان الكلاجى من زعماء المدينة المنورة خلال محاولات ضمها إلى الوهابيين – المراجع –

يزاد على ذلك ، أنه قبل الاستيلاء على المدينة (المنورة) كانت قوافل الحج الكبيرة قد توقفت . وعلى سبيل المثال ، نجد أن القافلة السورية ، بقيادة يوسف أغا ، أحد مسئولى عبد الله باشا ، لم تستطع (فى العام ١٨٠٣) الوصول إلى المدينة (المنورة) لكنها تراجعت، بعد أن كانت على بعد مسافة تقدر بمسير ساعات قلائل . ولم يضايق تلك القبيلة أحد أثناء تراجعها . يزاد على ذلك أن الحج المصرى لم يجرؤ على سلوك الطريق البرى فى ذلك العام نظرا لتحول قبيلتى حرب والجهين إلى المذهب الوهابى ؛ لكن المحمل ، ومعه قلة قليلة من الحجاج ، كان يسافر بطريق البحر إلى جدة ، ومعه حوالى أربعة أو خمسة آلاف جندى تحت قيادة شريف باشا ، الذى عينه الباب العالى حاكما (محافظا) لجدة ، والحج الفارسى أيضا ، تعطل اعتبارا من العام ١٨٠٢ الميلادى ؛ وقد انطبق الشىء نفسه على قافلة الحجاج اليمنية ، إلى حد أنه بعد العام ١٨٠٣ لم تصل قافلة من قوافل الحج المنتظمة إلى مكة ، فى الوقت الذى استطاعت خلاله قلة قليلة من الحجاج الوصول إلى المدينة المقدسة . وجرى احتجاز المحمل فى جدة ، ومات شريف باشا فى الحجاز فى العام ١٨٠٤ . وهناك شكوك مفادها أن شريف باشا مات مسموما بأوامر من الشريف غالب .

لقد شهد عبد العزيز الاستيلاء على مكة ، لكنه لم يشهد الاستيلاء على المدينة (المنورة) ؛ فقد اغتيل عبد العزيز فى أواخر العام ١٨٠٣ الميلادى بأيدى واحد من الفرس ، وقد قام الوهابيون بإعدام أقاربه . وقد خلف عبد العزيز ولده الأكبر سعود ، الذى كان يتفوق على والده من حيث شمائل وصفات القائد الدينى للمحاربين البدو . كان سعود قد قاد الحروب طوال سنوات عدة كما يمكن أن نعزو إليه غزو الحجاز .

فى الوقت الذى أجبرت فيه المدينة (المنورة) على السماح لوهابى الشمال بالدخول من أبوابها ، كان الوهابيون فى الجنوب مشغولين بمد نفوذهم فى ذلك الاتجاه . وعلى سبيل المثال ، كان أبو نقطة ، شيخ عسير، فى حرب ضد الشريف حمود منذ فترة من الزمن ، وكان الشريف حمود فى ذلك الوقت حاكما على ساحل اليمن بدءا من مكان قريب من القنفدة ، وفى اتجاه بيت الفقيه فى الجنوب ، وكان

الشريف حمود قد اقتطع لنفسه هذه المنطقة من أقرب أقربائه وهو إمام صنعاء . كان حمود يعتمد على أسوار المدينة ، وعلى حوالى خمسمائة أو ستمائة خيال كانوا فى خدمته ، أو بالأحرى ضمن جنوده ، وكان الشريف حمود يرفض اتباع المذهب الوهابى . وفى أواخر العام ١٨٠٤ ، نزل أبو نقطه من الجبال ومعه عدد كبير من أعرابه ، وراح ينشر على الساحل أعدادا كبيرة من الوهابيين، الأمر الذى جعل حمود يفر هاربا . وقام الوهابيون بتخريب وسلب ونهب أغنى مدينتين على ساحل اليمن، وهما لوحية، والحديدة ؛ لكن أبا نقطة لم يخاطر بالبقاء بجيشه فى هاتين المدينتين فترة طويلة ؛ فقد انسحب مرة ثانية إلى الجبال ، التى راح منها يراقب كل سواحل اليمن ، وهنا أعلن حمود من جديد ولاءه للمذهب الجديد .

على الرغم من اكتمال غزو الحجاز ، فإن قوة الشريف ظلت كبيرة جداً ؛ كان هناك اسم الشريف ومنصبه الموقر ؛ كما كانت هناك أيضا مواهبه وقدراته على التآمر ؛ وكان هناك أيضا نفوذه الشخصى على كثير من القبائل البدوية ، التى ظلت تقاوم نفوذ سعود وسلطته ، وكانت هناك أيضا الهدايا القيمة التى كانت تقدم لسعود كلما زار مكة ، كل ذلك كان يجعل الوهابى الأكبر (سعود) يتستر على الكثير مما كان يفعله الشريف غالب .عندما كان سعود يصل إلى مكة لأداء فريضة الحج (التى كان يؤديها بصورة منتظمة مع عدد كبير من أعرابه) ، كان يجد فى انتظاره عند الزيم قافلة كاملة من الإبل المحملة بهدايا الشريف مقدمة للشيخ الوهابى الكبير (سعود) ؛ ومعروف أن الزيم تبعد مسير يومين عن مدينة مكة ، كانت تلك الهدايا تشمل كل أنواع التموينات والمؤن الممتازة والمنتقاة ، والملابس ، والسلع الأخرى ، علاوة على حمولة جمال عدة من الحرير الهندى الموسلينى ، تستخدم فى عمل ملابس الإحرام ، أو العباءات ، التى يستعملها الحجاج عند دخول الأراضى المقدسة . يضاف إلى ذلك أن كل ضباط سعود كانوا يتلقون هدايا مماثلة . وكان النساء والأطفال يحصلن على أطقم من الملابس الجديدة وكميات كبيرة من المسكَّرات والحلوى . كان هذا مشهد من مشاهد كرم الشريف غالب فى المناسبات التى من هذا

القبيل ، إلى حد أن سعود قال ذات يوم : إن ذلك كان يخجله ، ويجعله عاجزا عن معاملة الشريف غالب بالطريقة التى كان ينبغى أن يعامله بها .

فى مكة كانت قوة الشريف غالب متعادلة مع قوة سعود ، لكن سلطة الشريف غالب فى جدة بقيت بكامل قوتها . وكان يحتفظ بحامية قوية فى مدينة جدة ، التى لم يدخلها الوهابيون مطلقا على الرغم من اعتناق السكان المذهب الوهابى ، من خلال أنصار ابن سعود الذين كانوا يزورون المدينة بين وقت وآخر . وخلال العام ١٨٠٥ الميلادى ، قام المضايفة - الذى كان لا يزال عدوا للشريف غالب - بالاستيلاء على جدة بواسطة أنصاره ، وبدون أى تفويض رسمى من الوهابى الكبير . استولى المضايفة على آبار مياه المدينة ؛ لكن سكان مكة - هم والأجانب الذين تصادف وجودهم هناك - حملوا السلاح وأحبطوا خطة المضايفة .

وعلى الرغم من توقيف قوافل الحج فى ذلك الوقت ، فإن أعدادا كبيرة من الحجاج كانت تنهال على مكة من سائر أنحاء الإمبراطورية العثمانية . كان الحجاج يأتون عن طريق البحر إلى جدة ولم يصدر سعود أية أوامر تمنعهم من مواصلة السفر إلى مكة . هؤلاء الحجاج كانوا مضطرين إلى الالتزام بكل التعليمات الوهابية ؛ وهؤلاء الذين كانوا يلتزمون بذلك من تلقاء أنفسهم ، وبشىء من اللياقة لم يلقوا ذلك النوع من المعاملة السيئة . تعرفت فى العام ١٨١٠ الميلادى على مواطن من أهل حلب عندما كنت فيها ، وقد روى لى أنه كان يؤدى فريضة الحج طوال السنوات الست الماضية عن طريق القاهرة والقصير بلا أية مضايقات ، يضاف إلى ذلك أن حجاج اليمن ، والهند ، وبلاد الزنج كانوا يصلون إلى جدة عن طريق البحر مثلما كان يحدث فى السابق ؛ وكانوا يصلون إلى جدة قبيل بداية شهر الحج ؛ لكنهم وجدوا من الأفضل لهم ترك أسلحتهم فى جدة ، نظرا لأن حمل البشر لسلاحهم فى مكة يعرض الأجانب منهم للشكوك ، وإلى إساءة معاملتهم فى معظم الأحيان ، وبذلك يكون الحج لم يلغ لا بالنسبة للعرب أو الأتراك ؛ ولو كانت القافلتان السورية والمصرية وثقتا بالوهابيين

وسلامة تصرفاتهم لعبرتا الصحراء فى أمان ، شريطة أن تكون القافلتان مجردتين من السلاح .

بدأ الهدوء يخيم على الحجاز فى ذلك الحين . وقد انفتح التواصل مع المنطقة الداخلية كلها ، وبدأ وصول الأجانب يقل تدريجيا ، وتوفرت المؤن والتموينات ورخصت أسعارها ؛ لكن سكان المدينتين المقدستين فقدوا مصدر عيشهم الرئيسى ، الذى كان يتمثل فى اتصالهم بالتجار الأجانب الذين يجيئون لأداء فريضة الحج .

استمر الحجاز على هذا الحال طوال الأعوام ١٨٠٦ و ١٨٠٧ و ١٨٠٨ بينما كانت سلطة الشريف غالب تتناقص يوما بعد يوم ، وأصبح الناس فى القسم الأكبر من الجزيرة العربية يعترفون بسلطة سعود ويُقِرُّونها . خلال السنوات سالفة الذكر ، قام الرئيس الوهابى (سعود) بحملات عدة على كل من البصرة وبلاد الرافدين . وفشلت إحدى حملاته التى شنها على البصرة فى ذلك الوقت . وبينما كانت قوات سعود مشغولة بسلب ونهب القرى المحيطة بمدينة البصرة على شكل جماعات صغيرة ، جرى الهجوم عليها وكسر شوكتها بقوة كبيرة مكونة من عرب قبيلة كعب وعرب قبيلة المنتفق ، الذين قتلوا من الوهابيين ما يزيد على ألف وخمسمائة رجل . وهنا كان عبد زنجى من عبيد سعود ، يدعى حرك يقوم بقيادة قوة كبيرة ، راحت تشن هجمات متباينة على الصحراء السورية ، وراحت تنشر الخوف فى المنطقة المحيطة بمدينة حلب . وخاضت المفارز الوهابية فى مياه نهر الفرات ، كى تهاجم مخيمات قبائل بلاد الرافدين الغنية ، وتسلب وتنهب منها ممتلكاتها ، وقد وصل ذلك إلى المنطقة المجاورة لبغداد . وفى الجنوب استمر أبو نقطة فى مداهمة اليمن عن طريق الحملات السريعة ، وعن طريق السلب والنهب بصورة متكررة . ومع ذلك لم يحدث أن كانت صنعاء هدفا للهجوم . ولما كان سعود يعرف حقيقة الحقد والعداء القائم بين الشريف حمود ، حاكم (محافظ) الساحل ، وأبى نقطة شيخ قبائل الجبال ، فقد راح يعد كلا منهما لغزو المدينة الغنية ، التى لا يمكن أن تقاوم أقل

الهجمات ، نظرا لضعف وسائلها الدفاعية ؛ لكن سعود لم يحدث قط أن أعطى أيا منهما أمرا بالهجوم على صنعاء ؛ وكان من المفترض أن يحتفظ لنفسه هو بحق الهجوم على تلك المدينة .

بقي الباب العالى طوال تلك السنوات خاملاً تماما ، وكان سعود قد وصل إلى حد الاشتباك العلنى والصريح مع الحكومة التركية ، منذ أن منع سعود الدعاء بالخير للسلطان فى المساجد ، مثلما كان يحدث فى صلاة الجمعة . وقد حدث ذلك ، بفعل تدبير الشريف غالب الذى كان يود إحداث صدع وفجوة بين سعود والباب العالى . وهنا جرى وضع يوسف باشا، ذلك المحارب الشهير ، على رأس هذه الحكومة ؛ وتقرر أن يقوم بنفسه بقيادة قوافل الحج بالقوة عبر الصحراء . لكن الرجل خصص المبالغ المرصودة للقافلة (التى كان يجرى تحديدها بناء على الدخل الدمشقى) لاستعماله الخاص . يضاف إلى ذلك أن البدو السوريين ، الذين جرت العادة أن يرافقوا قافلة الحج ، لم يكونوا راغبين تماما فى التورط فى هذا المشروع المحفوف بالمخاطر .

فى العام ١٨٠٩ ، قام يوسف باشا ببعض التجهيزات والاستعدادات البسيطة وغير الواضحة استعدادا للهجوم على منطقة الجوف، المكونة من قرى عدة على الطريق المؤدى من دمشق إلى نجد ، التى تبعد مسير اثنى عشر يوما عن دمشق . لكن تلك الاستعدادات جاءت بمثابة دليل على كذب حماس الرجل ، إضافة إلى أن ذلك الهجوم لم يحدث مطلقا . وقد منى الوهابيون فى ذلك العام بخسارة كبيرة حينما دمر ميناؤهم المحصن على الخليج الفارسى ، الذى يطلق عليه اسم رأس الخيمة فقد تحول إلى رماد على أيدى الحملة الإنجليزية التى جردت عليه من بومباى ؛ وسبب ذلك هو قيام القراصنة من سكان رأس الخيمة ، وبخاصة قبيلة القواسم بعمليات السطو والسلب والنهب على التجارة البريطانية فى البحر . وكان أحد أبناء عم سعود قد قتل فى تلك الحملة .

فى العام نفسه نشبت حرب جديدة بين أبى نقطة والشريف حمود : فقد نزل أبو نقطة من الجبال وخيم أمام أبى عريش. وتسلل حمود أثناء الليل من تلك المدينة

ومعه حوالى عشرين خيالا ، وكانوا يرتدون ملابس البدو الوهابيين ، وسلكوا طريقا دائريا ، ليصلوا عند الفجر إلى مؤخرة أعدائهم ؛ ودخلوا المخيم دون أن يشك أحد فيهم ، إذ كان الوهابيون يرون أنهم من أهل الجبل الأصدقاء والموالين . لكن الشريف حمود هو ورفاقه وصلوا إلى خيمة أبى نقطة وصاحوا صيحة الحرب ، وقتل حمود بنفسه ذلك الشيخ ، عندما كان ينهض واقفا فوق حصيرته ، وقد تمكن من الهرب وسط الفوضى والاضطراب .

عين سعود الشيخ تامى ، شيخ قبيلة الرفيضة ، (وهى من قبائل عسير) خلفا لأبى نقطة . وهنا نجد الشريف حمود يخضع ويستسلم من جديد ؛ لكن كانت تدور دوما من حوله الشكوك ، إضافة إلى أنه لم يكن مداوما على دفع الفدية أو الإتاوة أو أن شئت فقل الجزية(*) .

فى العام ١٨١٠ الميلادى قذف سعود الرعب فى قلوب السوريين ، عندما هاجم المنطقة القريبة من دمشق بقوة قوامها ستة آلاف رجل . وكان الهجوم سريعا ومباغتًا ؛ وعجز جيش يوسف باشا عن وقف تقدم سعود وقواته . وفى غضون ثلاثة أيام سلب سعود ونهب ودمر خمس وثلاثين قرية فى منطقة الحوران ، التى لا تبعد سوى مسير يومين عن دمشق ، كما أحرق حقول القمح التى مر عليها ؛ لكنه لم يكن قاسيا على السكان مثلما حدث فى مرات سابقة ؛ واستولى الرجل على حيوانات كثير من الفلاحين ، وجرى أسر امرأة مسيحية ، أخذها الوهابيون معهم عبدة ، لكن جرى إطلاق سراحها بأوامر من سعود بعد ذلك ببضعة أيام . كان بوسع سعود الاستيلاء بسهولة كاملة على المدينة ، لو كان قد عرف الفزع والرعب الذى سيطر على قلوب أهلها مع اقترابه من المدينة ، الأمر الذى جعل هؤلاء السكان ينقلون ممتلكاتهم ومقتنياتهم الثمينة إلى جبال لبنان ؛ لكن المؤكد أن خطة سعود كانت ترمى إلى تكرار

(*) هناك فرق بين الفدية والإتاوة والجزية – المراجع .

الغزو مرات ومرات؛ على أمل أقناع دمشق بالاستسلام عن طيب خاطر. وعاد سعود حاملا معه غنائم كثيرة.

استطاعت قافلة كبيرة من المغاربة ، العودة إلى القاهرة بعد أداء فريضة الحج فى ذلك العام . حيث سمح لها هذا العام بزيارة مكة ، نظرا لأن سعود كان يصرح دوما بأن المغاربة ملتزمون ، وأنهم أناس متدينون وقد التقى سعود قائد تلك القافلة ، وهو ولد حاكم مرَّاكش وتبادل الرجلان الهدايا .

وبينما كان باشا بغداد وباشا دمشق يقومان فى أوقات متباينة باستعراض قوتهما فى مواجهة الوهابيين ، بقيت مصر فى دور المتفرج السلبى على مصير الحجاز ؛ وبقيت الحملة الصغير المكونة من خمسمائة رجل ، التى قام بها شريف باشا من جدة ، بمثابة الجهد الوحيد الضعيف الذى بذل من جانب مصر لاستعادة النفوذ التركى على المدينة المقدسة . فى الوقت الذى كانت فيه مصر تمر بحالة من الاضطرابات – التى تمثلت فى تقسيم السلطة بين البكوات العديدين ، الذين لم يوالوا الباشا المعين من قبل الباب العالى سوى ولاء اسمى فقط – ورغبة هؤلاء البكوات فى التحكم فى الأموال المخصصة لقوافل الحج ، وللمدينتين المقدسيتين – كل هذه الأمور جعلت الجميع ييأس من إعادة إحياء الحج طالما بقيت مصر على ذلك الحال . كانت الأطراف كلها تعلم أن الحجاز لا يمكن غزوه إلا من مصر فقط . وكانت الصحراء الشاسعة الممتدة بين تلك البلاد ودمشق ، تجعل من المستحيل نقل إمدادات وتموينات وذخيرة كافية للحملة النظامية ضد عدو سيكون همه ومهمته الأولى قطع خطوط المواصلات والاتصال كلها ، قد تستطيع مجموعة قوية من القوات ، التى يرافقها عدد كبير من الإبل المُحَمَّلة ، الوصول ، بعد كثير من الصعاب والمشاق ، إلى المدينة (المنورة) وإلى مكة (المكرمة) أيضا : ويحتمل أيضا لمثل هذه القوة أن تستولى على هاتين المدينتين ، لكن القوات والإبل التى تصاحب هذه المجموعة لن تكون كافية لإخضاع البلاد كلها ، والدفاع ضد عدو نشط ، معتمدة على نفسها دون الاعتماد على الإمدادات والتموينات الأجنبية .

هذا الاعتبار الأخير هو وحده الذى أثبت أن تحرير الحجاز من المتغلبين عليه غير ممكن . والحجاز يكاد يعتمد كلية على مصر ، فيما يتعلق بضرورات الحياة كلها ، التى يتم نقلها إلى الحجاز عن طريق البحر إلى ينبع وجدة ، وهما بوابتا المدينتين المقدستين ، دون أن تتعرض تلك المؤن - أثناء مرورها - للإصابات والخسائر التى قد تحدق برحلة مقدارها ثلاثين أو أربعين يوما عبر صحراء جرداء ، من سوريا وانتهاء بمكة (المكرمة) .

لم يرفض الوهابيون السماح للحجاج من سائر الأنحاء بدخول المدينتين المقدستين : وسبق للوهابيين أن أعلنوا مرارا أنهم يسمحون بالمرور الآمن إذا ما كان الحجاج يتصرفون تصرفات لائقة تتسم بالأدب والكياسة ، وألا يتعالوا بأى شكل من أشكال التعالى فى هذه البلاد ، التى هى منطقة عربية وليست منطقة تركية ، بحكم طبيعتها ، وطابع سكانها ، وموقعها الجغرافى . بعد استسلام كل من مكة والمدينة للوهابيين ، وبعد تحول الشريف نفسه إلى ذلك المذهب الجديد ، وقوفه فى وجه الباب العالى ، وبعد أن حذا الحجاز كله حذوه ، كان أهم الإجراءات التى ينبغى اتخاذها يتمثل فى قطع الإمدادات والتموينات كلها ، عن طريق غلق مينائى القصير والسويس فى وجه الملاحة الحجازية كلها . وهنا يجب ألا نندهش لعدم الإقبال على خطوة من هذا القبيل أثناء حكم المماليك لمصر ، وبخاصة أنه لم يكن بالإمكان فى تلك الفترة القيام بأى إجراء عام فى البلاد ، فى ظل ازدياد نفوذ هؤلاء البكوات ، والأرباح الكثيرة التى كانوا يجنونها من وراء تجارة الحجاز. لكننا قد نتساءل تساؤلا منطقيا عن أسباب إهمال وتجاهل محمد على لهذا الخطر عن الأماكن المقدسة، وقد كان الرجل يمتلك ميناء السويس اعتبارا من العام ١٨٠٥ ، وميناء القصير اعتبارا من العام ١٨١٠ ؛ يضاف إلى ذلك أن محمد على سبق أن وعد وعداً قاطعا ، أمام الباب العالى بأنه ، سوف ينقذ الحجاز من الوهابيين .

طوال هذه الفترة ، وإلى مطلع عام ١٨١٠م ، كان محمد على يقوم بتجهيزات حقيقية وجادة للهجوم على الوهابيين ، فقد كانت هناك سفن تصل كل يوم إلى كل من

السويس والقصير قادمة من جده وينبع ، وكانت تعود محملة بالقمح والتموينات للشريف ولبعض المغامرين ؛ ولم تتوقف حركة النقل هذه إلا قبل شهور قلائل من إبحار أول حملة من السويس إلى الجزيرة العربية ، وسط مخاوف الاستيلاء على السفن فى ذلك الميناء واستخدامها فى نقل الجنود . مسألة منع التموينات على اختلاف أنواعها مدة عام كامل عن الحجاز يمكن أن تترتب عليها نتائج خطيرة فى ذلك البلد ، الذى لا تتوقف التموينات عنه غالبا مدة تزيد على الشهرين ؛ يزاد على ذلك أن التموينات القليلة التى كان يجرى جلبها من نجد واليمن لم تكن كافية لمنع حدوث المجاعة . لو حدث ذلك لكان سعود قد توصل إلى مهادنة حاكم مصر ، الذى كان يساند الحج مساندة تامة ، كما كان يساند أيضا الإمبراطورية العثمانية كلها .

على الرغم من أن الجيش الوهابى الذى يحتل الحجاز ، كان بوسعه الاعتماد فى إعاشته على الإمدادات والتموينات التى كانت تأتيه من الداخل ، فإن قسوة الجوع فى المدينتين المقدستين كان يمكن أن تؤثر على نفوذ الوهابيين فى المدينتين تأثيرا كبيرا ، وبخاصة أنهم عبروا مرارا عن تقديرهم لهاتين المدينتين ، واحترامهم لسكانهما . فى مثل هذا الحال كان بوسع شريف مكة الاستفادة من مصالحة الوهابيين (إذ أصبح صاحب نفوذ كبير بعد استسلامه) فى إنهاء وضع كان يمكن أن يؤدى بعد الإضرار بأهله وشعبه (وهذا أمر لم يكن يهم الشريف لا من قريب أو بعيد) إلى إنقاص نصيبه من التجارة ومن الضرائب التى كانت تفرض على تجارة السلع الذاهبة إلى مصر ، أو القادمة منها .

ونظرا لأن محمد على باشا لم يحاول اتخاذ إجراء طبيعى ، فقد حاول مشايعوه التماس العذر للرجل بأن ادعوا أن مسألة تجويع سكان الأرض المقدسة سيكون خطيئة مشينة لا تغتفر ؛ لكن أولئك الذين كانوا يعرفون شخصية الباشا ، كانوا على علم أيضا بأن هذا الاعتبار لم يكن له وزن عند الرجل ، فى حين كان أولئك الذين يعرفون حقائق تجارة البحر الأحمر على بينة بالمكاسب التى كانت تنساب على الخزانة من خلال هذه القناة (عن طريق بيع محمد على للقمح والمؤن والتموينات فى

كل من السويس والقصير من ناحية، وعن طريق الرسوم الجمركية من الناحية الأخرى) وقد كانت كبيرة إلى الحد الذى جعل محمد على باشا يرفض تنفيذ أوامر صاحب الجلالة (السلطان) ، التى كان يمكن أن تؤدى إلى تخفيض هذه الأرباح أو إيقافها . وهنا توحدت شعوب الإمبراطورية التركية كلها وأجمعت على شجب الوهابيين وطالبت بتجريد حملة عليهم ، شبيهة بحملاتنا الصليبية القديمة على هؤلاء المهرطقين . ومع ذلك شوهدت سفنهم وهى محملة بالبضائع المصرية من السويس لتنقلها إلى أرض الحجاز الجرداء ، وبذلك يجرى تموين أعدائهم وإمدادهم بالمؤن والتموينات ، فى الوقت الذى كانت تأتى فيه القوافل من القاهرة إلى السويس وهى محملة بالذخيرة ، التى سيجرى استعمالها ضد هؤلاء الأعداء .

رواية مثل هذه الأحداث المضحكة والإجراءات البائسة غير المكتملة تجعل القارئ الأوروبى لا يثنى عليها ؛ لكن الإقامة طوال سنوات عدة فى الشرق تثبت لنا أن خوف الحاكم التركى من أقل الخسائر التى يمكن أن تلحق به يمكن أن تمنعه من مراعاة المصلحة العامة بعين الاعتبار. هذا يعنى أن نظر الحاكم التركى لا يمكن أن يمتد مطلقا أبعد من مصالحه الخاصة ، وأنه على استعداد للتضحية بمصالح مليكه (سيده) ورفاهية رعاياه فى سبيل الحصول على مزايا مالية تافهة . لكن جشع الحاكم التركى غالبا ما يخطئ هدفه ويتسبب فى دماره ، أو يشكل عائقا أمام العمليات التى يود القيام بها .

محمد على ، باشا القاهرة ، يرسل ولده طوسون باشا مع جيش تركى لغزو الجزيرة العربية - توماس كيث ذلك الاسكتلندى المدعو إبراهيم أغا قائد ماليك طوسون - جرأته وجسارته - أحمد أغا ، الملقب ببونابرت - استيلاء الأتراك على المدينة (المنورة) واستسلام مكة

عندما عين محمد على فى ١٨٠٥م واليًا على مصر ، التى كان له فيها نفوذ كبير طوال العامين السابقين على البقية الباقية الضعيفة من المماليك ، بفضل قوات كثيرة العدد ، كانت المهمة الرئيسية الملقاة على عاتقه من الباب العالى تتمثل فى إعادة الاستيلاء على المدينتين المقدستين . كان محمد على باشا يعلم أن عصيانه لهذه الأوامر يعنى عزله من الحكم ؛ ومن باب تحميس الباب العالى له على القيام بتلك المهمة ، وعده بأن تكون باشوية دمشق لواحد من أبنائه ، وأن يتم ذلك عقب استيلائه على كل من مكة (المكرمة) والمدينة (المنورة). كان طموح محمد على الشخصى قد حبب إلى نفسه هذا الهدف تماما؛ والسبب فى ذلك أن تخليصه للمدينتين المقدستين سوف يرفعه فوق سائر باشوات الإمبراطورية العثمانية ، ويضفى على اسمه شهرة تجعل الباب العالى لا يعترض على طموحاته المستقبلية . كان الباشا طوال سنى حكمه الأولى فى اشتباكات مستمرة مع المماليك ؛ ولم يبدأ التفاوض بشأن الحلول الوسط إلا بعد العام ١٨١٠ الميلادى ، الأمر الذى جعل المماليك يتخلون عن ادعاءاتهم التى ادعوها فى الوجه البحرى والقسم الأكبر من الوجه القبلى ، الأمر الذى جعل محمد على يستدرجهم إلى القاهرة ، فى ظل وعده لهم بالأمان ، ليجرى لهم مذبحة مروعة فى قلعة تلك المدينة .

فى أواخر عام ١٨٠٩م بدأ محمد على استعداداته الجادة والحقيقية لحملته التى أزمع القيام بها ، كان أهم مطلب للرجل يتمثل فى وجود عدد كاف من السفن تحت تصرفه لنقل الجنود والمؤن والتموينات . لو قام محمد على بالاستيلاء على تلك القوارب

التي تأتي من الحجاز ، لخاف أصحاب هذه القوارب وهربوا بها ، وأثر ذلك تأثيرا شديدا على العمل الذى ينوى الرجل القيام به . وهنا قرر بناء أسطول لهذه المهمة ، وخلال عام ١٨١٠ ، وفى أوائل ١٨١١ تم فى السويس بناء ثمان وعشرين سفينة كبيرة وصغيرة (تتراوح حمولة الواحدة منها بين مائة وخمسين طنا) ، هذا العمل وفر فرص عمل لحوالى ألف عامل من بينهم يونانيون وأوربيون ، كان الخشب يجرى تجهيزه فى بولاق بالقرب من القاهرة ثم ينقل بواسطة الإبل عبر الصحراء ، وتم فى الوقت نفسه بناء مستودعات كبيرة للقمح والبسكويت والتموينات الأخرى فى بلدة السويس. ولما كان من الصعوبة بمكان نقل أعداد كبيرة من الجنود فى سفن من هذا القبيل عبر بحر هائج ، كان لابد من نقل هؤلاء الخيالة بطريق البر . من هنا قام محمد على باشا بإصلاح وترميم القلاع التى على الطريق بين القاهرة وينبع (قلعة عجرود، ونخل ، والعقبة ، والمويلح والوجة) ، كما جرى أيضا تقوية هذه القلاع ببناء أسوار جديدة ، ووضع حاميات من جنود المشاة المغاربة فى تلك القلاع ؛ وهؤلاء يعرفون كيف يتعاملون مع البدو من ناحية ، ومع أولئك الذين يعيشون بالقرب من تلك القلاع من ناحية أخرى ، والذين أمكن استخدامهم هم وإبلهم فى نقل المؤن والتموينات من القاهرة ، لتوضع فى مخازن تلك القلاع .

جرى فى الوقت نفسه إنشاء مخازن للحبوب فى القصير ؛ لكن ميناء القصير لم تكن له أهمية فى البداية ، أى فى بداية الحرب ، مثل الأهمية التى أصبحت له بعد ذلك، باعتباره الميناء الوحيد الأقرب إلى الحجاز ، أما ميناء السويس فقد كان بمثابة ميناء القاهرة التجارى .

عندما سمع الشريف غالب عن تلك الاستعدادات الكبيرة التى كانت تتخذ استعدادا لغزو الحجاز ، وعندما عرف أيضا أن محمد على لديه موارد أكبر من موارد أى باشا من الباشوات الآخرين الذين حاولوا دخول تلك البلاد عنوة ، رأى أن من مصلحته الدخول فى مراسلات مع محمد على معتذرا عن اعتناقه المذهب الوهابى بسبب الظروف القاهرة التى اضطرته إلى اعتناق هذا المذهب ، وأنه على استعداد

للتخلص من ذلك النير مع مجيء أول جيش تركى محترم إلى شواطئ الحجاز . وأضاف الشريف غالب ، فى ثنايا تلك المراسلات ، معلومات كثيرة عن الوضع الحقيقى للوهابيين ، وتوزيع قواتهم وأفضل الأساليب للهجوم عليهم .

لقد عهد محمد على إلى السيد محمد المحروقى ، شيخ تجار القاهرة ، الذى زار مكة مرات عدة ، وكان مهتما اهتماما كبيرا بتجارة البحر الأحمر ، بالجانب السياسى من الحرب ، واتخاذ كل ما يلزم مع بدو البحر الأحمر . وهنا يجب ألا يخامرنا الشك فى مسألة النجاح الكبير الذى حققته تلك الحملة . كان محمد على باشا متشككا تماما فى مسألة الوثوق بما قاله الشريف غالب ، الذى ذاع بين الناس صيت مكره وخداعه ودهائه ؛ فكان من الضرورى طمأنة مخاوف الشريف غالب من الغازى الأجنبى . وهنا أعطى محمد على للشريف وعوداً باهرة ، باحترام سلطته ونفوذه فى الحجاز ؛ وأن جمارك جدة (المصدر الرئيسى لدخله) ستبقى فى يده وتحت تصرفه ؛ وجرى تشجيع الجنود الذين تقرر اشراكهم فى الحملة بأن الشريف غالب هو وقوته الكبيرة سوف ينضمون إليهم فور نزولهم على أرض الحجاز ، أو بالأحرى فى ميناء جدة .

لم تكن أحوال مصر فى ذلك الوقت هادئة على نحو يسمح لمحمد على باشا بالتغيب عنها ، ففى جنوب مصر كان المماليك لا يزالون يخوضون حربا خاسرة مع قوات الباشا . وجرى وضع طوسون بك ، الابن الثانى لمحمد على باشا ، وهو شاب فى الثامنة عشر من عمره ، على رأس الحملة الأولى ضد الوهابيين ، التى أصبحت بعد تأخير طويل جاهزة للرحيل فى نهاية شهر أغسطس من العام ١٨١١ الميلادى وكان طوسون بك ، وهو صبى صغير ، قد كشف عن دلائل شجاعته غير العادية فى الحرب ضد المماليك ؛ والشجاعة كانت فى ذلك الوقت عملة نادرة ، أو بالأحرى صفة نادرة لدى العثمانيين المنحلين ، كما أنه كان شخصية نادرة فى عائلة الباشا ، عدّه أصدقاؤه كفؤاً للقيام بأشق الأعمال وأصعبها . أحمد أغا ، وزير الخزانة ، أو خازندار محمد على باشا ، جرى إرساله بصحبة طوسون بك ، بصفته قائدا على نفس القدر من الشجاعة والدهاء . كانت انجازات أحمد أغا الدموية فى الحروب التى جرت

ضد المماليك وضد المصريين قد رفعت مكانة هذا الرجل عند محمد على باشا ، فقد كان استهتار أحمد أغا بالحياة الإنسانية ، واحتقاره للمبادئ الأخلاقية ، وتعاليه وتفاخره ، كل ذلك أكسبه لقب بونابرت ، الذى سرّه وأسعده تماما ، بل إنه اشتهر فى سائر أنحاء مصر بذلك اللقب .

ونحن لا يمكن أن ننكر أن أحمد أغا كان جنديا شجاعا ؛ لكن إدمان هذا الرجل للمسكرات والشهوات بأرذل أنواعها هو الذى جرد ذهنه من الطاقة والتمييز .

انضم المحروقى سالف الذكر إلى هذين القائدين ، وكانت مهمته تتمثل فى التفاوض مع الشريف غالب ومع البدو ، وأبحر مع الحملة أيضا عالمان من علماء القاهرة هما : الشيخ المهدى والشيخ الطهطاوى ؛ على أمل إقناع الوهابيين عن طريق الجدل والنقاش بالأخطاء التى حملها مذهبهم الجديد . كانت الحملة مكونة من جزأين . كان المشاة عبارة عن جنود من الأرناءوط الذين وصل عددهم إلى حوالى ألف وخمسمائة جندى أو ألفى رجل على أكثر تقدير ، بقيادة صالح أغا وعمر أغا ، اللذين أبحرا من السويس إلى ينبع وأخذا معهما السفن الجديدة محملة بالمؤن والتموينات . وتحركت الخيالة عن طريق البر ومعها طوسون بك وأحمد بونابرت ، مشكلين قوة قوامها ثمانمائة رجل ، وخيالة أتراك ، ورجال من البدو المسلحين (بقيادة شديد شيخ قبيلة الحويطات) .

فى شهر أكتوبر من عام ١٨١١ م وصل الأسطول إلى منطقة قريبة من ينبع ، ونزلت القوات على بعد مسافة قصيرة من المدينة ، التى جرى الاستيلاء عليها ، بعد مقاومة ضعيفة استمرت يومين وانتهت باستسلام المدينة ، بينما وصلت الخيالة بعد ذلك بأسبوعين عن طريق البر ، ولم تلق أية مقاومة من بدو القبائل الصحراوية الذين أمكن استرضاؤهم بمبالغ مالية كبيرة . وجاء الاستيلاء على ينبع بمثابة الانتصار الأول على الوهابيين ، وكان فألا حسنا على النجاحات المستقبلية للحملة وقد بقيت القوات طوال أشهر خاملة بلا عمل ؛ كان المشاة فى ينبع الميناء ؛ وكان الخيالة مع البدو فى ينبع النخل ، التى تبعد عن البحر مسافة تقدر بمسير ست ساعات ، والتى

تعد المحطة الرئيسية لعرب الجهين ، واستنفد هذا الوقت كله فى المفاوضات . واكتشف طوسون بك أن الحجاز لم يكن بأى حال من الأحوال ، بالشكل الذى وصفه الشريف غالب . كان بدو القبيلتين الكبيرتين حرب والجهين ، وبغض النظر عن استيائهم من الوهابيين ، وبغض النظر أيضا عن رغبتهم فى المشاركة مرة ثانية فى العوائد والمكاسب الكثيرة المترتبة على قافلة الحج التركية ، كان بدو هاتين القلبيتين متشبعين تماما ومقتنعين تماما ، أيضا بقوة سعود وبيقظته ، باعتباره الرئيس الوهابى ؛ ولم تتجرأ هاتان القبيلتان على التحرك فى الوقت الذى لم يحقق الأتراك فيه ميزة محددة ، توحى بالنجاح النهائى إذا ما انضمت هاتان القبيلتان إلى جانبهما . مسألة الاستيلاء على ينبع فقط تعد أمرا عديم الأهمية فى حرب بأكملها ، وذلك على الرغم من أن الاستيلاء على ينبع وفر لمحمد على وقواته مكانا آمنا لرسو سفنهم، ومستودعا لمخزوناتهم .

عندما وصلت الحملة التركية إلى ينبع لم تكن فيها حامية وهابية ؛ ولكن الشريف غالب كان يحتفظ فيها بمحافظ، وحوالى مائة جندى . أبدت هذه القوة الصغيرة شيئا من المقاومة ؛ لكن السكان أقنعوا هذه القوة بالتراجع مخافة أن يجرى اقتحام المدينة بواسطة القوات القوية ، ووجد أن الاستسلام فى مثل هذا الحال ، يعد أمرا حكيما . بقى الشريف غالب فى موقع المتفرج على هذه البداية ؛ وكتب رسائل إلى طوسون بك ، معتذرا له عن عدم الانضمام إليه نظرا لصغر حجم قوته وخوفه من الوهابيين ؛ لكنه عاد وأعلن بأنه سوف يخلع القناع ، ويبدأ فى الهجوم علانية على الوهابيين ، تحقيق قوات طوسون ميزة مهمة ، يمكن أن تؤدى إلى انضمام بدو الحجاز كلهم إلى جانبهم . وفى ذات الوقت قام الشريف غالب بتقوية حامية كل من جدة ومكة ، وعندما حثه سعود على الانضمام إليه ضد الغزاة أعتذر عن ذلك معربا عن مخاوفه من وقوع هجوم بحرى مفاجئ على جدة ، الأمر الذى يمكن أن يؤدى إلى الاستيلاء على مكة .

هذا يوضح أن الشريف غالب كان قد خطط للانقلاب على الطرف الذى يكشف عن أول دليل من دلائل الانهزام ، أو الانتظار إلى أن تضعف الحرب الطرفين ثم يقوم هو بطردهما من ممتلكاته . كان البدو هم الذين استطاع طوسون بك فصلهم عن الوهابيين يمثلون أفرع قليلة من الجهين ، الذين يسكنون المناطق المجاورة لينبع ، فى حين أبقى القسم الأكبر من تلك القبيلة وهى قبيلة حرب بكاملها التى كانت تعيش فى منطقة الحدود ، على ولائه لسعود ولم يلقوا بالا لعروض طوسون بك .

لقد أصبح من الضرورى بدء الحملة ، مخافة أن يظن أهل الحجاز هم والعدو ، أن ذلك الترقب والانتظار ناتج عن الخوف ، وأن التفاوض يعد دليلا على الضعف . يضاف إلى ذلك أن الهجوم على مكة أو جدة سيضطر الشريف الذى يحتل هاتين المدينتين إلى إعلان وقوفه إلى جانب من الجانبين . وهذا القرار هو ما كان يخشاه طوسون بك أكثر من الوهابيين . لذا قرر الاتجاه صوب المدينة (المنورة) (التى تبعد مسير ستة أيام عن ينبع) وكانت المدينة تعد أفضل مدن الحجاز من حيث الأسوار ، أو إن شئت فقل : متراس هذه المنطقة فى مواجهة نجد ، والمعقل القوى للوهابيين ؛ كما أن الاستيلاء على المدينة (المنورة) يمكن أن يفتح أو يعيق المرور أمام الحج السورى . يضاف إلى ذلك أن الاستيلاء على المدينة المنورة قد يغرى بعض البدو بالانضمام إلى الجيش ؛ وكان الشريف غالب ، عندما علم أن تلك هى الخطة الموضوعة وعد بالوقوف فى وجه سعود ، إذا ما نفذت تلك الخطة .

توجه طوسون بك ، بعد أن ترك حامية فى ينبع ، مع قواته صوب المدينة المنورة فى شهر يناير من عام ١٨١٢ م . وبعد معركة صغيرة تمكن من دخول بدر تلك المدينة الصغيرة التى تبعد عن ينبع مسير يومين ، والتى كانت تحتلها قبيلة حرب ، بلدة بدر هذه تقع عند مدخل تلك الجبال التى يتحتم عبورها فى الطريق إلى المدينة (المنورة) . توقع طوسون شيئا من المقاومة من بنى حرب الذين كانوا يسيطرون ويتحكمون فى الممرات الموجودة خلال هذه الجبال ؛ ولم يكن طوسون يعرف شيئا عن وجود

القوات الوهابية . ترك طوسون حامية صغيرة فى بلدة بدر وتقدم بجيشه إلى بلدة صفرة التى هى سوق من أسواق قبيلة حرب (وتبعد مسير ثمانى ساعات عن بدر) ؛ وفى صفره وبعد معركة قصيرة استسلم جزء من القبيلة . وبعد مسير أربع ساعات دخل ، وطلب الطريق عبر ممر ضيق (يتراوح عرضه بين أربعين وستين ياردة) ، بين جبال منحدره ، وعرة ؛ وعند مدخل هذا الممر تقع بلدة الجديدة بين بيارات النخيل ؛ والجديدة هى المستوطنة الرئيسية لبنى حرب ؛ الذين أجبروا قافلة الحج السورية فيما سبق ، على أن تدفع لهم مبالغ كبيرة نظير السماح لها بالمرور الآمن .

فى هذا الشِّعب الضيق ، الذى يمتد مسافة تقدر بمسير ساعة ونصف الساعة ، جرى الهجوم على جيش طوسون من قبل القوة الموحدة لقبيلة حرب . وبعد شىء من القتال ، واعتقادا من الأتراك أنه أصبحت لهم اليد العليا ، أصابهم الغرور وراحوا يطاردون العرب فى منتصف تلك الشِّعْب وفجأة امتلأ الشِّعب بأعداد كبيرة من الوهابين ، الذين كانوا قد وصلوا إلى ذلك المكان فى اليوم السابق قادمين من نجد ؛ ولم يكن لدى الأتراك أى علم بمجئ الوهابيين . كان الوهابيون تحت قيادة كل من عبد الله وفيصل ، ولدى سعود ، وكان عددهم يقدر بحوالى عشرين ألف من المشاة والجمَّالة ، وحوالى ستمائة أو ثمانمائة خيال . لو كان الأتراك قد انسحبوا إلى قرية الجديدة وتحصنوا بها لأمكنهم صد الهجوم ، وحصلوا على استسلام مشرف نظرا لأن عدد العدو جعل من المستحيل على الأتراك البقاء فترة طويلة فى المكان نفسه .

من ناحية ثانية ، ومع أول صيحة من صيحات الإنذار تراجع جنود المشاة الأتراك ، وسرعان ما انضم إليهم الخيالة الذين صدرت لهم أوامر بتغطية انسحاب المشاة ، وفر الجميع هاربين ؛ فى حين راح أعداؤهم يضغطون عليهم من الخلف ، ويسبقونهم على طول جانب الجبل ، وراحوا يصبون عليهم وابلا من الرصاص. فى هذا الظرف الصعب لم تخن طوسون شجاعته ذائعة الصيت ، وتصرف تصرف القادة

أصحاب الهمة والشرف ، وقام فى بداية الأمر بصحبة خيالين فقط من خيالته ، بعد أن فشل فى إيقاف قواته ، بالدخول فى مؤخرة العدو واندس بين صفوفه لكى يثنى العدو عن مطاردة قواته .

وقد أكد لى أناس حضروا تلك المعركة أنه بينما كانت الدموع تنهمر من عينى طوسون، كان يتعجب من الأتراك الهاربين وهو يقول : " ألن يصمد أحدكم معى ؟ " وفى النهاية انضم إليه عشرون خيالا ؛ عندما انشغل الوهابيون – وهذا من يمن الطالع – بالاستيلاء على أمتعة الجيش ، الأمر الذى جعل الوهابيين يتباطأون فى عملية المطاردة والملاحقة ؛ وعندما وصل الأتراك إلى الأرض المفتوحة الواقعة خلف مدخل الشِّعب ، تجمع الخيالة وراحوا يحمون المشاة إلى حد ما ، لو كان الوهابيون واصلوا عملية المطاردة الحامية تلك عبر الجبال لقضوا على الأمتعة التركية كلها ، كما استولوا أيضا على أربعة قطع من مدفعية الميدان ، كما استولوا أيضا على أسلحة الجمَّالة ، وقدر كبير من الغنائم التى عثروا عليها فى أحزمة الجنود الأرناءوط الذين أثروا بفعل الغنائم التى غنموها من المماليك فى مصر . وقتل حوالى ألف ومائتى رجل فى ذلك اليوم . انسحب طوسون بك إلى بدر وأضرم النار فى المخيم المقام فيها ، لأنه لم تكن لديه الوسائل التى تمكنه من نقل هذا المخيم بكل محتوياته ؛ كما تخلى فى ذات الوقت عن درعه وعاد إلى شاطئ البحر بالقرب من بدر ، حيث كانت ترسو سفن عدة من سفنه ، فى خليج يطلق الناس عليه اسم خليج بريقه ، ومنه أبحر طوسون ومعه قليل من الحراس قاصدا ينبع . ووصلت بقية القوات فى كرب وبلاء بعد أيام قلائل ؛ لكن من حسن طالع تلك القوات أن الوهابيين تصوروا أن هناك فيلقا تركيا كبيرا متخندقا فى بلدة بدر ، الأمر الذى جعلهم يواصلون عملية المطاردة ؛ مما مكن قوات طوسون من العودة إلى ينبع .

. عندما علم الوهابيون أن أعداءهم أمنوا أنفسهم فى ينبع ، أرسلوا جماعات من الجنود تطوف بالمكان بحثا عن الأتراك ، وقد وصلت تلك الجماعات إلى أسوار مدينة

ينبع . وعقب تلقى الشريف غالب لبعض المعلومات الاستخباراتية ، التى تفيد فشل الحملة التركية ، انضم هو بشخصه إلى الوهابيين فى بدر . وتقرر فى بداية الأمر نسف بلدة ينبع ؛ لكن جرى التخلى عن هذه الخطة تخوفا من السكان العرب ، أن يقاتلوا قتالا مستميتا ، نظرا لأنهم سبق لهم الاهتمام اهتماما كبيرا بالمصالح التركية . ووجد الوهابيون أن مسألة حصار المدينة أياما عدة أمر غير ضرورى ، ولذلك انسحب الوهابيون عائدين إلى المناطق الداخلية ، وهم على استعداد للتجمع من جديد فى غضون لحظات إذا ما تجرأ الأتراك مرة ثانية على دفع جيش إلى الأراضى المكشوفة . وعندما انسحب الوهابيون خلفوا وراءهم بدو قبيلة حرب الذين راحوا يضايقون الأتراك ، ويستولون على التموينات التى كانت تصلهم من ينبع .

عندما نعود إلى حكاية تلك الأحداث الخطيرة التى وضع فيها طوسون باشا ، وبخاصة عندما تخلى عنه أهله كلهم فيما عدا خيالين فقط ، أجدنى أسجل طرفة من الطرف الخاصة بأولئك الجنود الشجعان ؛ وهى طرفة ذلك الرجل الشجاع المدعو إبراهيم أغا الذى كان رئيسا لمماليك طوسون . إبراهيم أغا هذا ، كان شابا فى العشرين من عمره ، وهو واحد من مواطنى إدنبرة ، واسمه الحقيقى توماس كيث، هذا التوماس بعد أن جرى أسره خلال الحملة الإنجليزية الأخيرة على مصر ومعه آخرون كثيرون من كتيبته (الكتيبة الثانية والسبعين من ساكنى النِّجاد) التى كان يعمل فيها فى إصلاح البنادق ، اعتنق الإسلام ودخل فيه ، واشتراه أحمد بونابرت الذى سبقت الإشارة إليه من الجندى الذى أسره . كان مملوك صقلى من مماليك سيده قد سب هذا الصبى الاسكتلندى ، وأعقب السب بالضرب ؛ وتبارز الرجلان وسقط الصقلى ميتا . وهرب إبراهيم أغا خوفا من غضب أحمد بونابرت ، وراح يتوسل طالبا الحماية من زوجة محمد على ، وصادقته تلك الزوجة ، وطلبت من ولدها طوسون بك أن يجعله واحدا من خدمه . لكن طوسون فى نوبة من نوباته المزاجية الشاذة ، التى تنتاب الأتراك فى معظم الأحيان ، أصدر أمرا بإعدام ذلك الاسكتلندى لخطأ تافه ارتكبه ويتعلق بإهماله لواجبه ؛ لكن هذا الاسكتلندى الشجاع دافع بسيفه

عند مدخل غرفته مدة نصف ساعة اشتبك خلالها مع مهاجمين عدة ، ثم ألقى بنفسه من النافذة بعد ذلك ، وهرب مرة ثانية إلى السيدة التى حمته من قبل ، والتى سارعت إلى مصالحته مع سيده . وهنا أصبح طوسون بك على علم بشجاعة ذلك الاسكتلندى ، وهنا عينه طوسون بك رئيسا لمماليكه ، وبعد تصرفه الشجاع فى بلدة الجديدة رقاه طوسون بك إلى منصب وزير المالية (خازندار) ، وهو المنصب الثقافى فى بلاط أى باشا من الباشوات . وأبلى إبراهيم أغا بلاء حسنا مرة ثانية فى المدينة (المنورة) وفى تربة (التى سنأتى على ذكرها فيما بعد) ، وعين محافظا للمدينة المنورة فى شهر أبريل من عام ١٨١٥ م ، وبعد ذلك بشهرين وعندما كان يهم ومعه مائتان وخمسون خيالا لمساعدة طوسون بك (الذى كان مخيما فى منطقة القصيم) ، هاجمته قوة من الوهابيين تفوق قوته عددا ، وتم إفناء قواته كلها . هذا الاسكتلندى الشجاع استطاع أن يقتل وحده فى تلك المعركة الأخيرة أربعة من الوهابيين ؛ وقد اعترف عبد الله بن سعود ، أن طوسون بك هو ووزير خزانته كانا أشجع رجلين فى الجيش التركى .

أدت الخسائر التى لحقت بالأتراك إلى تثبيط همم القوات . وهنا أعلن كل من صالح أغا وعمر أغا ، رئيسا المشاة أنهما لن يستطيعا القتال فى الحجاز . وهنا قرر طوسون بك إعادتهما إلى مصر : وعاد الرجلان إلى القصير . وبينما كانا فى طريقهما إلى القاهرة قاما بتزويد فرقتهما بعدد من الأفراد الراضين عن الباشا . وبعد أن وصلا إلى القاهرة زعما أن محمد على باشا وجد من الضرورى استعمال كل الحيل والألاعيب لمحاولة إقناعهما بالتهديد تارة وبالهدايا تارة أخرى ، بمغادرة مصر . كان الرجلان من قبل قد سلبا ونهبا كثيرا من مناطق الوجه القبلى ، ولذلك أبحرا من الإسكندرية ومعهما كنوز كبيرة .

كان عدد قوات طوسون بك قد انخفض انخفاضا كبيرا من حيث عدد الخيول نتيجة الإرهاق الكبير الذى أصابها جراء الرحلة البرية ، قبل وصولها إلى ينبع ، الأمر

الذى جعل الخيالة البدو يتخلون عن القسم الأكبر منها . فقد جرى قتل حوالى مائتى حصان فى الجديدة ؛ وعندما عاد الجيش إلى ينبع ، لم يكن العدد الصالح للاستعمال من هذه الخيول ، يزيد على ذلك العدد الذى جرى قتله فى بلدة الجديدة . يزاد على ذلك أن ندرة العلف أدت إلى استغناء أصحاب هذه الخيول عنها وبيعها ، وعاد الرجال إلى القاهرة على أمل أن يصبحوا جنودا راكبين من جديد . وما إن علم محمد على باشا بفشل ولده طوسون ، حتى بذل كل الجهود المكنة من أجل تعويض الخسائر والاستعداد لحملة جديدة . أرسل محمد على مبالغ نقدية كبيرة لولده لتوزيعها على شيوخ العرب البدو المجاورين له ، أملا فى عزلهم عن الوهابيين والمصالح الوهابية . وانقضى ربيع وصيف عام ١٨١٢ فى هذه المحاولات ، فى حين كانت التدعيمات بالجنود والذخيرة تصل يوميًا إلى ينبع . واستطاع المحروقى ، فى نهاية المطاف ، وبفضل تأثير الذهب ، استمالة عدد كبير من بنى حرب ، وبخاصة أفرع تلك القبيلة المسمّاه بنى سالم ، والقبيلة المسماة بنى صبحٍ اللتان كانتا تحتلان شِعْب صفرة والجديدة . يزاد على ذلك أن الشريف غالب نفسه عندما علم أن محمد على قد قرر إطالة أمد الحرب ، راح يستأنف أسلوبه السياسى القديم ، مؤكدا لطوسون بك ، أنه انضم إلى الوهابيين فى بدر بسبب الخوف ، وجدد لطوسون بك وعده بفتح بوابات جدة ومكة أمام القوات التركية فور استيلاء الأتراك على المدينة (المنورة) .

فى شهر أكتوبر من العام ١٨١٢ شعر طوسون فى نفسه بالقوة ، وأنه قادر على القيام بحملة جديدة على المدينة (المنورة) . كان البدو المقيمون على طريق المدينة قد أصبحوا أصدقاء لطوسون ؛ إضافة إلى أن أعدادا كبيرة من قبيلة الجهين كانوا قد انضموا تحت ألويته ؛ كما أن المعلومات التى وصلته عن تكاسل الوهابيين فى نجد زادت من آماله فى النجاح . ونقل طوسون مركز قيادته إلى بلدة بدر ، وتولى أحمد بونابرت قيادة القوات ؛ وتقدم من نفس الشِّعب الذى انهزم فيه الأتراك من قبل ، إلى المدينة المنورة . وعبر الأتراك الشِّعب بلا مضايقات ، وترك أحمد بونابرت حامية قوية فى بلدة الجديدة ووصل إلى أسوار المدينة بلا قتال على الإطلاق .

كانت حامية وهابية قد احتلت المدينة (المنورة) هى وقلعتها منذ العام السابق ؛ وكانت الحامية والقلعة مزودتين بالمؤن تحسبا لحصار طويل . من ناحية أخرى ، كان الرئيس الوهابى قد بقى خاملا بلا مبرر فى الحجاز ، لكن الانتصار الذى حققه الوهابيون فى بلدة الجديدة ضاعف من نفوذهم ليشمل عرب الشمال كلهم؛ وفى عام ١٨١٢ راح يجمع ويحصل إتاوة من البدو القريبين جداً من بغداد ، وحلب ، ودمشق . وبعد أن باع (سعود) فى مكة الغنائم التى حصل عليها من بلدة الجديدة ، عاد إلى الدرعية ؛ وحالة جنوده النفسية عالية جداً بفعل الانتصار الذى حققوه ، وراحوا يسخرون من جبن الأتراك الذى تجلى فى بلدة الجديدة ، إلى حد أنهم ظنوا أن بوسعهم إنزال الهزيمة بالأتراك مرة ثانية فى أى وقت من الأوقات . كان سعود يتوقع صمود المدينة (المنورة) فترة طويلة ، وأن افتقار الأتراك إلى الإمدادات والتموينات سيضطر الأتراك إلى الانسحاب فى نهاية المطاف ؛ ومع مثل هذا الحال سيتخلى بنو حرب عن حلفائهم الأجانب ، وبذلك يسهل إنزال الهزيمة بهم .

جرت بعض الاشتباكات مع الحامية الوهابية أمام المدينة (المنورة) وترتب على هذه الاشتباكات دخول أحمد بونابرت إلى ضواحى المدينة ، وراح يطارد الوهابيين إلى داخل المدينة نفسها ؛ التى خرج سكانها إلى الضواحى عند وصول الأتراك ، ليقيموا فى تلك الضواحى ويشاركوا فى الاشتباكات الأولى ضد الوهابيين . كانت المدينة من الداخل محصنة بسور قوى وعالٍ ، ومحصنة أيضا بقلعة ؛ لقد كان قصف هذا السور وتلك القلعة يحتاج من الأتراك إلى مدفعية ميدان ، ولكنهم لم يكن معهم سوى قطع من المدفعية الخفيفة . وبعد حصار دام أربعة عشر أو خمسة عشر يوما ، قام الوهابيون خلالها بطلعات عدة، ورص الأتراك حقلا من حقول الألغام ، بطريقة علنية ومكشوفة تماما جعلت الوهابيين يبطلون مفعوله ويدمرونه . وهنا بث الأتراك لغما آخر حقق نجاحا كبيرا ، وكان ذلك فى منتصف شهر نوفمبر من عام ١٨١٢ م ؛ وبينما كان الوهابيون مشغولين بأداء صلاة الظهر ، جرى نسف جزء من سور المدينة ، واندفع الأرناوط داخلين إلى المدينة ، وهرب الوهابيون نتيجة

المباغتة إلى القلعة : وجرى ذبح حوالى ألف وهابى فى شوارع المدينة ؛ ودمرت المدينة بأكملها ، ولم يُقتل سوى خمسين تركيا فقط . وكشف الاسكتلندى سالف الذكر ، المدعو توماس كيث أو إبراهيم أغا) عن شجاعته وجسارته المعتادة ، إذ كان هو أول من دخل الثغرة التى أحدثها الأتراك فى الجدار . ولاذ حوالى ألف وخمسمائة وهابى بالقلعة ، التى عجز الأتراك عن الاستيلاء عليها ، نظرا لعدم وجود مدفعية ثقيلة معهم ؛ ونظرا لأن مبنى القلعة كان مقاما على صخرة صلبة ، تعذر استعمال الألغام ضدها . لكن بعد ثلاثة أسابيع نفدت مؤن من كانوا داخل القلعة ، واستسلم الوهابيون بناء على وعد بالأمان من أحمد بونابرت : على أن يحملوا معهم أمتعتهم ؛ كما وعد أيضا بتوفير الإبل لأولئك الذين يودون العودة إلى نجد .

عندما خرجت الحامية من القلعة ، لم يجدوا سوى خمسين جملا ، بدلا من ثلاثمائة التى وعد بها أحمد بونابرت لنقل أفراد الحامية . وبذلك اضطروا إلى ترك القسم الأكبر من أمتعتهم ، وحملوا على ظهورهم الأشياء الثمينة ؛ لكن ما إن تركوا أطراف البلدة حتى لحقهم الجنود الأتراك ، وجردوهم وقتلوا أكبر عدد ممكن منهم بعد أن هربت قلة قليلة منهم ، إضافة إلى من كانوا يركبون الإبل . كان السواد الأعظم من هؤلاء العرب من قبيلة عسير التى تسكن الجزء الجنوبى من مكة ، والذين تصدوا بعد ذلك لمحمد على ، وقاوموه مقاومة عنيدة ، وقد تمكن صالح بن صالح وهو شيخ من شيوخ هؤلاء العرب ، ورجل آخر من الفرار من تلك المذبحة ، وانسحب مسعود المضيَّان، الذى سبق أن عينه سعود شيخا على بنى حرب كلهم ، وعلى قبائل أخرى متعددة ، رغبة منه فى عدم حبس نفسه داخل المدينة . لقد انسحب الرجل ومعه عائلته وأربعون رجلا من رجاله إلى منزل بناه فى إحدى الحدائق ، وحصنه تحصينا جيدا ، فى بيارة من بيارات النخيل تبعد مسير حوالى ساعة عن المدينة المنورة ، وعندما جرى الاستيلاء على البلدة ، استسلم الرجل بعد حصوله على الأمان لنفسه، ولأسرته وأتباعه ومعهم كل أمتعتهم ؛ وجرى تخصيص منزل لإقامته فى الضواحى ، وأنزل فيه أسرته وبضاعته وأشياءه . لكن عندما استسلمت القلعة ، وجرى ذبح أفراد الحامية

ذبحا مروعا خرب الأتراك بيته ، وقتلوا أبناءه وخدمه ، وقيدوه بالأغلال وأرسلوه إلى ينبع . وأثناء مروره على بدر أفلح فى الهرب إلى الجبال أثناء الليل ، ولجأ إلى بعض من بدو بنى حرب ، لكن أغراهم الذهب التركى على تسليم الرجل إلى الأتراك ، وأرسل مسعود من ينبع إلى القاهرة ، ثم من القاهرة إلى إسطنبول ، حيث قطع رأسه هناك . كان حسّان الكلاجى سالف الذكر رفيقا لمسعود فى ذلك المصير المشئوم ؛ ومعروف أيضا أن حسان كان قد استولى على حكم المدينة (المنورة) قبل استيلاء الوهابيين عليها .

لم يكن السلوك الخائن الذى أتاه الأتراك فى المدينة (المنورة) من الحكمة فى شئ ؛ نظرا لأنهم كانوا يتعاملون مع عدو اشتهر بمراعاة الدين ، واتباعه اتباعا دقيقا ، لذا استاء البدو كلهم من ذلك السلوك ؛ كما استاءوا أيضا من المعاملات الأخرى التى سآتى على ذكرها فيما بعد ، والتى وسمت الاسم " تركى " بالخزى والعار فى سائر أنحاء الحجاز . قام أحمد بونابرت ، متأسيا بما يفعله الوندال(*) بجمع جماجم الوهابيين الذين قتلوا فى المدينة المنورة وبنى بها شيئا يشبه البرج على الطريق المؤدى إلى ينبع . وعين حارسا كان يجلس على مقربة من ذلك البرج : ولا يعرف أحد إن كان العرب أم أهل المدينة المنورة ، هم الذين نجحوا ، من وقت لآخر ، فى إزالة القسم الأكبر من تلك الذكريات المؤلمة ؛ وعندما وصلت إلى المدينة المنورة فى العام ١٨١٥ لم يكن هناك شئ سوى قلة قليلة من تلك الجماجم .

بعد الاستيلاء على المدينة (المنورة) اتجهت حملة مكونة من ألف حصان ، وخمسمائة من جنود المشاة ، عن طريق ينبع إلى جدة ومكة . كانت تلك الحملة بقيادة مصطفى بك ، صهر محمد على باشا . مصطفى بك هذا ، شأنه شأن أحمد بونابرت ، تميز من قبل بالقسوة والهمجية على المتمردين المصريين الذين خرجوا على محمد على

(*) الوندال : قبيلة جرمانية اجتاحت فرنسا وإسبانيا وشمالى إفريقيا فى القرن الخامس الميلادى ، وفى العام ٤٥٥ بعد الميلاد احتلت روما ونهبتها ، والمقصود هنا هو تخريب ممتلكات الآخرين .

مرات كثيرة . كان مصطفى بك هذا قد عين محافظا لمنطقة الشرقية التى استأصل فيها شأفة مخيمات كاملة من البدو ، وأحرق قرى كثيرة ؛ وكان يتباهى دوما بأن كثيرا من الرجال قتلوا بفعل عصى " قواسه " (والقواس : هو الجلاد) أكثر من أى مكان آخر فى الدنيا كلها ، أو بالأحرى أكثر من الذكور الذين كانت تنجبهم الأمهات كل يوم على مدار العام .

خاف الشريف غالب وارتاع من سقوط المدينة (المنورة) : وربما كان الرجل يرغب بحق فى نقض ولائه للوهابيين ، ولذلك آثر تفضيل العثمانيين . وأرسل رُسُلا إلى مصطفى بك يدعوه إلى دخول مدنه ، وهنا جرى توجيه بضع مئات من الجنود ليذهبوا إلى جده فى حين تقدمت القوة الرئيسية فى اتجاه مكة ، التى كان عثمان المضايفة قائدا عليها من قبل الوهابيين ، لكن الرجل وجد نفسه فى موقف لا يسمح له بالدخول فى معركة مع الأتراك ، ولذلك انسحب إلى الطائف ، قبل ساعات قلائل من دخول مصطفى بك إلى مكة ، فى شهر يناير من العام ١٨١٣ . لقد احترم مصطفى بك ممتلكات المكيين ، مثلما احترمها الوهابيون من قبله ؛ بينما انضم الشريف غالب إلى الأتراك ومعه أكثر من ألف من الأعراب والعبيد السود . وبعد أسبوعين من الاستيلاء على مكة ، شن الأتراك هجوما على الطائف (التى تبعد عن مكة مسير ثلاثة أيام فى اتجاه الشرق) ، ووقعت بعض الاشتباكات خارج المدينة ؛ وهرب عثمان المضايفة ؛ ودخل الشريف غالب مع مصطفى بك مدينة الطائف ، التى احتلها الوهابيون طوال عشر سنوات ، عانى أهلها كثيرا من تسلط الأتراك وقسوتهم .

محمد على باشا يتقدم من مصر بجيش من الأتراك - ويصل إلى كل من جدة ومكة - ويلقى القبض على الشريف غالب ، ويرسله إلى القاهرة

- قوات غالب تتجمع فى تربة

لقد أسكر النجاح الذى تحقق مصطفى بك ، ومع نبيذ زبيب الطائف ، اعتقد الرجل أنه هو الوحيد القادر على إخضاع الوهابيين . وكانت بلدة تربة التى تبعد عن الطائف مسافة تقدر بحوالى سبعين أو ثمانين ميلا ، فى اتجاه الشرق ، واحدة من المعاقل الرئيسية التى تصل بين وهابى نجد ووهابى جبال اليمن . كانت قبيلة عرب البجوم تسكن منطقة تربة ؛ وكان البجوم - منذ الحروب الوهابية مع الشريف غالب - قد حصنوا بلدتهم بسور وخندق ؛ يضاف إلى ذلك، أن شبكة غابة النخيل الكثيفة كانت بمثابة سور إضافى . واصل مصطفى بك مسيره فى اتجاه تربة ، لكنه واجه مقاومة هائلة، واضطر إلى العودة إلى الطائف بعد أن خسر ما يقرب من أربعمائة أو خمسمائة رجل . لم يكن عثمان المضايفة ، هو وخيالته الخفيفة بعيدا عما حدث لقوات مصطفى بك لذا راح يبحث فى سائر أنحاء المنطقة عن الشاردين من الأعداء ، وعزل الكثيرين منهم ، وكان يقطع خطوط المواصلات مع مكة ، وظل طوال صيف العام ١٨١٢ الميلادى مصدرا لإحراج حامية الطائف والتحرش بها . وهنا نجد أن الشريف غالب ، الذى كان لديه مثل عثمان المضايفة خيالة من البدو ، يعرض خمسة آلاف دولار مكافأة لمن يأسر عثمان المضايفة . لقد كان عداء الشريف غالب الشخصى لنسيبه ، الذى كان السبب الرئيسى فى مصائبه كلها مع الوهابيين سببا فى أن الرجل فقد حكمته وعقله ؛ ولم يخطر بباله أن البدو المحيطين بمكة إذا ما فقدوا هذا الشيخ ، سوف يسهل على الأتراك ترسيخ أقدامهم فى البلاد ، وحرمانه هو من سلطته .

فى إحدى الجولات توقف عثمان المضايفة فى "بيسيل" إلى تلك القلعة الصغيرة التى بناها فى الجبال ، وتبعد مسافة مسير أربع أو خمس ساعات عن الطائف فى اتجاه الشرق ، وعندما علم الشريف غالب بنبأ وجود المضايفة فى تلك القلعة ، أوفد إليه قوة

عسكرية قامت بتطويق القلعة ثم أضرمت النيران فيها . وهنا اندفع المضايفة ومعه ثلاثون من أتباعه وهم يرتدون زى الطبقة الدنيا من البدو ، وراحوا يهاجمون العدو ويشقون لأنفسهم طريقا خلال صفوفه ؛ وأصيبت فرس المضايفة بجرح أعجزها عن حمله لكنه واصل مسيره على قدميه وهرب من مطارديه ؛ لكنه فى صبيحة اليوم التالى لجأ إلى خيمة أحد العتبان البدو ، فجرى القبض عليه واقتياده أمام الشريف غالب ، بعد أن دفع المكافأة التى وعد بها إلى البدوى الذى باع المضايفة ثم قيد الشريف غالب أسيره بالسلاسل . وتم إرساله إلى جدة ومنها إلى القاهرة ، ثم إلى القسطنطينية ، التى قام فيها أصغر أبناء محمد على باشا بتقديم الأسير النبيل إلى صاحب الجلالة (الباب العالى) مع مفاتيح المدينتين المقدستين ، وكثير من الهدايا الثمينة . وحسب العادة ، جرى قطع رأس المضايفة عقب وصوله مباشرة ؛ وبذلك فقد الوهابيون رجلا من أنشط وأجرأ رجالا تهم فى الحجاز ، وقد تم أسر المضايفة فى شهر سبتمبر ١٨١٢ الميلادى .

لقد أعيد الحجاز ، إلى الطاعة والولاء والخضوع ، وجرى تحرير المدينتين المقدستين ، وواصلت قافلة الحج قادمة من القاهرة إلى مكة فى شهر نوفمبر من العام الميلادى ، مصحوبة بكل العظمة والأبهة ، وأدى الحجاج فريضة الحج على النحو المطلوب ، ولكن القافلة السورية لم تستطع المرور، أو حتى محاولة المرور عبر الصحراء ، نظرا لأن القلاع والآبار الواقعة على طريق الحج لم تجر صيانتها على النحو المعتاد ، فضلا عن عدم توفر المؤن والتموينات المطلوبة . كان أحمد بونابرت قد عاد إلى القاهرة ؛ وكان طوسون بك ، الذى عين باشا على جدة ، قد حضر فى شتاء العام ١٨١٢ الميلادى لقضاء فريضة الحج ، وخلّف وراءه ديوان أفندى ، أحد الموظفين فى بلاط محمد على ، فى منصب محافظ المدينة (المنورة)، وعلى الرغم من وجود مدن الحجاز الخمسة فى أيدى الأتراك ، فإن القوة الوهابية لم تكن قد انكسرت تماما، إذ كانت القبائل الموجودة شرقى الجبال التى تمتد بطول هذه البلاد من الشمال

إلى الشرق محاذية للبحر ما تزال تعترف بسيادة سعود عليها ، وكان الأتراك ينخدعون كلما التقوا البدو فى الخلاء ؛ يضاف إلى ذلك أن سلوك الشريف غالب كان يبعث الثقة فى نفوس حلفائه . فى ظل هذه الظروف وجد محمد على باشا ، أن من الضرورى ، قيامه بزيارة شخصية إلى مسرح العمليات ، وأن يضرب ضربة علها تكون إشارة إلى رسوخ سلطته ونفوذه فى الحجاز، لعلها تمكنه من أن يحصل لنفسه على المزايا كلها المترتبة على الغزو . سبق أن عرفنا أن الباب العالى أصدر أمرا قاطعا بأن يكون محمد على باشا على رأس القوات فى تلك البلاد ؛ ولما كان محمد على قد تمكن من أن يخضع مصر كلها منذ العام ١٨١١ الميلادى ، فلم يكن لديه أى مبرر للعصيان . بد أن طرد البقية الباقية من المماليك من الوجه القبلى إلى دنقلة ، وجرى بعد ذلك إغراء أحمد أغا لاس محافظ قنا ، الشخص الوحيد صاحب النفوذ بين الجنود ، والذى كان الباشا يتشكك فى خططه ونواياه ، أحمد أغا هذا جرى إغراؤه بالعودة إلى القاهرة ؛ وجاء إعدامه دليلا آخرا (إن كنا بحاجة إلى أدلة) على عدم احترام محمد على باشا لوعود الأمان التى كان يقطعها على نفسه لبعض الناس . وعندما ترك محمد على القاهرة ، خلّف وراءه حسين بك محافظا على المدينة وعلى الوجه البحرى ، فى حين جعل ابنه الأكبر إبراهيم باشا محافظا للوجه القبلى ، وهذان الرجلان من أصحاب المواهب الفذة ؛ وتولى حسين بك الإدارة العسكرية فى حين تولى إبراهيم باشا الإدارة المدنية .

لقد أبحر محمد على باشا من السويس ومعه ألفان من جنود المشاة ، فى حين تحرك فى الموعد نفسه فيلق مساو لهذا العدد من الخيالة ، ومصحوبا بقافلة من الإبل قوامها ثمانية آلاف جمل ، عن طريق البر. كان طوسون باشا مشغولا بتجميع قواته فى مكة ، عندما وصل والده إلى جدة فى شهر سبتمبر من العام ١٨١٣ الميلادى . تصادف وجود الشريف غالب فى جده ، ولذلك صعد الرجل إلى ظهر مركب الباشا ليحييه قبل نزوله إلى البر . فى هذه المناسبة أقسما على القرآن ، بألا يتسبب أحدهما فى القيام بشىء يتعارض مع مصلحة ، وسلامة ، أو حياة الآخر – هذا القسم أكده

الرجـلان على الملأ بعـد ذلك بأسـابيع عدة فى المسـجد الحـرام فى مكـة ، وذلك بنـاء على رغبة صريحـة من الشريف غالب ، الذى لم يتعلم أن القسم لا يلتزم به عثمانى فى أى وقت من الأوقـات . لقد أنهى الشريف مع الباشـا بعض المصاعب التى نشـأت بينه وبين مـحافظ جـدة التركى ؛ والسبب فى ذلك ، أنه اعتبـارا من غزو الحـجاز من قبل الأتراك ، جرى الاتفاق على اقتسـام جمـارك جدة على أن يحصـل الشـريف غالبا على نصفها .

عقب وصـول محـمد على باشـا إلى مكة ، قدم الهدايا للعلماء ، ووزع الصـدقات على الفقراء . وبدأ فى ترميم الحرم المكى ، وخصص مبالغ لخدمة الحرم ، وتزيينه . لكن أهم أعمال الرجل فى ذلك الوقت كانت تتمثل فى مسألة نقل الإمدادات والتموينات الضرورية من جـدة إلى مكة والطائف . وأصبحت جدة مستودعا رئيسيا لتموينات ومؤن وذخيرة الجيش . وجرى استعمـال الحركة الملاحية فى ذلك الميناء ، وفى ميناء ينبع (وهى حركة كبيرة أيضا) فى عملية النقل هذه ؛ وأبرم محـمد على باشـا عقدا مع إمام مسقط استأجر بمقتضاه عشرين سفينة مدة عام كامل ، استعملها أيضا فى نقل هذه المؤن والتموينات .

لقد تمنى الباشـا لو أن الفرقـاطة الصـغيرة (السـفينة الحربية الوحيدة لدى محـمد على) الراسيـة فى الإسكندرية ، جـرى إحضـارها عن طريق رأس الرجـاء الصـالح إلى البحر الأحمر ؛ لكن الحكومة الإنجليزية لم توافق على ذلك ، لعدم ثقتها فى طاقم السفينة الذى يمكن أن يتسبب فى ضياعـها فى بحار مـجهولة للبحـارة الأتراك ، وقد يعتقد الأتراك الشكاكون أن ضياع أو فقدان تلك السفينة وراءه أوامر سرية صـادرة عن الإنجليزى . وعرض أحد الإنجليز ، الذى أقام فى مصر فترة من الزمن ، نقل الفرقاطة عند ارتفاع مياه النيل ، إلى القاهرة ثم القيام بنقلها بعد ذلك عن طريق " الدُّحروجات " عبر الصحراء إلى ميناء السويس . كان ذلك الإنجليزى متيقنا أن هذه العملية يمكن تحقيقها ؛ لكن مشروع هذا الإنجليزى كان بعيدا تماما عن الأمور المعتادة ، الأمر الذى جعل الأتراك يرفضونه .

لقد اتضح أن مسألة نقل المؤن والتموينات عبر المسافة القصيرة فيما بين جدة ومكة أصعب بكثير من نقلها من مصر إلى جدة ، فقد نفقت الإبل كلها التى رافقت الحملات على الحجاز ، فور وصولها مباشرة . وسرعان ما انتهت الأعشاب الصحراوية نظرا لكثرة مرور القوافل ، ولم تكن الإبل تحصل على غذاء سوى كمية صغيرة من الفول كانت تحصل عليه فى المساء ؛ وهذه الكمية الصغيرة ، كان السائقون وهم من الفلاحين المصريين ، يختلسون شيئا منها ليبيعوه إلى بدو الحجاز ، هؤلاء الفلاحون كانوا قد أحضروا عنوة من منازلهم ، ولم يكن قد تبقى من الثمانية آلاف جمل التى أرسلها محمد على باشا ، سوى خمسمائة جمل فقط هى التى بقيت على قيد الحياة مدة ثلاث أشهر عقب وصولها . مسألة التفتيش على الميرة (*) ومختلف تفاصيلها كانت أمرا لا يليق بكرامة محمد على ؛ ولم يكن بوسع الرجل أيضا اتخاذ أية ترتيبات خاصة بالصحة دون تغيير إدارة الجيش كلها ، وبخاصة أن كل أفراد هذه الإدارة من الصغير إلى الكبير كانوا يقومون بعمليات السلب والنهب . كان البدو الذين يساندون المصالح التركية يفتقرون تماما إلى الإبل ، شأنهم فى ذلك شأن كل أولئك البدو الذين يعيشون فى المناطق الجبلية : قلة قليلة من هؤلاء البدو هم الذين غامروا بتقديم إبلهم لاستعمالها فى عملية النقل هذه ؛ وخلال هذه الحرب التركية لم يجر تجميع سوى حوالى خمسمائة جمل فقط . وفى ظل هذه الظروف وجد الباشا نفسه معلقًا فى عملياته الحربية . لم يكن عدد الإبل يسمح سوى بنقل الاحتياجات اليومية للقوات فى كل من مكة والطائف ؛ يضاف إلى ذلك ، أن الباشا لم يقدم المال للبدو ، الأمر الذى جعل القلة القليلة منهم تقدم إبلها لخدمة الباشا .

عندما وصل محمد على باشا إلى مكة ، اكتشف تلك الحالة المأساوية، لذا حث الشريف غالب على استعمال نفوذه لدى عرب الحجاز ، وإقناعهم بتقديم أكبر عدد ممكن من الإبل ؛ وجرى - من أجل تحقيق هذا الغرض - توزيع مبلغ كبير من المال

(*) المقصود بالميرة هنا تموينات ومؤن الجيش والجنود . (المترجم)

على شيوخ القبائل . لكن المعروف أن شيخ القبيلة لا سلطان له على قبيلته ، ولا يستطيع أخذ جمل عنوة من أفقر فقراء العرب . ووعد الشريف خيرا ؛ كما وعد الشيوخ خيرا أيضا . ثم جرى بعد ذلك تقديم دفعة مالية ، قدمها الباشا أيضا ، ومع ذلك لم تظهر الإبل .

وهنا بدأ الباشا يكشف عن برود علاقته بالشريف ، بعد أن كان قد أظهر قوة هذا الود عندما قام بزيارة الشريف أثناء مقامه فى مكة . وراح الشريف غالب من جانبه ، يشتكى من أن الرسوم الجمركية فى جدة ، يجرى أخذها من موظفيه على الرغم من وعود محمد على باشا ؛ وراح كل طرف من الطرفين يتهم الطرف الآخر بالكيد له والتآمر عليه . وهنا بدأت تظهر علاقة الشريف الوثيقة بالقبائل المجاورة ، التى بدأت اعتبارا من إلقاء القبض على عثمان المضايفة ، وراحت تلك القبائل تتطلع للشريف غالب باعتباره حاميا لهذه القبائل من كل من الوهابيين، والعثمانيين ، بدأت هذه العلاقة تثير المزيد من الشكوك فى ذهن محمد على باشا، الذى أصبح على قناعة تامة أن استمرار الشريف غالب فى الاحتفاظ بسلطته ، سوف لا يهيئ الفرصة لمحمد على للنجاح فى عملياته العسكرية . وخصوصا بعد أن تلقى فرمانا من السلطان يخول له سلطة التصرف مع الشريف غالب وفقا لما يراه مناسبا ؛ وخيره إما أن يتركه على رأس الحكومة أو يعزله ويأسره، وهذا هو ما قرره الباشا بعد أن وضع الشريف غالب فى السجن ؛ لكن هذا العمل لم يكن سهلا فقد كان مع الشريف غالب فى مكة حوالى ألف وخمسمائة رجل من المحاربين ، كما كانت له قوات أخرى فى الطائف وفى جدة ، وكان عرب الجوار كلهم يفضلون غالب على الباشا ، الذى كان من السهل مناصبته العداء . وفى مكة كان الشريف غالب يسكن فى قصر محصن على منحدر تل من التلال ، كانت فوقه قلعة ، تتصل بالقصر عن طريق نفق تحت الأرض . هذه القلعة ، بناها أخوه الأكبر سرور وأعاد الشريف غالب تحصينها من جديد ، عندما بلغته أخبار استعدادات محمد على لغزو الجزيرة العربية . كانت تلك القلعة مزودة تزويدا حسنًا بالمؤن والتموينات ؛ وكان الماء وفيرا فى خزاناتها ؛ وكانت فيها حامية تقدر بحوالى

ثمانمائة رجل ، ومعهم حوالى عشرة مدافع ثقيلة ، وكانوا على استعداد للدفاع عن القلعة بصورة مستمرة . كانت تلك القلعة تتحكم فى المدينة كلها ، كما كان يصعب النيل منها بفعل الوسائل المتوفرة لدى محمد على ، إذا ما أراد النيل من هذه القلعة عن طريق الحصار . يزاد على ذلك أن كثيرا من قوات الشريف غالب الأخرى ، مثل أشراف مكة ، وخدمهم ، والعديد من عبيدهم المسلحين ، وبعض الجنود المرتزقة من اليمن ، بقيت فى المدينة (مكة) أو كانت تعمل حرسا خاصا للشريف غالب نفسه . وسرعان ما أدرك الشريف غالب أن محمد على يخطط لخيانته .

المؤكد أن الشريف غالب لو كان قد حنث فى الوعد المقطوع ، وقام بالهجوم على الباشا (الذى لم يكن له فى مكة فى ذلك الوقت سوى ألف ومائتى رجل فى مكة) فلربما استطاع بمعاونة البدو ، طرد الباشا من المدينة . لكن أيا كانت الاتهامات الموجهة للشريف غالب بسبب استبداده وإقطاعه ، فلن تغفر له خيانته للعهد؛ على الرغم من أن الأتراك كانوا يشيعون أن الشريف غالب كان قد وضع خطة للنيل من محمد على باشا شخصيا .

وقد توقف غالب عن زيارة الباشا بصورة منتظمة بعكس ما كان يفعل من قبل ، وعندما كان يذهب مضطرا لزيارة الباشا فى محل إقامته (الذى هو مبنى مدرسة كبيرة ، بالقرب من المسجد الحرام) ، كان يأخذ معه مئات عدة من الجنود ؛ ثم انقطعت زياراته بعد ذلك كلية ، بحيث لم يعد يغادر قصره إلا فى يوم الجمعة فقط . لقد حاول محمد على مرارا دون جدوى فصل الشريف غالب عن حرسه ، وقام بزيارة الشريف غالب مرتين وبصحبته قلة قليلة من ضباطه ، ظنا منه أن الشريف غالب سيفعل الشىء نفسه : كان محمد على قد قرر القبض على الشريف غالب عند وجوده فى المسجد الحرام ، لكن القاضى منعه من الإقدام على عمل كبير من هذا القبيل ؛ كان ذلك القاضى قد وصل مؤخرا قادما من القسطنطينية ، وأكد تأكيدا شديدا على عدم انتهاك الحرمة الدينية للبيت الحرام (أروى هذا الكلام اعتماداً على أفضل المصادر) .

بعد مرور قرابة أسبوعين ، حاول خلالها محمد على تنفيذ خطته ، لكنه لم يتمكن من تنفيذها، وأخيرا أعد محمد على مكيدة ، تدلك على الخبرة الكبيرة التى اكتسبها فى فن التآمر والكيد والوقيعة، فقد وجه محمد على ولده طوسون باشا ، الذى كان وقتئذ فى جدة ، وطلب منه المجيء فى ساعة متأخرة إلى مكة من مساء أحد الأيام . ومن آداب اللياقة أن يخرج أو يأتى الشريف غالب لتحية طوسون باشا ؛ لأن التغاضى عن مثل هذا السلام يمكن أن يكون مساويا لإعلان الحرب على الأتراك ؛ ولما كان الشريف غالب يود القيام بالزيارة قبل التآمر عليه ، فقد ذهب فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى لوصول طوسون باشا ، ووصل إلى منزل طوسون ومعه مجموعة صغيرة من الجنود ، كان محمد على قد تنبأ بذلك ؛ وفى اليوم السابق لوصول ولده طوسون ، أمر محمد على حوالى مائة من جنوده بإخفاء أنفسهم فى غرف مختلفة ، مجاورة لفناء المنزل الرئيسى الذى كان ينزل فيه طوسون ؛ ونفذ الجنود ذلك على نحو لا يسترعى ملاحظة الناس لهم ، أو لفت أنظارهم إليهم . وعندما وصل الشريف غالب رافقه الخدم إلى الدور العلوى بزعم أن طوسون كان متعبا من الرحلة ؛ وطلب إلى ضباط غالب البقاء فى الدور الأول . دخل غالب غرفة الباشا وتحاور معه فترة من الوقت ، لكنه عندما هم بالرحيل أبلغه عابدين بك (وهو من قادة الأرناءوط) أنه ينبغى أن يبقى أسيرا عندهم ؛ وأن المقاومة لا طائل من ورائها ؛ وهنا اندفع الجنود المختبئون ، وقام عابدين بك هو وطوسون باشا ، بإجبار الشريف غالب على أن يطل من النافذة على جنوده ويأمرهم بالعودة إلى منازلهم ، وأنه لم يصبه أى أذى .

عندما أذيع ذلك الكلام على الملأ ، لجأ ولدا الشريف غالب إلى القلعة ومعهما قواتهما ، واستعدا للدفاع بينما أظهر الشريف غالب برودًا شديدا : - قال الشريف غالب لطوسون فى وجود ضابطه : " لو لم تكن قد خنت لما حدث هذا الذى أنا فيه" وعندما عُرض عليه الفرمان (سواء أكان حقيقيا أم مزورا) الذى يطالب بحضور الشريف غالب إلى القسطنطينية رد غالب قائلا : " هذه إرادة الله : لقد أمضيت حياتى كلها فى حروب ضد أعداء السلطان ، وبالتالى لا يمكن أن أخاف أو أخشى

مثولى أمامه". بقاء القلعة تحت سيطرة ولدى الشريف غالب يعنى أن المهمة عند منتصفها . وهنا أجبروا الشريف غالب على كتابة مذكرة لولديه يطلب إليهما فيها تسليم القلعة لمحمد على ؛ لكنه لم يوقع تلك المذكرة إلا بعد أن هددوه بقطع رأسه .

دخل الأتراك القلعة فى اليوم التالى ، وتفرق أفراد الحامية بين البدو المجاورين لها أو انضموا إلى الوهابيين . وجرى تعيين القاضى هو وضابط من ضباط الباشا ومعهما شخص ثالث من طرف الشريف غالب ، وطُلب إليهم إعداد قائمة بممتلكات الشريف كلها ، وجرى تفتيش قصوره فى سائر أنحاء مكة تفتيشا دقيقا ، وقدرت قيمة ذلك الذى جرى حصره والعثور عليه بحوالى ستة عشر كيسا ، أو حوالى مائتين وخمسين ألفا من الجنيهات الإنجليزية .

بعد أن بقى الشريف غالب فى الأسر مدة أيام قلائل فى مكة ، جرى نقله (فى شهر نوفمبر) إلى مدينة جدة ، حيث جرى احتجازه على ظهر سفينة فى الميناء ، ثم أبحرت السفينة بعد ذلك إلى ميناء القصير . تصادف فى ذلك الوقت أن كنت فى قنا فى الوجه القبلى ، عندما وصل الشريف غالب إلى هناك قادما من القصير وكان ذلك فى اليوم الأول من شهر يناير من العام ١٨١٤ الميلادى ، وتهيأت لى فرصة مشاهدة ذلك الشريف . بدا الرجل بروح عالية غير كسيرة ، وكان يتكلم بشجاعة واعتزاز كبير ، لكنه لم يأت على ذكر محمد على باشا أو اسم ولده طوسون . كان بصحبة الرجل عشر رجال من الطواشى ، وبعض الخدم من العرب ، واثنين من أبنائه اللذين انضما إليه طواعية واختيارا فى جدة . لاحظت من بين الأشياء المرافقة للشريف غالب لوحة شطرنج أنيقة ، قيل إنه كان يمضى بعض الساعات فى لعب الشطرنج مع مشاهير هؤلاء الطواشى .

فى القاهرة التقى الشريف غالب بنسائه اللاتى جرى إرسالهن عن طريق السويس ، ومعهن ممتلكات الرجل كلها على النحو الذى وجدت عليه فى قصوره فى مكة ؛ تنفيذا لتعليمات تلقاها محمد على من السلطان تقضى بألا يستولى على أى جزء من هذه الممتلكات . توفى واحد من ولدى الشريف غالب فى الإسكندرية ؛ وتبع الآخر

والده إلى سالونيكا التي حددها الباب العالى مكانا لإقامة الشريف غالب ، والتى كان يتقاضى فيها معاشا يناسب رتبته بينما بقيت فى مكة بعض الجاريات ، وابن صغير من أبناء غالب ، وشقيقة من شقيقاته ، وقد توفى الشريف هو وأسرته بسبب الطاعون الذى اجتاح سالونيكا فى صيف العام ١٨١٦ الميلادى . عبد الله بن سرور ، ابن عم الشريف غالب ، ألقى القبض عليه فى اليوم التالى لإيداع الشريف غالب السجن ، وجرى إرساله هو الآخر إلى القاهرة . لكن تمكن من الهرب ، إلا أن بدو السويس ألقوا القبض عليه وأعادوه . ونظرا لأنه كان على عداء دائم مع الشريف غالب ، فلم تكن هناك أسباب داعية للقبض عليه سوى أنه كانت له جماعة قوية فى مكة . لكن جرى بعد ذلك إطلاق سراح الرجل بأوامر من الباب العالى .

كان الشريف غالب ، أثناء حكمه لمكة ، قد كشف عن شجاعة كبيرة فى حربه ضد الوهابيين ، وفى حربه التى شنها على أقاربه ، الذين كانوا يعترضون عليه فى معظم الأحيان . يضاف إلى ذلك مكر الشريف غالب الشديد ومعرفته الوثيقة بالبدو ومراوغاتهم ، فضلا عن طلاقته وعمقه ، كل ذلك هو الذى أهله لحكم مكة ؛ لكنه كان جشعا مما ضاعف من كراهية الناس له . وطوال حكم دام ثمانية وعشرين عاما ، لابد وأن يكون قد جمع مالا كثيرا ، بينما كانت نفقاته فى قلة لا تكلفه الكثير . ونظرا لعدم وجود أية ممتلكات غير تلك التى جرى جردها بعد عزله ، ظن كثير من الناس أن الرجل ربما يكون قد نقل مبالغ كبيرة أو سلعا ذات قيمة إلى جزر الهند الشرقية ، وبخاصة بومباى التى كانت تربطه بمينائها حركة تجارية كبيرة . ادعى محمد على باشا أن الشريف غالب كان يود اللجوء إلى بومباى ؛ يزاد على ذلك اهتمام الشريف غالب بتحصين القلعة الملكية وتزويدها بالمؤن ، أثبت أن الرجل كان قد عقد العزم على مقاومة الأتراك ، وشن الحرب عليهم داخل حدود مكة .

لقد أدى أسر الشريف غالب إلى نشر الخوف والفزع والرعب فى قلوب المكيين والبدو كلهم ، وهرب الكثيرون من شيوخ البدو ، الذين سبق أن قدمهم الشريف غالب إلى محمد على باشا ، والذين كانوا قد بدأوا التفاوض معه ، هربوا من مكة

وعادوا إلى تربة التى تحصن بها الوهابيون . وهنا لجأ أصدقاء غالب فى مكة ، والعديد من عائلات الأشراف القوية ومعهم أتباعهم ، إلى خيام جيرانهم ، دون أن يعلموا أن الباشا قد أعد خطة لاقتلاع سلالة الأشراف من جذورها والقضاء عليها . كان الشريف راجح من بين هؤلاء الأشراف ، وراجح هذا من أهل الشريف غالب البعيدين ، وهو من أشهر شجعان الحجاز ، كما أشتهر الرجل أيضا بعدله وكرمه . وقد أسند إليه محمد على قيادة عدد لا بأس به من البدو ، وكلفه بإحضار المزيد منهم ليجرى تجنيدهم ضمن قوات محمد على . وفى اليوم الذى ألقى فيه القبض على الشريف غالب ، غادر الشريف راجح مكة ، واتجه مع أهله إلى الدرعية ، مقر سعود ، الذى سعد بانضمام مثل هذا الرجل إليه ، وبخاصة أن الشريف راجح كان صاحب نفوذ وموهبة ؛ وأعطاه سعود مبلغا كبيرا من المال ، وعينه بدلا من عثمان المضايفة ، ليكون أمير الأمراء ، أو بالأحرى رئيس الرؤساء أو شيخ الشيوخ على بدو الحجاز .

لقد أحدث سجن الشريف غالب ركودا فى الشئون السياسية فى البلاد ، هذه الخيانة العلنية جعلت الكثيرين يبتعدون عن الأتراك ، وبخاصة أولئك الذين كانوا معادين للوهابيين من قبل ، وأصبح موقف محمد على باشا موقفا حرجا ، وادعى المطلعون من الناس ، أنه إذا كان محمد على قد قرر القبض على الشريف غالب ، فمن الأفضل الانتظار ، بينما ينضم الشيوخ الأقوياء الذين يستطيعون المواجهة الحقيقية مع الوهابيين ، الأمر الذى كان يجعل من الصعب عليهم بعد ذلك التخلى عن مساندة الباشا . الواضح أن محمد على اعتمد فى حكمه على نصائح الشريف غالب ، وعلى رأيه الخاص ؛ وخشى أن يسقط هو نفسه ضحية للخيانة ، لو أنه أعطى غالب الفرصة لتنفيذ مخططاته .

لقد كان محمد على مخطئا فى ذلك ، فلم يكن الشريف غالب بالقطع صديقا للعثمانيين ؛ لكنه من ناحية أخرى ، كان يكره الهيمنة الوهابية بالقدر نفسه وكان

يـهدف إلى إضـعـاف الطرفين ؛ لكنه لم يفكر مطلقا فى الخيانة الشـخصية للباشـا ، الذى أقسم على المحافظة على أمنه وسلامته .

عين محمد على باشا يحيى محافظا لمكة ؛ ويحيى هذا واحد من سلالة الشريف وتربطه به قرابة بعيدة ، وكان غريما لغالب من قـبل ، وجاء تعـيين هذا اليـحـيى من منطلـق أنه لم يكـن صـاحب مـوهـبـة أو صـيـت ذائع ، وبالتـالـى لن يكون فى نظر محمد على سوى صفر . وخصص الباشا لنفسه الدخل كله الذى كان الشريف يحصل عليه من جدة ومكة ، وسمح بإعطاء يحيى راتبا شهريا مقداره ثلاثون كيسا ؛ الأمر الذى جعل هذا اليحيى مجرد موظف من موظفى محمد على .

لم يكن أمام محمد على من هدف آخر – وقتئذ – سوى نقل المؤن والتموينات من جدة إلى كل من مكة والطائف . وبعد أن جمّع مـحـمد على كمـية صـغـيرة من المؤن والتـموينـات فى الطائف قـرر توجيـه ضـربة حـاسـمـة لأعـدائه ، الذين تشـجـعوا بفـعل انشـغال محمد على الذى دام فترة طويلة ، وراحوا يسرقون الإبل من بوابات الطائف ومكة ، كمـا بدأ البدو يعـربون عن احـتقـارهم للبـاشـا وقوته ، وبخـاصـة أنـهم بدأوا يكرهونه بعد خيانته . ومن بين كل أعداء الأتراك القريبين من مكة ، كان عرب البجوم هم أشد الناس عداء لمحمد على ، وعرب البجوم هؤلاء يسكنون بلدة تربة ، علاوة على أنهم استطاعوا هزيمة مصطفى بك فى إحدى المناسبات السـابقة . كان القسم الأكبر من قـوات الشريف غالب قد لجأ إلى تربة بعد أن أسر محمد على باشا سيدهم ؛ كما أسس الشـريف راجح مـركـز رئاسـتـه أيضـا فى تربـة ، كـمـا انضم إليـه "على المضايفة" (شقيق عثمان المضايفة سالف الذكر) ، وعلى المضايفة رجل من أصحاب النفوذ فى هذه المنطقة . وبذلك تكون تربة قد أصبحت نقطة توحّد لوهابى الجنوب كلهم ، مثلما كانت الدرعية نقطة توحد لوهابى الشمال كلهم .

عرب البجوم ترأسهم امرأة ، ويعتبرهم الأتراك سحرة وجرى هزيمتهم فى تربة - استيلاء محمد على على القنفذة - استياء القوات التركية - وفاة سعود - إعلان ولده عبد الله شيخًا (رئيسًا) للوهابيين

عرب البجوم ، الذين يعمل بعض منهم بالرعى ، وبعض آخر بالزراعة ، كانت ترأسهم امرأة اسمها "غالية" وكان زوجها واحداً من كبار رجال تربة . كانت غالية لديها ثروة أكثر من أية عائلة عربية فى المنطقة المجاورة لها . كانت تلك الغالية توزع النقود والتموينات على فقراء قبيلتها ، الذين كانوا على استعداد لمحاربة الأتراك ، كانت مائدة هذه السيدة مفتوحة أمام المؤمنين الوهابيين كلهم ، الذين كان شيوخهم يعقدون اجتماعاتهم فى منزلها ؛ ونظرا لأن هذه السيدة المسنة اشتهرت بالعدل ، ومعرفة دقيقة بأحوال ومصالح القبائل المجاورة ؛ لذا أصبح صوتها مسموعاً وكلمتها نافذة عند الجميع ؛ كانت هذه السيدة تحكم البجوم فى واقع الأمر ، على الرغم من أنهم كان لهم شيخ اسمى يدعى "ابن خورشان" ، لكن بدأ اسم الغالية ينتشر فى سائر أنحاء البلاد اعتبارا من أول هزيمة لقيها مصطفى بك ، بالقرب من تربة . وسرعان ما راحت مخاوف الجنود الأتراك تضخم من نفوذ هذه السيدة ومن هيمنتها . كان الجنود الأتراك يعدون غالية رئيسا للوهابيين المتحدين ، وكانوا يروون قصصا منافية للعقل تماما عن قوى هذه السيدة كساحرة ، وأنها كانت تغدق أفضالها الشخصية على الزعماء الوهابيين ، الذين أصبحوا بفضلها لا يُقهرون .

هذه الروايات أدت إلى تنشيط همم العثمانيين ، وزادت البدو ثقة على ثقتهم بأنفسهم ؛ الأمر الذى أدى إلى إفشال الحملة التى قام بها طوسون باشا ، بينما كان محمد على باشا قد قرر فى نهاية المطاف القيام بهجوم ثان ؛ وتقدم طوسون من الطائف فى أواخر شهر أكتوبر ، أو أوائل شهر نوفمبر من العام ١٨١٣ الميلادى ، ومعه ألفا رجل للاستيلاء على بلدة تربة . كانت المنطقة الواقعة بين بلدة تربة

والطائف ، من القبائل المعادية ، بنى سعد، والنصيرة ، وبخاصة العتيبة كانت تلك القبائل على الحياد عندما كان الشريف غالب فى الحكم ؛ وكان شيوخ عدة من هذه القبائل قد جاءوا إلى مكة للتفاوض مع الباشا ؛ لكن بعد أن ألقى الباشا القبض على الشريف غالب ، هرب الشيوخ كلهم إلى الجبال ، وراحوا يتحرشون بالقوات التركية التى كانوا يوبخونها بسبب الخيانة التى أقبل عليها الباشا .

عندما تحرك طوسون من الطائف كان يحمل معه مؤنا وتموينات تكفيه ثلاثين يوما ، أمضى القسم الأكبر منها فى حرب مضنية ضد العتبان ، حيث راح يطاردهم فى جبالهم ، واستطاع إخضاع أفرع هذه القبيلة ، وعندما وصل طوسون إلى أبواب تربة لم يكن معه سوى تموينات ومؤن تكفى أياما قليلة . وأصدر أوامره للقوات بالهجوم على المكان ؛ لكن العرب دافعوا دفاعا مستميتا عن أسوارهم ، مستلهمين فى ذلك روح غالب وما حدث له ؛ فى حين خاب أمل الأتراك لعدم وجود غنائم مرتقبة من ناحية، والتعب الشديد الذى ألم بهم نتيجة الجهود السابقة من ناحية أخرى، وأمر طوسون بالقيام بهجوم ثان فى اليوم التالى ، لكن قواته رفضت صراحة الدخول فى القتال ضد غالية ؛ وأعرب ضباط طوسون له عن حال الجيش المرهق ، والنقص الذى طرأ على المؤن والتموينات ، وأكدوا له أنه إذا ما حدثت انتكاسة ثانية ، فإنهم جميعا سيموتون جوعًا . وهنا أقنع الضباط طوسون بأن يحول أمر الهجوم إلى أمر انسحاب فى اتجاه الطائف . ولما كان البدو على علم بذلك الموقف المحرج ، فقد سارعوا بالخروج من البلدة ، عقب بدأ الانسحاب ، وراحوا يضغطون على جنود طوسون ، وسيطروا على الشِّعاب التى سيمر الجنود خلالها ، وراحوا يهاجمون الأتراك هجوما عنيفا ، الأمر الذى اضطر الأتراك إلى الدخول فى معركة غير متكافئة بعد أن تخلّت قوات طوسون عن أمتعتها وخيامها ، وبنادقها ، ومؤنها وتمويناتها .

وهنا يبرز توماس كيث ذلك الاسكتلندى سالف الذكر ؛ فقد قام الرجل مع قلة قليلة من خيالته بالاستيلاء على مدفع ، ووجهوه توجيها صحيحا ودقيقا ، مما أعطى المنسحبين فرصة عبور شعب من الشعاب ، كان يمكن أن يؤدى إلى تدمير المنسحبين

كلهم بغير الاستفادة من المدفع على هذا النحو . هذا الانسحاب ترتب عليه قتل ما يزيد على سبعمائة رجل ؛ ومات الكثيرون بسبب نقص الماء والتموينات ؛ فقد وصل ثمن رطل البسكويت أمام تربة إلى ما يقرب من دولار . وأمكن إنقاذ الجيش من التدمير الكامل بفضل ما يقرب من مائة خيال كانوا يرافقون طوسون . وعجز مشاة البدو عن مقاومة الهجوم الثقيل الذى شنه الخيالة المصريون ، والذى كانت له فاعلية قليلة فى هذه المناطق الجبلية والصخرية . واستطاع أبناء الصحراء التفوق على جنود المشاة الأتراك ، الذين لا يقوون على تحمل التعب الشديد .

بعد أربعة أيام من المتاعب والصعاب الجمة ، والمآزق الحرجة ، وصل طوسون باشا ومعه بقايا جيشه قادما من تربة إلى الطائف . ويمكن أن نعزو أسباب فشل حملة طوسون إلى افتقاره إلى الإبل اللازمة لنقل الرجال والمؤن والتموينات . إضافة إلى أنه لم يكن هناك إبل احتياطية فى الطائف حتى تقوم بهذه المهمة : أى إمداد الرجل بالرجال من ناحية ، وبالمؤن والتموينات من الناحية الأخرى . فى ظل الخبرة المستفادة من الكوارث والمصائب فقد اضطر محمد على باشا ، بعد هذه الهزيمة الواضحة ، إلى استئناف مهمته السابقة التى تتمثل فى تسيير القوافل جيئة وذهابا بين جدة ومكة والطائف ، اقتناعا منه أن أية عمليات حربية ضد أعدائه يمكن إدارتها على أفضل نحو ممكن من الطائف .

بعد أن طارد الوهابيون الأتراك إلى أن أصبحوا على بعد مسافة مسير يوم واحد من الطائف ، عادوا إلى تربة ، وراحوا يستأنفون من جديد نظام الإزعاج ، عن طريق الرحلات السريعة ، موجهين ذلك الإزعاج بصفة رئيسية إلى قوافل الباشا ؛ التى لم تستطع المرور عبر هذه المناطق دون عدد كبير من الحراس ، الذين كانوا يستهلكون ثلث الطعام قبل الوصول إلى المكان المحدد ، بينما كان محمد على باشا يقضى وقته بين مكة وجدة .

فى شهر نوفمبر من العام ١٨١٣ الميلادى أدى الناس فريضة الحج وسط أُبهة كبيرة ، فقد جاء سليمان باشا الدمشقى ، مع قافلة الحج السورية عبر الصحراء

دونما عقبات أو مشكلات ؛ باستثناء ما فرض عليه البدو الذين يمر فى أراضيهم من إتاوة المرور عن عشر سنوات سابقة ، لم يجر خلالها دفع تلك الرسوم وجاءت أعداد كبيرة من الحجاج من كل من آسيا الصغرى، ومن إسطنبول عن طريق السويس، وجدة إلى مكة ، وسعد أهل المدينتين المقدستين بعد أن رأوا ذلك الانتعاش الذى ترتب على أحياء تلك الأرباح التى كانوا يجنونها من قبل ، من وراء وجود الحجاج، والتى حرمهم الوهابيون منها بصورة أو بأخرى . وجرى إرسال آلاف عدة من الإبل من القاهرة مع قافلة الحج إلى الباشا ، كما أرسلت أيضا تعزيزات كبيرة من القوات ، فى حين صدرت الأوامر إلى مصطفى بك بالعودة إلى مصر ، لجلب عدد كبير من الخيول بدلا من تلك التى ضاعت أو نفقت أو قتلت أثناء القتال . وبقى الجيش التركى طوال شتاء العام ١٨١٣ الميلادى وبداية العام ١٨١٤ خاملا بلا عمل .

بعد فشل الحملات كلها التى شنها الباشا على أعدائه (باستثناء تلك الحملة التى نجحت فى الاستيلاء على المدينة المنورة) رأى الرجل (الباشا) أن من الضرورى ، وضع خطة جديدة ، وأن نجاح هذه الخطة الجديدة قد يشجع قواته ويصرف انتباه الوهابيين عن الهدف الرئيسى للهجوم . جرى التجهيز لحملة بحرية فى جدة ، ومعها ألف وخمسمائة من جنود المشاة ، وعدد من الناقلات المحملة بالمؤن والتموينات . وعهد إلى كل من حسين أغا، وسايم أوجلو بقيادة هذه القوة . واتجهت الحملة ناحية القنفذة ، (ذلك الميناء البحرى الذى يقع على بعد مسير سبعة أيام جنوبى جدة ، والذى كان من قبل من ممتلكات الشريف غالب)، لكن القنفذة كانت فى ذلك الوقت ومنذ حوالى خمس سنوات من أراضى تامى شيخ عرب عسير ، أقوى القبائل الجبلية الموجودة جنوبى مكة ، وأشد الناس تحمسا واتباعا للوهابيين . اتضح أن موقف القنفذة كان مناسبا، بل وصالحا تماما لتوجيه الهجمات ضد سكان الجبال، وذلك بالتعاون مع الحامية ، الموجودة فى الطائف ؛ ونظرا لسهولة تزويد القنفذة بالمؤن والتموينات ، ونظرا أيضا لأنها تعد خطوة على طريق غزو اليمن ، الذى استرعت ثروته أنظار محمد على ، فقد أكد ذلك أن الخطة كانت موفقة . وجرى الاستيلاء على القنفذة دون إراقة الدماء فى

شهر مارس من العام ١٨١٤ ، نظرا لأن تامى لم يضع فيها سوى حامية صغيرة العدد ؛ لكن السواد الأعظم من السكان ولُّوا هاربين . وهنا سارعت قوة من الخيالة قوامها أربعمائة خيال قاصدة جدة على شاطئ البحر فور ذيوع خبر الاستيلاء على القنفذة . كانت القنفذة محصنة تماما بسور يقاوم العدو الذى يفتقر إلى المدافع مثل الوهابيين ؛ لكن القنفذة لم يكن فيها ماء داخل ضواحيها ، والآبار التى يوجد بها الماء تبعد عن البلدة مسافة تقدر بمسير ثلاث ساعات بالقرب من الجبال . كان بالإمكان إقامة تحصينات حول هذه الآبار ، وحماية الطريق الذى يربط هذه الآبار بالقنفذة ، عن طريق خط من الأبراج ، أو بعدد من بطاريات المدفعية ، نظرا لتوفر المدافع التركية لكن الاحتياطات التى من هذا القبيل لا يمكن أن تخطر على بال أو ذهن رئيس عثمانى غبى مرتجل ؛ وترتب على ذلك ترك آبار جدة ، التى تبعد عن المدينة مسافة مسير نصف ساعة فقط ، بدون أى شكل من أشكال الحماية .

لقد جرى وضع مائة وخمسين جنديا من الأرناءوط بالقرب من آبار القنفذة ؛ لا لحراسة هذه الأبيار من العدو ، وإنما لمنع العرب المحيطين بها وأهل المنطقة من استعمالها مسقى لمواشيهم ، وبعد أن بقى الوهابيون قرابة شهر فى القنفذة خاملين بلا أى نشاط، لكنهم فى مطلع شهر مايو كانوا قد أعدوا فيلقًا قوامه ثمانٍ إلى عشرة آلاف وهابى ، وكان تامى هو الذى يتولى قيادة هذا الفيلق، وبدأ الهجوم فى البداية على الارناءوط القريبين من الآبار . أبلى بعض الأرناءوط بلاء حسنا فى القتال إلى أن دخل الليل ، وهرب بعض آخر فى اتجاه البلدة ونشروا الهرج والمرج فيها . وهنا راح القائد الذى أصابه الرعب والفزع يجرى هو ورجاله فى اتجاه السفن الموجودة فى الميناء بدلا من الدفاع عن البلدة من وراء أسوارها ؛ وهنا دخل الوهابيون القنفذة وقتلوا أعدادا من الجنود والخدم التابعين للجيش التركى ، الذين لم يستطيعوا إنقاذ أنفسهم عن طريق القوارب ، وكذلك الذين عجزوا عن السباحة وكثيرين منهم قتلوا أثناء وجودهم فى الماء بجوار القوارب ، بعد أن سبح الوهابيون وراءهم وراحوا يطاردونهم ؛ وما إن أحس القائد التركى بسلامته على ظهر المركب، حتى أصدر

طريق البحر يلاقون حتفهم على أيدى الوهابيين .

لم يحصل الوهابيون على غنيمة مثل التى غنموها فى القنفذة . هذا يعنى أن الأمتعة كلها ، وكثير من المخزونات ، والمدافع قد أصبحت ملكا لهم ، قلة قليلة فقط من الأتراك هم الذين خرجوا وهم يحملون معهم أشياء غير الملابس التى يرتدونها . لكن أثمن ما فى هذه الغنيمة ، كان عبارة عن أربعمائة حصان، وعدد كبير من الإبل .

ونظرا لندرة المياه على السفن عند العودة، فقد أدى ذلك إلى وفاة الكثير من الجنود والبحارة الأتراك وهم فى الطريق إلى ميناء جدة . لكن هناك تكذيب لمن يقول إن القائد سايم أوجلو كان يغسل يديه دوما بماء ، فى الوقت الذى كان خدمه يموتون عطشا . ومع ذلك عين سايم أوجلو فور وصوله إلى جدة محافظا لها . وكانت القلة القليلة من الجنود الذين حاربوا فى القنفذة أثناء النهار ، قد أفلحوا فى الهرب أثناء الليل ، ووصل اثنا عشر ، منهم إلى مكة ، حيث كافأهم محمد على ، وسمح لهم بالانضمام إلى فرقة أخرى ، لأنهم قرروا ألا يخدموا تحت قيادة سايم أوجلو مرة أخرى .

فى توقيت الحملة على القنفذة كان محمد على باشا قد سافر إلى الطائف طلبا لمناخها الصحى ، ولكى يكون قريبا من مسرح العمليات ومن مكان إقامة البدو ، الذى كان يود أن يقيم معهم اتصالا وديا مرة ثانية . فى شهر يونيو من العام ١٨١٤ الميلادى ، وصلت قوة قوامها ألف وخمسمائة جندى ، هم أفضل جنود المشاة فى مصر ؛ وصلوا قادمين من القاهرة بقيادة حسان باشا ، ذلك الرئيس الأرناءوطى الشهير ، وأحد الموالين المخلصين لمحمد على باشا ، والذى لقى حتفه قبل أن يصبح باشا على مصر . كان حسان هو وأخوه عابدين بك سالف الذكر ، قد أخضعا الوجه القبلى فى مصر ، كما تعاونا فيما بعد مع محمد على فى مذبحة المماليك فى القاهرة . فى شهر ديسمبر من العام ١٨١٣ (أو بالأحرى فى شهر يناير ،) كان لطيف باشا يستثير بعض الشكوك . حسان باشا هذا ، عندما كان مملوكا ، أوفد مع إسماعيل

باشا لتقديم مفاتيح مكة (المكرمة) والمدينة (المنورة) للسلطان العثمانى ، الذى عينه باشا على رتلين من الجنود ، وذلك من باب التحية والمجاملة والامتنان لراعيه محمد على باشا . وتردد فى القاهرة تقرير مفاده أن الرجل ، قد كشف سلوك لطيف باشا وتصرفاته ورغبته فى الاستيلاء على الحكم . وشاع بين الجمهور أن لطيف باشا تلقى فرمانا بالاستيلاء على الحكم إذا سنحت الظروف بذلك . وهنا قام نائب المحافظ هو وحسان باشا باتخاذ الإجراءات الكفيلة بالقضاء على ذلك الرجل الطموح ؛ وقاما بمحاصرة قصر لطيف باشا طيلة ثلاثة أيام ، جرى بعدها مباشرة اقتياده وهو يرتدى زى فلاح من الفلاحين حيث جرى إعدامه بقطع رأسه ؛ وبذلك يكون الاثنان قد أعادا الهدوء إلى البلاد .

بعد أن وصل حسان باشا إلى الحجاز كلفه محمد على بإنشاء مركز رئاسة فى كولاك تلك القرية الصغيرة التى تبعد ثمانية أو تسع ساعات شرقى الطائف ، على الطريق المؤدى إلى تربة ؛ فى سهل خلف سلسلة من الجبال الكبيرة . ووجود عدد كبير من الآبار فى تلك القرية هو الذى زاد من أهميتها وأهمية موقعها ؛ يضاف إلى ذلك ، أن تلك القرية كانت محصنة إلى حد ما . بينما بقى طوسون باشا فى مكة ، مما ضاعف من غضب والده بسبب تسرع طوسون فى الهجوم على تربة.

فى ذلك الوقت تصادف وصولى إلى جدة قادما إليها من سواكن. كانت الأحوال السائدة فى الحجاز لا تنبئ عن اقتراب الصراع . وأن الاستياء والفزع كانا أمرين شائعين بين الجنود، يزاد على ذلك ، أن الانتصارات المتكررة التى حققها العدو ، والموت الأكيد الذى ينتظر الأسرى الأتراك كلهم ، كل ذلك أدى إلى جعل كلمة وهابى تثير الرعب والفزع بين قوات الباشا . يزاد على ذلك أن الأجر الذى يجعل الجندى يحيا حياة مرتاحة وناعمة فى مصر ، لم يكن يكفيه فى الحجاز ، وإنما كان يسد رمقه فقط . فى الطائف وفى المدينة (المنورة) ارتفعت أسعار السلع على نحو لم يتمكن الجندى معه من شراء ما يكفيه من الخبز والبصل اللذين كانا بمثابة الغذاء

الوحيد للجندى ؛ يزاد على ذلك أن الرواتب المتأخرة كانت تصل إلى ثلاثة أو أربعة أشهر . وأن كل شىء فى جدة ومكة كان أغلى بنسبة مائتين وخمسين فى المائة عما هو عليه فى مصر ؛ الأمر الذى جعل الجنود ينفقون كل الذى ادخروه فى مصر ، عندما وصلوا إلى الحجاز مقابل شراء ضروريات الحياة . يضاف إلى ذلك أن الجنود كانوا يتقاضون أجورهم بالقروش المصرية التى كانت قيمتها فى الحجاز أقل من قيمتها فى القاهرة ، الأمر الذى كان يجعل الجندى يخسر ثلث قيمة ما يتقاضاه نظرا لفرق الصرف . كان كثير من الجنود يبيعون أسلحتهم النارية وملابسهم ، وكان الجميع يعانون بلاء كبيرا ؛ ولم يكن محمد على يفعل شيئا للتخفيف من ذلك البلاء . كثير من الجنود ، والجمالة ، والخدم ، وكثير أيضا من الحرفيين ضحوا بأجورهم وأبحروا من جدة وينبع عائدين إلى القاهرة ؛ لكن الباشا سرعان ما منع هذا الإجراء عن طريق تشديد العقوبات . وهنا تضايق الجنود ومن هم على شاكلتهم من هذا الإجراء ، الجندى التركى ، فى كل الأحوال متطوع ، ومن حقه التقاعد من الخدمة إذا ما أراد ذلك وفى أى وقت يشاء ؛ لكن الجنود اكتشفوا أنهم يعاملون فى الحجاز معاملة الأسرى . لذا غادر الكثير من الجنود تكناتهم فى الطائف ومكة وجاءوا إلى جدة ، على أمل أن يتمكنوا من الهرب على ظهر أحد المراكب . وعندما كان يكتشف أمرهم كانوا يعادون مقيدين بالأغلال إلى مركز الرئاسة ؛ وأنا بنفسى التقيت ما يزيد على ثلاثين من هؤلاء الجنود على الطريق من جدة إلى مكة ، وهم مقيدون إلى بعض بحبل طويل ؛ وهذا أسلوب مخزٍ لا يمكن أن ينساه الجنود العثمانيون مطلقا .

أضف إلى الأسباب سالفة الذكر الهواء غير الصحى ، والماء السيئ اللذين يجعلان ساحل الحجاز المنخفض واحدا من أردأ المناخات التى عرفتها فى حياتى : قلة قليلة من الجنود هم الذين نجوا من تأثير ذلك المناخ البشع ؛ وبحسبة صغيرة كان ربع هؤلاء الجنود عاجزين عن القيام بواجباتهم . وأصبح القنوط والاكتئاب الناتج عن المرض ، وانعدام الأمل فى الشفاء ، طابعا عاما بين الجنود ؛ يضاف إلى ذلك إهمال محمد على باشا ، فى استعمال الوسيلة التشجيعية الوحيدة ، التى تؤدى إلى رفع

معنويات هؤلاء الناس ، وتتمثل فى رفع أجورهم ، وتوزيع المكافآت على المتميزين منهم . ومع ذلك لم يرفع محمد على رواتبهم ؛ كما كانت هناك اضطرابات أيضا فى إدارة الجيش المالية ، الأمر الذى جعل كل رئيس من الرؤساء يقتطع من مرتبات مرءوسيه جزءا من بدلاتهم دون مبرر . وبسبب النقص فى المجندين الأتراك ، قام الضباط بإلباس بعض الفلاحين المصريين اللباس العسكرى لينقلوهم من مصاف خدم الضباط إلى سد النقص فى الأفراد فى صفوف الجيش .

كان محمد على باشا، الشخص الوحيد الذى لم ييأس من تحقيق النصر النهائى ؛ وكان يعلم علم اليقين أنه إذا لم يحقق هذا النصر فى الجزيرة العربية ، فإن إسقاطه وطرده من مصر سيكون أمرا مؤكدا وقد بدأ منذ وصوله إلى الطائف محاولة جديدة لإعادة التواصل الودى مع البدو ؛ ونجح الرجل إلى حد ما فى هذا المسعى ، عن طريق المال من ناحية ، والصبر من ناحية أخرى ، ففى شهر أغسطس من العام ١٨١٤ الميلادى ، دخلت قبائل هذيل، وثقيف وبنى سعد وجزء من قبيلة عتيبة فى تحالف جديد مع محمد على ؛ كانت القبائل الثلاثة الأولى تقيم فى المنطقة الواقعة بين مكة والطائف ، أما عتيبة فكانت تقيم في اتجاه الشرق . وجاء شيوخ هذه القبائل إلى مركز الرئاسة ؛ واندرج خمسمائة من أعرابهم تحت لواء محمد على ، الذى سمح لهم برواتب تعادل ضعف الراتب الذى كان يحصل عليه جنده ، وأثناء مقامى فى الطائف ، فى شهر أغسطس من عام ١٨١٤م ، وبحكم أنى كنت كثير التردد على مركز الرئاسة ، كنت أرى شيوخ البدو يفدون كل يوم وهم على يقين من أن كل واحد منهم سيحصل على مجموعة من الملابس . كان الشيوخ الكبار يحصلون على نقود وأموال كلما جاءوا لمحمد على ، وكان الكثيرون منهم يأخذون النقود ويعودون إلى خيامهم ، ويبلغون الوهابيين بكل ما رأوه فى الطائف ؛ بعض آخر من هؤلاء الشيوخ بقوا محايدين ؛ وكان الباشا يظن أن من الصواب تقديم الهدايا والمداهنة ، على أمل أن يحظى لنفسه بقلة قليلة منهم . كان محمد على يصغى لكلام البدو وحديثهم ، وإلى

تأكيداتهم المخادعة فى كثير من الأحيان ، وكان يفعل ذلك على مضض ، ويبدى بشاشته ، وهذا أمر غير معتاد عند العثمانيين أصحاب المراتب العالية .

أبناء الصحراء هؤلاء كانوا يخاطبون محمد على بطريقة فظة ، ولا ينادونه سوى باسم محمد على فقط ، ذات يوم مَثُل أحد العتبان أمام الباشا ، ثم قبل لحيته وقال متعجبا - " لقد تخليت عن دين المسلمين " (أو بالأحرى " المؤمنين الحقيقيين " كما يطلق الوهابيون على أنفسهم) ؛ " ولقد اعتنقت دين محمد على . " وقد تسبب ذلك الخطأ الفاضح فى إحداث موجة من الضحك بين الحاضرين ؛ ورد الباشا من خلال مترجمه (إذ إنه لم يكن يفهم من العربية سوى القليل) ، أتمنى أن تكون دوما كافرا عتيدا ."

مع ذلك ، بقى الباشا ، هو وكبار ضباطه جاهلين تماما بقوة ، ومصالح التاريخ الخاص بكل قبيلة من القبائل المحيطة بهم ، ولم يكونوا على علم بالأراضى التى تعيش فيها تلك القبائل ؛ الأمر الذى جعل البدو لا يثقون تماما بالإجراءات التى يتخذها حليفهم الجديد . ومع ذلك كان نفوذ الباشا يتزايد يوما بعد يوم . استشعر الوهابيون مسألة بعثرة الباشا السخية للدولارات على المحيطين به ؛ وعلى الرغم من أنى أشك فى مسألة ارتباط البدو ارتباطا أمينا بقضيتهم ، فإن البعض منهم تظاهر بذلك ؛ أو ابتعدوا عن معاداة الرجل فى أضعف الأحوال ، أملا فى المشاركة فى ذلك السخاء الدولارى . ووصل الأمر إلى حد أن الشريف راجح ، الذى تبوأ دور القيادة وصل به الأمر إلى حد تمييز نفسه فى الجانب الوهابى ، وبخاصة أثناء هجوم طوسون باشا على تربة ، وبدأ فى تقديم مقترحات فى ذلك الوقت توحى بالعودة إلى محمد على ، وذلك من منطلق أنه أصبح لديه من الأسباب ما يدعوه إلى الغضب والاستياء من إخوانه الشيوخ .

عند هذا الحد راح الباشا يؤكد أن الشريف غالب هو الشخصية الوحيدة الكريهة من بين رئاسات الحجاز ، واستطاع الشريف راجح بدوره أن يثبت بوضوح تام أن

تخليه عن قضية الباشا إنما كان بسبب تخوفه من أن يئول إلى المصير نفسه الذى آل إليه الشريف غالب . جاء الشريف راجح إلى الطائف فى شهر سبتمبر ، واستقبله محمد على استقبالا بشوشا ، وعينه رئيسا للجنود البدو .

وعلى الرغم من سياسة المهادنة التى انتهجها محمد على فى اتصالاته بالبدو ، إلا أنه بذل كل ما فى وسعه سعيا إلى التصالح مع سكان الحجاز . ولذلك قام بإلغاء الكثير من الرسوم الصغيرة التى سبق أن فرضها الشريف على الناس ؛ كما قلل من الرسوم الجمركية المفروضة على المحتاجين والفقراء ، كما وزعت أيضا كميات كبيرة من القمح . يزاد على ذلك أن العلماء ، وأولئك الذين يشغلون وظائف فى المساجد ، وفى المدارس كانوا يحصلون أيضا على هدايا وعطايا من محمد على ؛ وجرى ترميم الأماكن المقدسة فى مكة ، وطوال مقام محمد على فى القاهرة لم يكلف نفسه مشقة إخفاء مبادئه التشككية أو إن شئت فقل الإلحادية . وصدرت الأوامر للجنود الأتراك بالابتعاد عن استعمال لغة السب واللعن مع المواطنين ؛ بل إن الأمر وصل إلى حد معاقبة هؤلاء الذين يأتون أعمالا من قبيل الأعمال والتصرفات التى كانوا يأتونها فى مصر . لم يكن مسموحا لأى من الجنود أن يأخذ الأشياء عنوة ، أو بنصف ثمنها من السوق ؛ وأن الأمر عندما كان يرفع إلى الباشا، أو أحد ضباطه كانوا يقفون دوما فى جانب المواطنين . من هنا بدأ تحامل العرب على الأجانب يقل تدريجيا ، وذاع صيت الباشا فى مسألتى العدل والإحسان ؛ وهاتان الصفتان لم يعرفهما محمد على أو ضباطه فى مصر .

فى شهر مايو من العام ١٨١٤ الميلادى ، توفى سعود ، بسبب مرض الحمى الذى كان يتوطن فى نجد . وبذلك خسر الوهابيون زعيما لم يكن يكل أو يمل ، وكان يمتلك المواهب اللازمة لذلك الموقع الرفيع الذى كان يشغله . يقال إن آخر كلمات سعود كانت موجهة لولده عبد الله ، إذ كان ينصحه قائلا : " إياك والاشتباك مع الأتراك فى سهول مفتوحة " هذا المبدأ لو جرى الالتزام به التزامًا تاما كان يمكن أن يضمن لأتباع سعود استعادة الحجاز . وهنا أصبح عبد الله - ولد سعود الأكبر ، والذى بايعه كبار شيوخ الوهابيين ووعدوه بالطاعة والولاء يوم أن كان والده سعود على قيد

الحياة – وارثا للسلطة الأعلى . نشأت بالرغم من ذلك بعض الخلافات . كان لسعود أشقاء عدة طالبوا بجزء من كنوز والدهم وثرواته ، وكان من بين هؤلاء الأشقاء رجل يدعى عبد الله ، وكان يسانده عدد كبير من علماء الدرعية . لكن عبد الله بن سعود ، أصبح هو الوهابى الكبير بعد شىء من المشاحنات التى لم تدم طويلا . فيما يتصل بالشجاعة والمهارة فى الحرب نجد أن صيت عبد الله فى هذين الأمرين فاق صيت والده سعود ؛ لكن عبد الله بن سعود ، لم يكن يعرف كيف يدير مصالح القبائل الخاضعة له ، من الناحية السياسية ، الأمر الذى حدا بكبار شيوخ هذه القبائل إلى النزوع إلى الاستقلال . وقد أسفر ذلك عن الأضرار بالقوة العامة . وهنا أصبح الوهابيون الجنوبيون ، الذين زاد عليهم الهجوم فى ذلك الوقت ، لا يحصلون على عون أو مساعدات من قبائل الشمال ، التى يمكن لخيالتها تقديم المساعدة الفاعلة لهم . يزاد على ذلك أن شيوخ الجنوب بدأوا يختلفون مع بعضهم البعض ، وتعين على الباشا الدخول فى صراع مع القبائل منفصلة ، وليس ضد مجموعة متحدة من القبائل . هذا الافتقار إلى الوحدة ، يمكن أن يعزى إلى استهانة الوهابيين بأعدائهم الأتراك .

توزع القوات التركية فى الحجاز – مذبحة بحرة – محمد على يوفد ولده طوسون باشا إلى المدينة المنورة – هزيمة الوهابيين للأتراك فى الظهران – تحرك محمد على من مكة فى اتجاه بيسيل – هزيمة الوهابيين فى بيسيل .

كانت قوات الباشا فى شهر سبتمبر من العام ١٨١٤ الميلادى موزعة على النحو التالى : – حوالى مائتى جندى كانوا تحت إمرة إبراهيم أغا الموهير دار حامل أختام محمد على فى مكة ، والتى كانت تتكون من مائة وخمسين جنديا من العرب تحت إمرة الشريف يحيى ، وكان هناك فى المدينة (المنورة) عدد يتراوح بين ثلاثمائة وأربعمائة جندى تحت إمرة ديفان أفندى ؛ أما حامية ينبع فكانت مكونة من حوالى

مائة جندى ، وكان هناك مائتا جندى آخـرين فى جدة . وكان طـوسون باشـا ومعـه ثلاثمائة وخمـسين جنـديا مخيمـا فى المسـافة ما بين ينبع والمدينـة (المنـورة) . أما محمـد على باشـا فكان لديه ثلاثمائة من الأتراك ، كان من بينهم مائة رجل من الخـيالة . وكان حـسان باشا يتولى قيادة موقـع كولاك (ويصح فيه أيضا " كولاش ") الذى كـان يضـم ألف رجل من الجنود الأرناءوط ؛ أمـا عـابدين بك ، شـقيق حسـان باشـا ، فكان يتولى قيادة مواقع الجيش المتقدمة ، التى كانت تضم ألفا ومائتين من الجنود الأرناءوط ، وأربعمائة من الخيالة ، الذين كانوا قد وصلوا من القاهرة منذ فترة وجيزة . هذه المواقع المتقدمة جرى دفعها إلى الأمام على بعد مسافة تقدر بمسير ثلاثة أيام أو أربعة أيام فى اتجاه جنوب الطائف ، داخل أراضى قبيلة بنى الناصرة ، وفى اتجـاه منطقة الظهران التى كان فيها الشيخ باخروج شيخ عرب غامد العدو اللدود للأتراك . بنو غـامد هـؤلاء كانت لهم ميـزة مـفادها أنـهم يعيـشـون فى منطقة خصبة ، تدر عليهم ما يكفيهم من القمح والشعير : وبذلك أمكن لهم الاستغناء عن مخازن الطائف .

هذه القوات سالفة الذكر قد تبدو للقارئ غير ذات قيمة ؛ لكنى أرى وواثق مما أراه أن هذه القوات كانت تقدر بأكثر من قيمتها وليس بأقل من قيمتها . ونقلا عن تقارير الأتراك وبلاغاتهم ، فإن الباشا نفسه كان تحت إمرته حوالى عشرين ألف رجل . العدد الكبير من الشاردين الذين يخدمون الجيش التركى ؛ والعدد الكبير من التجار الأتراك والحجـاج الأتراك أيضـا المبـعثرين فى سـائر أنـحاء الحـجاز ، والذين كـانوا مسئولين عن تجهيز الملابس للجنود ، الذين لا يمكن تمييزهم عنهم ؛ وهذا العدد الضخم من الصبية الذين يعملون كلافين للإبل ، وكذلك الخدم الآخرين المرافقين للجيش – كل هؤلاء ساعدوا على تضخيم العدد الظاهرى للجيش ؛ كما أن الوهابيين أنفسهم لم تكن لديهم فكرة ، أو معرفة بالعدد الحقيقى لقوة أعدائهم . كانت التدعيمات تأتى يوميا من القاهرة ، لكن هذه التدعيمات لم تكن كافية لسد النقص فى الجنود الذين أضعفهم المرض من ناحية ، والمعارك الفاشلة مع الوهابيين من ناحية أخرى .

يزاد على ذلك أن عدد قوات محمد على التى كانت فى القاهرة لم تكن تسمح بذلك الاستنزاف المترتب على الوجود فى الحجاز . وفى الوقت الذى بلغ فيه عدد القوات فى الحجاز خمسة آلاف رجل ، كان عدد القوات فى مصر لا يزيد بأى حال من الأحوال عن ستة أو سبعة آلاف رجل ؛ يضاف إلى ذلك أن الباشا كان لا يمكن أن يُنقص هذا العدد دون تعريض البلاد للهجوم ، الذى كان يخافه ويخشى أن يجىء من القسطنطينية ، أو من المماليك الموجودين فى دنقلة ، أو من إنجلترا ؛ مع التركيز على إنجلترا بصفة خاصة .

عندما ذاع فى البلدان التى كانت تزود الباشوات الأتراك بالجنود ، وبخاصة ألبانيا ، وروميليا ، وساحل آسيا الصغرى ، أن الحملة الدائرة فى الحجاز كانت تسبب الكثير من الأسى والألم للجنود العاملين فيها ، بدأ كثير من المجندين يفكرون فى عدم الحضور إلى مصر ؛ واضطر محمد على باشا اعتباراً من العام ١٨١٣ إلى الإبقاء على الضباط المجندين فى تلك البلاد ، الذين لم يستطيعوا تحقيق الهدف الذى جاءوا من أجله دون إنفاق مبالغ مالية كبيرة . وأنا شخصيا سمعت الباشا وهو يصرخ قائلا : إن جيشه مكون من ٣٥٠٠٠ جندى ؛ ٢٠٠٠٠ منهم فى الحجاز ، و ١٥٠٠٠ فى مصر ؛ هذا التصريح كان الناس ينظرون إليه على أنه صحيح بصفة عامة .

مسألة الدفاع عن المدينتين المقدستين ، وتخويف المناطق المجاورة ، لم تكن تحتاج لأكثر من أربعة أو خمسة آلاف رجل ، مع مساعدة أربعمائة جندى من البدو الذين جرى جمعهم من قبائل مختلفة ، وكان أجر الواحد منهم ضعف الأجر الذى يعطى للجندى التركى ؛ لكن هذا الجيش الكبير لم يستطع هزيمة الوهابيين ، ويبدو أن الباشا قبل أن يغادر القاهرة ، كان قد وعد سيده وعداً قاطعًا بإخضاع الوهابيين إخضاعا ما . وعلى الرغم من الجهود التى بذلها الباشا ، فإن النقص فى الإبل لم يجر سدّه ؛ يزاد على ذلك أن الطريق من الطائف إلى مكة ، ومن مكة إلى جدة بصفة خاصة كانت تنتشر عليه جثث الجمال النافقة ، إلى حد أنه بناء على طلب السكان

جرى استئجار عدد من الحجاج الزنوج الفقراء لجلب بعض الأعشاب الجافة من الجبال المجاورة : حيث كان يجرى وضع جزء من هذه الحشائش الجافة فوق جثة الجمل النافق وتحويلها إلى رماد . وبحسبة صغيرة ، نجد أنه اعتبارا من حرب العام ١٨١١ وصل عدد الإبل النافقة التابعة للجيش إلى ثلاثين ألف جمل فى الحجاز، وقلة قليلة من تلك الإبل هى التى بقيت فى مصر ؛ لكن حركة نقل المؤن والتموينات من قنا إلى القصير ، ومن القاهرة إلى السويس ، كانت تتطلب عددا كبيرا من الإبل ، مما أدى إلى صعوبة توفير الأعداد المطلوبة من الإبل للعمل العسكرى فى الحجاز . كان الباشا قد أوفد ضابطا إلى دمشق ، على أمل شراء إبل من البدو السوريين . كان ينتظر وصول تلك الإبل إلى مكة مع قافلة الحج التالية ؛ وبذل إبراهيم باشا كل ما فى وسعه لشراء أكبر عدد ممكن من الإبل من البدو الليبيين ، وكان مقررا إرسال أكبر عدد من تلك الإبل إلى الحجاز مع قافلة الحج أيضا .

جرى اللجوء إلى الإجراءات الدفاعية لحين وصول الإبل ودعم استئجار حوالى خمسمائة جمل من عرب حرب لاستعمالها فى نقل المؤن والتموينات من جدة إلى الطائف ؛ لكن أصحاب هذه الإبل كانوا يرفضون التقدم ولو خطوة فى اتجاه الشرق أو الجنوب ، مخافة استيلاء الوهابيين على إبلهم . وقد علمت من مصدر وثيق فى الطائف أن حاميتها لم يكن لديها من المؤن أو التموينات سوى ما يكفيها عشرة أيام فقط ؛ وأن متاعب هذه الحامية تزايدت بعد بضعة أسابيع إلى حد أن القمح الذى جلبته القبائل جرى توزيعه فور وصوله ، ولم يتم وضعه فى المخازن . وفى المواقع المتقدمة فى كولاك وفى الظهران لم يكن لدى القوات وسائل لطحن القمح ؛ لكن كل جندى من الجنود كان يتسلم يوميا كمية من القمح ، وكان مجبرا على طحن هذا القمح بين الأحجار ، ثم خبزه لنفسه على الجمر المتخلف من النار .

فى ذات الوقت ، كان الوهابيون يقومون بإغارات متكررة فى اتجاه الطائف ، وعلى القبائل التى انضمت إلى محمد على باشا ؛ والتى كانت هى الأخرى تقوم بمداهمة مناطق العدو ، عن طريق خيالة محمد على الذين كان يجرى إيفادهم فى هذه

المهمات على شكل مجموعات صغيرة . لقد قام الشريف ، هو وأعرابه ، في أغسطس من العام ١٨١٤ الميلادى) بحملة على الجبال الموجودة فى اتجاه القنفذة ، وعاد ومعه غنيمة قيمة من الإبل والأغنام . وما أن عاد الشريف يحيى إلى مكة ، حتى ثأر تامى لنفسه ، بأن أرسل مجموعة مكونة من ستمائة جمَّال من قبائل القحطان فى اتجاه جدة . وأنا شخصيا تمكنت من الهروب من تلك الجماعة . وبعد أن تمكنا من السفر من مكة إلى جدة ضمن قافلة صغيرة من الإبل ، وصلنا عند منتصف الليل إلى مسقى بحرة ، الذى يقع فى منتصف الطريق بين جدة ومكة ، حيث كانت هناك حامية صغيرة جرى وضعها فى بحرة حتى هجم عليها الوهابيون . وقد تناهت إلى مسامعنا أصوات طلقات البنادق ، وعلمنا فيما بعد ، أن الغزاة ذبحوا كل السكان الذين وجدوهم فى بحرة ، وسلبوا ونهبوا المخيم كله ، واستولوا على الأمتعة كما استولوا أيضا على قافلة صغيرة ، كانت قد توقفت فى بحرة قبل أن نصل نحن إليها . طوال هذه الفترة لم يبد الخيالة الثمانون أية مقاومة ، لكنهم راحوا يعدون بخيولهم فى اتجاه مكة ، حيث نشروا الرعب والفزع بين الناس .

وهنا توقف الاتصال بين جدة ومكة قرابة أسبوع كامل ؛ لكن الوهابيين بعد أن حققوا هدفهم انسحبوا إلى مواطنهم . هذا يعنى أنهم قد قطعوا مسافة لا تقل عن مسير خمسة عشر يوما لتخريب هذا الطريق وسلبه ونهبه ؛ يزاد على ذلك أن معرفة الوهابيين الدقيقة بالبلاد مكنتهم من سلوك الطريق الذى جعلهم يفاجئون ضحيتهم . البدو يتفوقون تماما فى هذا النوع من العمليات الحربية ؛ ونجاح الوهابيين الساحق فى هذه العمليات هو الذى بث الرعب فى نفوس الجنود الأتراك أكثر مما لو خسروا معركة من المعارك النظامية ؛ والسبب فى ذلك أن الأتراك لم يشعروا قط بالأمان، ولو للحظة واحدة ، عندما كانوا يبعدون عن كردونات المدن .

اعتبارا من الاستيلاء على المدينة (المنورة) ، بقيت القوات التركية فيها خاملة تماما وبلا أى نشاط ، والسبب فى ذلك أن المؤن والتموينات التى كانت ترسل من ينبع إلى هذه القوات ، لم تكن كافية للوفاء باحتياجات تلك القوات اليومية ، ومعهم أهل

المدينة نفسها . وحافظت قبيلة حرب على وفاقها مع الأتراك : يضاف إلى ذلك أن الجيزى شيخ قبيلة حرب ، الذى ساعد على احتلال المكان ، كان قد سافر فى شهر يونيو من العام ١٨١٤ الميلادى ، فى مهمة لمقابلة ديوان أفندى الذى كان يتولى القيادة هناك (أى فى المدينة المنورة) . حدث ذات مرة أن كان الجيزى جالسا مع ديوان أفندى وقت انعقاد المجلس ، وعندما لم يطق تحمل التباهى والتعالى التركى ، تعجب الرجل ، على مرأى ومسمع من كل الحاضرين وهو يقول : " اسكت يا ديوان أفندى ، لأن الكل هنا يعرفون أننى مهدت الطريق أمامك لدخول هذه المدينة؛ ولولا هذه الشفرة (ثم وضع يده على سيفه) ، لما تجرأ تركى على دخول المدينة (المنورة)". فغضب القائد التركى بسبب هذا الرد ، ولعن الجيزى وسبّه بأقذع الشتائم والسباب ، وطلب تقييده بالأغلال والسلاسل وضربه ؛ وفى اليوم التالى أُبلغ أنه قتل نفسه فى السجن ، وجرى العمل على تقديم أدلة عديدة عن وجود علاقة خائنة بينه وبين الوهابيين . النتائج التى ترتبت على هذا الحادث كان بالإمكان توقعها ، فعندما علم بنو حرب بقتل شيخهم قاموا بغلق الطريق المار عبر جبالهم فى وجه القوافل القادمة من ينبع ؛ ودون أن ينضم بنو حرب إلى الوهابيين راحوا يقومون بغارات جزئية على المواقع التركية المتقدمة .

لقد تطلع محمد على باشا إلى تسوية تلك الاضطرابات ، ولذلك أمر ولده طوسون باشا ، فى شهر أغسطس من العام ١٨١٤) بالتقدم صوب المدينة (المنورة) . ووصل طوسون إلى بلدة بدر فى شهر سبتمبر ، واكتشف أن عرب قبيلة حرب وضعوا حامية قوية على شعب (ممر) الجديدة ، وكانوا مصممين على منع دخوله بالقوة . وجاهروا بالقصاص من ديوان أفندى ، فداء لقتل شيخهم . ومن حسن الطالع أن توفى ديوان أفندى فى ذلك الوقت ، وهناك شكوك كبيرة حول وفاته مسموما ، وهنا أصبح عرب بنى حرب أكثر ميلا للمصالحة . وقد حصل شيخهم الجديد هو وصغار الشيوخ على هدايا قيمة ؛ وجرى دفع دية الجيزى لأقاربه ، وذلك من باب الالتزام بالعرف البدوى ، وهنا أبرم صلح جديد مع بنى حرب . بعد أن تجاوز طوسون باشا الشّعب وصل إلى

المدينة المنورة فى شهر أكتوبر من العام ١٨١٤ ، ومعه حوالى ثلاثمائة جندى مشاة وحوالى خمسمائة حصان ؛ كان القسم الأكبر من هذه الخيول قد وصل من القاهرة منذ فترة وجيزة . وهنا اتخذ الخيالة لأنفسهم موقعا يبعد عن المدينة المنورة مسير يومين أو ثلاثة ، وبالذات فى "الحناكية" ، التى راحوا يشنون منها هجمات عدة فى اتجاه القبائل الوهابية الشمالية .

فى هذا الوقت تقريبا ، بدأت أحوال الأتراك وشئونهم تتحسن فى سائر أنحاء الحجاز ؛ وترعرعت الآمال ، فى أنه بعد وصول التدعيمات اللازمة من الرجال ومن الإبل ، والمنتظر وصولها مع قافلة الحج ، سيقوم الباشا شخصيا بحملة كبيرة ضد الأعداء ؛ وفى الوقت الذى نجد فيه أن الهزيمة الثانية قللت من تفاخر الأتراك وكبريائهم ، نجد أنهم على الرغم من جبنهم ، وعلى الرغم أيضا من فشلهم فى الحرب ، فهم لم يتخلوا مطلقا عما كان يدور فى أذهانهم . وآية ذلك تتجلى حسبما سبق أن قلت ، فى قيام عابدين بك ، مع جنوده الأرناءوط باحتلال بعض الأجزاء فى منطقة زهران ، جنوبى الطائف . ومن باب منع الهجمات اليومية من جانب أعدائه ، قام الرجل بتخريب البلاد ، لمسافة أربعين ميلا ، ودمر كل ما يصلح أو يخدم مرور القوات . كان عابدين بك مخيما على جانب من هذه الصحراء ، فى حين كان باخروج متخذا لنفسه ولقواته مواقع على الجانب الآخر (أى الجانب الجنوبى) من تلك الصحراء . وفى ضوء الإهمال التركى المعتاد من جانب القادة الأتراك ، لم يجر عمل الخنادق أو التحصينات المطلوبة ، ولم يجر دفع مواقع متقدمة ، أو وضع حراسة فى اتجاه العدو ؛ الذى تمكن قائده من مفاجأة الأتراك بفضل قوته الخاصة ، وبفضل قبائل عدة من القبائل المتحالفة ، وبفضل قوة قوية من جنود المشاة شارك بها تامى فى ذلك الهجوم . قام باخروج ذات يوم من أيام شهر سبتمبر فى الصباح الباكر بالهجوم على جنود الأرناءوط وهم نيام ، وقد أخذتهم المفاجأة فلم يستخدموا نيران أسلحتهم ، وإنما سارعوا إلى التخلى عن المعسكر والمخيم بكل ما فيه . ولم تكن هناك سوى مقاومة صغيرة قام بها حوالى مائة جندى من جنود روميليا ، بقيادة ماهو بك ، أنشط

رؤساء الباشا في الحجاز ؛ لكن هذه القوة لم تستطع الصمود أمام قوة كبيرة وساحقة من الوهابيين ؛ ويرجع الفضل في عدم تدمير الجيش بكامله إلى سلاح الخيالة بقيادة الرئيس السوري ، المدعو حسين بك، الذي غطى انسحاب الجيش ، الذي طارده باخروج على امتداد يومين . وبذلك فقد الأتراك من جديد خيامهم ، ومدفعياتهم ، وأمتعتهم ، ومؤنهم وتموييناتهم : وقتل في ذلك الهجوم ثمانمائة جندي تركي من جنود المشاة ، كما قتل أيضا ثمانون خيالا ؛ ولم يتمكن الأتراك أو يجرؤوا على اتخاذ موقع لهم قبل وصول بقية الجيش إلى "ليه"(التي تبعد عن الطائف مسافة مسير أربع ساعات) . عند هذه المرحلة تلقى عابدين بك تدعيمات وصلت إليه من الطائف وكولاك ؛ ولما ذاع خبر عودة العرب إلى مواطنهم ، تقدم عابدين بك مرة ثانية بأوامر من الباشا ، في اتجاه زهران . لكن الرعب كان قد تملك القوات التركية ، إلى حد أن نصف هذه القوات ، كانوا قد هجروا المكان ، وعادوا إلى الطائف ؛ وهنا اضطر عابدين بك إلى إقامة مركز رئاسته على بعد مسافة قصيرة أمام "ليه" وكان المركز يعاني من نقص في الرجال .

كان لهذه الهزيمة الأخيرة آثار مؤلمة في نفوس هذه القوات ، وعلى روحها المعنوية ، فقد ذاع صيت عابدين بك منذ ذلك الحين ذيوعا كبيرا بفضل شجاعته ومهارته ، يضاف إلى ذلك أن قوات عابدين بك كانت أحسن قوات الجيش كله ؛ ومع ذلك ، أقنعت الهزائم الأخيرة التي حلت بالأتراك ، قوات وجنود عابدين بك ، التي فترت همتها القتالية مؤخرا - بأن الاستمرار في مقاومة هذه الأعدد الهائلة من الوهابيين أمر لا طائل من ورائه ، يزاد على ذلك ، أن الأتراك جميعهم كانوا يتمنون العودة سالمين إلى مصر . ونظرا لأن الأتراك يعرفون جيداً - وأفضل من أي شعب - آخر " معنى الخسارة " ، فقد راحوا يحولون الهزيمة الأخيرة إلى انتصار ، نظرا لأن الخيالة أحضروا معهم ستين رأسا من رؤوس الوهابيين ليضعوها أمام الباشا في الطائف ؛ وفي الوقت الذي كان الجيش التركي يرتعد خوفا داخل أسوار مدينة الطائف ، راحت المدافع تطلق داناتها في جدة إعلانا عن النصر ؛ وأضيئت القاهرة أيضا لمدة ثلاثة أيام ، احتفالا بالحملة الناجحة التي قادها عابدين بك .

وصل من القاهرة بعد ذلك الحادث مباشرة دعم معقول من الخيالة ، فقد جرى سحب الخيالة البدو الذين كانوا يخيمون فى فصل الصيف فى المنطقة المجاورة لوادى النيل ، وهؤلاء الخيالة كانوا من بدو القبائل الليبية ، وجرى إرسال ثمانمائة من هؤلاء الخيالة البدو إلى الحجاز . هؤلاء البدو ، بحكم بداوتهم ، كانوا يعرفون منظومة الحرب السائدة بين الوهابيين ، إضافة إلى أن خيول هؤلاء البدو كانت معتادة على التعب مثل الخيالة تماما ، يزاد على ذلك، أن كل خيال كان يصحب معه جملا ، يحمل المؤن والتموينات أثناء الحملات البعيدة . انضم نصف هذا العدد من الخيالة إلى طوسون باشا وهو فى طريقه إلى المدينة المنورة ، فى حين تقدم النصف الثانى صوب الطائف ، وما إن وصلوا إلى الطائف حتى أثبتوا تميزهم الجرئ ضد القبائل الوهابية ، التى اتخذت لنفسها مواقع تبعد عن تربة مسير أيام عدة فى اتجاه الشرق ، وكان هؤلاء البدو قد تم إرشادهم بواسطة بدو هذه الأراضى الوهابية . كان البدو الذين جاء بهم محمد على مسلحين بالبنادق والمسدسات ، كما كانوا ذائعى الصيت باعتبارهم رماة مهرة ؛ كل هذه المزايا جعلتهم شديدى البأس على أعدائهم . فى طلعة من الطلعات التى قام بها هؤلاء الخيالة البدويين ، عادوا منها ومعهم ثمانية آلاف رأس من الغنم، استولوا عليها من معسكر من معسكرات الوهابيين .

وصلت فى شهر نوفمبر قافلتا الحج المصرية والسورية . وجاء ثلاثة آلاف جمل بصحبة قافلة الحج السورية ، وكان محمد على قد اشترى هذه الإبل من البدو السوريين ، وكان طوسون باشا قد استولى ، فى المدينة (المنورة) على ألف جمل ، من القوافل العابرة ، استخدم منها أربعمائة جمل فى سد العجز ، الذى بدأت تشتد وطأته فى المدينة المنورة ، مثلما هو حادث فى الأجزاء الجنوبية من الحجاز . كانت القافلة المصرية هى الأخرى قد جلبت معها ألفين وخمسمائة جمل ، إضافة إلى دعم من الخيالة يقدر بحوالى ألف خيال تركى . ولما كانت كل هذه الإبل ، وكل هذه الخيول ستستخدم فى أغراض عسكرية ، فقد جرى احتجاز القافلة كلها فى مكة ، وعاد المحمل بعد انتهاء موسم الحج ، عن طريق البحر إلى السويس . هذه القافلة كانت

كلها مكونة من جنود ، أو موظفين عموميين ؛ وصدرت الأوامر للحجاج بالعودة عن طريق البحر .

نزل الباشا من الطائف للمشاركة فى فريضة الحج ، ولكى يلتقى مع سليمان باشا دمشق ، الذى جاء برفقة قافلة الحج السورية ، وكانت زوجة محمد على باشا المفضلة ، أم طوسون ، قد جاءت بطريق البحر لأداء فريضة الحج ، وكانت حاشيتها توحى بالعظمة والثراء بحكم ثراء مصر فى ذلك الوقت ، وقام أربعمائة جمل بنقل أمتعة أم طوسون من جدة إلى مكة ، ونصبت خيمتها على سطح جبل عرفات ؛ وكان حجم وعظمة هذه الخيمة على نحو يذكرنا بالحكايات الخرافية التى تتردد فى ليالى ألف ليلة وليلة . كانت شخصيات متعددة رفيعة المقام قد جاءت من إسطنبول لزيارة الكعبة ؛ وكان حج ذلك العام ، يقدر بحوالى ثمانين ألف حاج من مختلف البلدان . لقد جرى العرف أن تبقى القافلة السورية ، بعد الانتهاء من الحج ، بضعة أيام قلائل فى مكة . لكن محمد على مد إقامة هذه القافلة عشرة أيام أخرى بعد المدة المسموح بها، بأن طالب باستعمال إبل القافلة كلها (ما يزيد على اثنى عشر ألف جمل) فى نقل المؤن والتموينات بين جدة ومكة لقواته .

بعد أن قام محمد على باشا بتجميع قوته الفاعلة كلها فيما بين مكة والطائف ، وعندما بدأت أحوال مخازنه وعدد معسكراته يوحيان له بآمال النجاح ضد العدو ، أعلن عن نيته أن يكون على رأس الحملة ، أو بالأحرى على رأس الجيش ، الأمر الذى أدى إلى رفع الروح المعنوية للقوات . وتحددت تربة هدفا أول للهجوم ، يزاد على ذلك أن اثنى عشرة قطعة من مدفعية الميدان جيدة التصويب ، ولّدت لدى الجنود اعتقاداً مفاده أن أسوار تربة لن تقوم لها قائمة ، ولن يطلب لأى جندى تسلق السور مثلما حدث عندما قام طوسون باشا بالهجوم على تربة ، وجرى تجهيز خمسمائة بلطة (فأس) لقطع أشجار النخيل ، التى كانت تعوق التحرك صوب تربة ، وجرى أيضا اصطحاب عشرين بناءً، وعدد كبير من النجارين لبث لغم يجرى به تفجير العدو على الفور . ومن باب طمأنة الجنود على الانتصار ، جرى إحضار حمولة جمل من بذور

البطيخ من وادى فاطمة ، وجرى استعراض ذلك الجمل فى سائر مكة ؛ ليتم زرع هذه البذور فى المكان الذى كانت تربة مقامة عليه قبل الانتصار . لكن هذه التجهيزات زادت – بدلا من أن تقلل – من مخاوف الجنود لأن هذه الاستعدادات توضح مدى الأهمية المعلقة على الاستيلاء على تلك البلدة (تربة) ، كما توضح أيضا الصعوبة التى ستكون عليها هذه الحملة .

ضحك العدو عندما قيل : إن محمد على أعد العدة للاستيلاء على تربة ؛ فى هذا الوقت تلقى الباشا رسالة من الشيخ باخروج مكتوبة بأسلوب ساخر ينطوى على التوبيخ ، الذى توجد له أمثلة كثيرة فى تاريخ الجزيرة العربية ، قال باخروج لمحمد على إن لديه براهين كافية على ما يمكن أن يقوم به الوهابيون؛ وإنه إن أراد الدخول فى معارك ضد الوهابيين فإن ذلك يحتم عليه تدبير قوات أفضل من القوات التى تحت قيادته حاليا ؛ ومن الأفضل له أن يعود إلى مصر ، ويغمس نفسه فى ماء النيل العذب . وقد كفَّر باخروج ، كما سنرى فيما بعد ، عن هذه الإهانة التى وجهها للباشا بأن مات ميتة شنيعة .

من باب تشجيع الجيش ، جرى إلقاء القبض على ثلاثة عشر بدوى من بدو قبيلة عتيبة ، على طريق جدة ، اتهموا بأنهم لصوص وهابيون (على الرغم من أنه اتضح بعد ذلك ، أنهم كانوا فى جدة لشراء بعض التموينات والمؤن ،) وجرى إعدامهم فى أرض منبسطة بالقرب من مكة ، أمام حشد كبير من الناس . قام واحد من هؤلاء العتبان – فور فك القيود من يديه قبيل قتله ، وعندما كان أحد الجنود الأتراك يستعد لتوجيه ضربة قاتله إليه – قام الرجل بطرحه أرضا ، وهرب وسط الجماهير . كان بوسع هذا الرجل إنقاذ حياته ، لو أنه لاذ بالفرار بين الجبال ، بدلا من مواصلة الجرى عبر السهل ، الذى جرى الإمساك به فيه ، لكن حاجا تركيا تصادف أن كان راكبا حصانه فى السهل ، جرى خلف الرجل وصرعه وجعله عاجزا . فى هذه المناسبة كشفت الطبقات الدنيا من المواطنين عن استيائها من الأتراك ؛ وراح أفراد تلك الطبقات يتهامسون علانية ويلعنون الجنود ، الذين أعدموا هؤلاء الضحايا التعساء

وراح الناس يشجعون الهارب على الهرب ، فكانوا يطلقون صيحاتهم التى توحى بالفرح والثناء ؛ ثم أخذوا يلعنون ويسبون الحاج الذى ألقى القبض على الرجل بأقذع السباب والشتائم .

بعد اكتمال التجهيزات المطلوبة للمعركة ، التى ستحدد مصير الحملة كلها ، غادر أحمد بونابرت ومعه القسم الأكبر من جنود المشاة فى اليوم الخامس عشر من شهر ديسمبر من العام ١٨١٥ ، وتقدم على الفور صوب كولاك ، كان الباشا ينتوى أن يتبعه ومعه حوالى ألف ومائتا خيال فى اليوم الرابع والعشرين من شهر ديسمبر ؛ ولكن وصلته معلومات استخباراتية مفادها أن قوة وهابية كبيرة شوهدت فى المنطقة المجاورة للقنفذة متجهة نحو جدة . وتسبب ذلك التقرير فى إحداث الكثير من الذعر ، وأرسلت على الفور الكشافة البدويين لجمع المعلومات ؛ وعم فى جدة اضطراب كبير ، إذ كان من المنتظر ، فى حال عدم هجوم الوهابيين على جدة ، أن يقوموا بقطع الطريقة إلى بمكة . وبقى الماء شحيحا طوال فترة طويلة فى جدة ؛ وجرى ملء الخزانات الحكومية على الفور بناء على أوامر قسرية ؛ وراح سكان المدينة يجلبون كميات الماء القليلة من آبار تبعد مسافة مسير ثلاث ساعات ، وارتفعت أسعار التموينات على اختلاف أنواعها فى مكة بنسبة ثلاثين فى المائة بناء على الشائعة الأولى ؛ لكن الناس أفاقوا من الرعب الذى أصابهم ، عندما علموا أن جماعة صغيرة من رجال تامى قامت بنصب خيامها بالقرب من القنفذة .

بعد ذلك بأيام قلائل ، وصلت أخبار مفادها أن باخروج قام باعتداء داخل أراضى عرب نصيرة ضد حلفاء الباشا، وأنه سلب قرية بجيل ونهبها تماما ، ومعروف أن هذه القرية هى المعقل الرئيسى لعرب النصيرة ؛ وكان محمد على قد وضع حامية من الأرناءوط فى تلك القرية . هذه القرية كانت فى وقت من الأوقات مركز رئاسة لعابدين بك ، كما وصلت أيضا أنباء مفادها ، أن تربة كانت فى حالة استعداد تام ، وأن التدعيمات كانت تنهال عليها من جميع الجهات ، للدفاع عنها ضد الهجوم المحتمل .

فـي اليوم السـادس والعشـرين من شـهر المحرم من العام ١٢٣٠ الهـجرى (الموافق لليوم السـابع من شهر يناير من العام ١٨١٥ ،) تحرك محمد على باشا من مكة ومعه كل القوات ، وكل الإبل التى استطاع توفيرها ، فى اتجاه بلدة كولاك التى تجمع فيـها كل من حسّان باشـا ، وعـابدين بك ، ومـاهو بك ، وأحـمد بونابرت ، وتويوس أوجلو ، والشـريف راجح ، وبعض آخـر من قـادة الجيش ، وكـان قد جـرى تخزين مؤن وتموينات تكفى مدة خمسين أو ستين يوما ، وعندما وصل محمد على إلى زيمة (المحطة الثانية على الطريق الشمالى من مكة إلى الطائف) ومن بعدها كولاك ، تلقى معلومات استخباراتية أن قوة من العدو استولت على بلدة "بيسّيل" الواقعة بين الطائف وكولاك ، مما أدى إلى قطع الاتصـال بين هذين المكانين ، وأن قـوة أخرى من قوات العدو قد شنت هجوما فى اتجاه الشرق على بدو عتيبة ، حلفاء الأتراك . وسارع محمد على بالتحـرك صوب كـولاك ، ليـصلها يوم الأربعـاء ، وأرسل الشـريف راغب وجنوده البدو ، والخيالة الليبيين لمساندة العتبان وتقدم هو بنفسه يوم الخميس ومعه خيـالته كلهم فى اتجـاه بيسـيل ، ووجد مـحمد على الوهابيين مخـيمين على جوانب الجبال المطلة على سهول كولاك . وكان الوهابيون مسيطرين على العديد من المساقى الطيبـة ، فى حين كـان الجنود الأتراك يحـملون مـعهـم المياه اللازمـة لـهم على ظهـور الإبل . وجـاءت تقديرات القـوات الوهابيـة متـبـاينة ؛ أفـضل المصـادر قـالت : إن عـدد القوات الوهابية كـان يقدر بحوالى خـمسة وعشـرين ألف رجل من المشـاة ، وقلة قليلة من الخيالة . كانت الجبال فى هذه المنطقة فقيرة فى عدد الخيول ، يضاف إلى ذلك ، أن الوهابيين عندما يشتبكون فى حروب على مسافات بعيدة يقللون استعمال الخيول إلى أقل عدد ممكن ، معتمدين فى ذلك على الجمّالة بصفـة أساسـية ، وعلى جنود المشاة الذين يستعملون البنادق الفتيلية .

كان جيش الوهابيين مصحوبا بخمسة آلاف جمل ، لكنه كان يفتقر إلى المدفعية بكل أنواعـها ، كـان الجـيش يتكون من رجـال جـرى انتـقـاؤهـم من بـين الوهـابيين الجنوبيين ، وجماعة صغيرة من الوهابيين الشمـاليين ، إذ كان الوهابيون الشمـاليون

محجمين فى ذلك الوقت بفضل الاستعراضات المعادية التى يقوم بها طوسون باشا فى المدينة (المنورة) . كان شيوخ جبال اليمن كلهم ، وكذلك شيوخ السهل الجنوبى الشرقى ، كانوا كلهم مع الجيش الوهابى ، شأنهم فى ذلك شأن فيصل ولد سعود ، وشقيق الرئيس (الشيخ) الوهابى الحالى . كان تامى من بين شيوخ الجنوب ، وتامى هو شيخ عرب عسير ، ومن بين شيوخ الجنوب أيضا ، كان هناك ابن ملحة العقيد ، أو إن شئت فقل : شيخ الحرب فى قبيلة عسير ، يتقدم الصفوف الأولى ؛ يضاف إلى ذلك إن ثلث الجيش كان مكونا من عرب عسير ؛ وكان هناك أيضا ابن كتنان شيخ عرب سبيعة، وابن خورشان شيخ تربة ، وابن شكبان شيخ بيشة وباخروج شيخ عرب غامد وظهران ، وابن دحمان شيخ عرب شمران ، وابن كتامل وهو شيخ لجزء من قبيلة عتيبة ، الذى ظل متمسكا بولائه للمصلحة الوهابية ؛ وابن ماهى شيخ من شيوخ عرب الدواسر ، الذى كان يعيش فى منطقة قصية فى الجنوب الشرقى ، فى اتجاه حضر موت ، وكان هناك قادة وزعماء أقوياء يقودون أيضا فرقا من ذلك الجيش . والوهابيون عندما تحولوا ناحية القنفذة للهجوم عليها ، كانوا يرمون من وراء ذلك إلى تشتيت انتباه الباشا عن هدف الهجوم الرئيسى ، الأمر الذى يجعلهم يهجمون فجأة على بيسيل، التى احتلوا فيها مكانا مهما فى وسط الخطوط التركية . وعندما وصلت خيالة الباشا ، بقى الوهابيون فوق الجبال ، وصدوا هجوما على واد من الوديان التى كان محمد على يود أن يضع فيه مدفعا من مدافعه الميدانية . وضاع يوم الخميس كله فى محاولات لا طائل من ورائها قامت بها الخيالة التركية، الذين قتل منهم فى الهجوم الأخير ما يزيد على عشرين خيالا بفعل حراب الخيالة الوهابيين .

على الرغم من القلة القليلة من الأرواح التى أزهقت فى ذلك اليوم ، فإن الأتراك دب اليأس فى نفوسهم ، وراحوا يتشككون فى مسألة النجاح ، فى حين كان الوهابيون ينعمون ويفرحون بآمال إضعافهم لقوات العدو عن طريق إنزال الهزائم المتكررة به وبقواته ، ثم تدمير هذه القوات فى نهاية المطاف . وتخوفا من هذه النتيجة، وتحسبا لها راح العديد من الجنود الأتراك ، وكذلك البدو العاملين فى خدمة الباشا

الباشا ويسارعون عائدين إلى مكة ، التى وصلوها فى مساء يوم السبت . وراح هؤلاء الجنود يذيعون فى مكة أخبار الهزيمة الكاملة ، ووفاة الباشا ، ويحكون عن كوارث ومصائب أخرى .

ولا يمكن لأحد تخيل ذلك الفزع والرعب الذى ترتب على نشر هذه الأخبار فى مكة . كنت مقيمًا فى مكة فى ذلك الوقت ، وأستطيع أن أعد نفسى شاهد عيان على ماحدث فقد بدأ كثير من الجنود الشاردين التابعين للجيش يبحثون عن أماكن تكون أكثر أمانا لهم ، كما توقع التجار الأتراك والجنود الأتراك أن يكونوا من بين الذين سيموتون عقب وصول الوهابيين المنتصرين ، ووصل ثمن نقل الجمل لشخص واحد إلى جدة مبلغ أربعمائة قرش ؛ لكن القلة القليلة من البدو الذين كانت لديهم الإبل سرحوا إبلهم فى الجبال عندما وصلتهم أنباء الهزيمة ؛ لذا غادر أناس كثيرون مكة سيرا على الأقدام فى مساء ذلك اليوم ، محاولين الوصول إلى جدة مع صباح اليوم التالى ، وانضم بعض آخر من الناس إلى الحامية الموجودة فى القلعة ولبسوا لباس البدو ، حتى لا يظنهم الوهابيون من الأتراك ؛ ولم يستعد أحد للدفاع عن المدينة ، وكان الشريف يحيى شخصيا ، وعلى الرغم من عدم تلقيه تقارير رسمية حول هذا الموضوع ، فقد استعد للهرب فجأة إلى جدة ، وفيما يتعلق بى أنا شخصيا - واقتناعا منى أن الباشا لو كان قد هزم ، لتقدمت قوات الوهابيين الخفيفة لاعتراض الهاربين على طريق جدة ، ومنعهم من الهرب - فقد خطر ببالى أن أفضل ملجأ لى سيكون المسجد الحرام ، الذى يحترمه الوهابيون باعتباره مكانا مقدسا لا يجوز المساس به . وبعد أن وضعت كل ما لدى من أشياء لها قيمة فى جوال، وأضفت إليها شيئا من تموينات وتعيينات البسكويت ، ذهبت بصحبة خادمى وجلست فى المسجد الحرام الذى وجدت فيه عددا من الحجاج يفعلون الشىء نفسه، بعد أن اتخذوا من المسجد الحرام منزلا لهم . ما معى من بسكويت ، هو وماء زمزم يمكن أن يكفينى بضعة أسابيع . مسألة أن القسم الأكبر من الأتراك لم يفعلوا الشىء نفسه تعزى إلى أحكامهم

الشخصية على الوهابيين ؛ ظنا منهم أن الجندى فى ساعة الانتصار لن يعتبر أى مكان من الأماكن محرما أو مقدسا .

لقد ثبت أن تخوفاتنا لم يكن لها أساس من الصحة ، فقد بنيناها على هزائم وهمية ؛ وبعد ليلة طويلة من القلق ، طالعتنا فى اليوم التالى البيانات الرسمية التى تفيد الهزيمة الكاملة للوهابيين المذعورين . فقد توصل محمد على ، خلال المعارك التى دارت يوم الخميس ، إلى أن احتمال النجاح أمر بعيد المنال طالما بقى العدو على الجبل ؛ وكان محمد على على علم أيضا ، أنه إذا ما فشل فى اليوم التالى فإن ذلك سوف يهدد مستقبله العملى فى كل من الحجاز ومصر إلى الأبد . لذا فقط طلب – أثناء الليل– تعزيزات من كولاك ، وأمر ألفى رجل من رجال المشاة التابعين له ومعهم المدفعية ، ليحتلوا موقعا لهم على جانب الوهابيين . وفى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى جدد محمد على الهجوم مستعملا الخيالة فى هذا الغرض ، وعندما صد الوهابيون الهجوم ، جمع محمد على ضباطه ، وطلب منهم التقدم بقواتهم وطوابيرهم مقتربين من موقع عددهم أكثر من ذى قبل ، على أن يقوموا بالانسحاب بعد إطلاق المدافع على شكل فلول مضطربة ونفذ الضباط هذه التعليمات تنفيذاً دقيقا . وعندما رأى الوهابيون أن العدو ينسحب، ويولى الأدبار ، ظنوا أن ساعة القضاء على الأتراك قد حانت ؛ ولذلك تركوا معاقلهم فوق الجبال، وراحوا يطاردون الأتراك الهاربين فى السهل ، وحدث كل شىء طبقا لما توقعه الباشا . وعندما تيقن محمد على باشا أن العدو أصبح بعيدا بما فيه الكفاية عن الجبال ، دفع خيالته ، وراح يتصدى للمطاردين ، وانتهت المعركة لصالح محمد على .

لقد اتخذت قوات محمد على أماكنها ، وهى نفس الأماكن التى كان يقاتل منها الوهابيون . وهنا انضم الشريف راجح ، إلى محمد على ، وقام بمحاصرة الوادى الذى سوف ينسحب منه الوهابيون ، الأمر الذى جعلهم يصابون بأكبر قدر من الفوضى والاضطراب ، والجنود الأتراك مؤهلون تأهيلا طيبا لمطاردة العدو المنهزم . وعندما تيقن محمد على أن العدو بدأ يولى الأدبار ، أعلن للجنود أنه سوف يعطى كل

واحد منهم ستة دولارات عن كل رأس يأتى به من رؤوس الوهابيين . وما هى إلا ساعات قلائل حتى تجمع أمامه على شكل كومة ما يقرب من خمسة آلاف رأس . وفى أحد الوديان الضيقة جرى محاصرة ألف وخمسمائة من الوهابيين الذين جرى تقطيعهم إربا . وهنا أصبحت أمتعتهم ، والقسم الأكبر من إبلهم ، فريسة وغنيمة للأتراك . وهرب تامى ومعه قلة قليلة من أتباعه .

ولقد جرى أسر حوالى ثلاثمائة أسير وهابى أحياءً ، بناء على أمر عاجل من محمد على باشا ، الذى أمر رجاله بأن يعطوهم سكنا ، باعتبارهم قلة قليلة من أفراد العدو الذين كانوا يلتمسون الرحمة . وانطلق الشريف راجح مع بعض الخيالة يطاردون الهاربين ، وانضم إليه كثير من أتباعه ، الذين كان يمكن أن يكونوا أكثر حماسا لو أن الوهابيين كانوا هم الفائزون .

لقد قاتل الباشا بنفسه فى هذه المعركة ، عندما طلب من خيالته الاستدارة والدخول فى مواجهة مع المطاردين . والفضل ينسب إلى محمد على ، وبخاصة فيما قام به فى الليلة السابقة للهجوم ، وكيف استطاع المحافظة على الروح الهجومية عند قواته التى كانت قد تخلت عن آمالها فى النجاح . لم يثبت أحد بجوار الباشا بقدر ثبات الشريف راجح ؛ الذى اعتلى صهوة فرس شهير ، وقد تسلح بحربته ، وراح يجرى بفرسه فى مقدمة الجيش وبين مقاتلى العدو ، فى اتجاه خيمة فيصل ولد سعود ، وهى أبرز الخيام فى المخيم كله ، ثم زرع حربته أمامها ، واستعمل سيفه فى الدفاع عن نفسه ضد بعض الوهابيين ، إلى أن وصل إليه أصدقاؤه وأنقذوه . وعندما مر محمد على باشا بعد ذلك على هذا المكان سأل الشريف راجح عن صاحب تلك الخيمة فرد عليه قائلا : " إنها خيمة فيصل " . فرد الباشا قائلا : " إذن ، خذها ، بكل ما فيها . " ولم يأخذ الجيش التركى أية غنائم غير الإبل . ولم يجد الشريف راجح فى خيمة فيصل سوى ألفى دولار فقط . وجرت مشاجرات كثيرة بين الجنود الأتراك وحلفائهم البدو ، الذين كانوا ينافسون الشريف راجح ، حول تقسيم الغنيمة . كان من

رأى الباشا محاباة البدو ؛ ولذلك أعطى لهم القسم الأكبر من الإبل ، وقيل إن الأتراك خسروا فى ذلك اليوم ما بين أربعمائة وخمسمائة قتيل .

السبب الرئيسى فى هزيمة الوهابيين هو نزولهم من الجبال إلى السهل ، حيث لم تكن معهم وسائل مكافحة الخيالة الأتراك ، وكان سعود فى آخر كلام له مع ولده قد حذره من مثل هذه الأمور ، ولكن الاحتقار الذى كان الوهابيون يضمرونه للأتراك والقوات التركية ، وكذلك رغبة الوهابيين فى إنهاء المعركة ، وتأمين شخص محمد على نفسه ، جعلهم يتناسون منظومة العمليات الحربية التى كانوا يعتنقونها ؛ وكذلك الدهشة التى أغرتهم عندما اكتشفوا أنهم غُلبوا على أمرهم فجأة ، كل ذلك جعلهم عاجزين عن المقاومة .

هناك بعض الطرف والنكات التى رواها الناس عن الشجاعة الفريدة التى كشف عنها الوهابيون . هذا هو ابن شكُبان ومعه حوالى مائة رجل راح يشق طريقه وسط جنود المشاة الأتراك كلهم ليولى الأدبار بعد ذلك . وهذا هو باخروج ، واحد من أشرس شيوخ الوهابيين ، قتل بيده اثنين من ضباط الباشا ؛ وعندما ضُرب حصانه بالرصاص وسقط من فوقه ، تاه بين الخيالة الأتراك إلى أن تمكن من جذب رجل وإسقاطه من فوق حصانه ، ليركب هو الحصان ويفر هاربا بطريقته الخاصة . وعُثر على مجموعات كاملة من عرب عسير على الجبال، وقد رُبطوا إلى بعضهم البعض من أرجلهم بواسطة الحبال . عندما افترق الوهابيون عن عائلاتهم كانوا جميعا قد قسموا (الطلاق) (وهذا يمين شائع بين البدو ، ويجرى الالتزام به ، راجع الجزء الأول ص ٢٧٧ النص الإنجليزى .) على ألا يهربوا أمام الأتراك ، وأن يعودوا منتصرين إذا ما تمكنوا من ذلك . وعندما فشلوا فى المعركة ، قرروا أن يمنعوا بعضهم البعض من الهرب فى أضعف الأحوال . لقد حاربوا إلى أن نفدت ذخيرتهم ، ثم جرى بعد ذلك تقطيعهم إربا إربا .

الأتراك يفرحون بالنصر - قسوة الأتراك - متاعب الأتراك أثناء التحرك من بيشة - عودة محمد على إلى مكة - عرض مقترحات السلام على عبد الله بن سعود

جرى فى الحال إيفاد مبعوثين إلى القاهرة وإلى القسطنطينية يحملون نبأ الانتصارات ؛ وعم الفرح الأتراك فى سائر أنحاء الحجاز ، واستأنفوا من جديد صلافتهم ووحشيتهم ، التى تنازلوا عنها إلى حد ما، وفى ذات الوقت نجد أن المواطنين الحجازيين ، على الرغم من سرورهم لأنهم سيأمنون غائلة وقوع هجوم وهابى جديد ، فقد حزنوا لهزيمة أهل الجزيرة العربية على يد الأتراك ، وكانت فرائصهم ترتعد للفظائع التى كان أولئك المنتصرون يرتكبونها أثناء المعركة وبعدها . يزاد على ذلك ، أن الثلاثمائة أسير، الذين دبرت لهم المساكن أمر محمد على بإرسالهم إلى مكة . وعلى طريقة الغازى التركى ، احتفل محمد على بانتصاره ، بأن أمر بوضع خمسين رجلا من الثلاثمائة على خوازيق أمام بوابات مكة ؛ كما أمر بتبييت اثنى عشر آخرين على خوازيق مماثلة، بواقع رجل واحد أمام كل مقهى من المقاهى العشرة ، وأمام كل محطة من محطات التوقف فيما بين مكة وجدة ؛ وترك هؤلاء الموتى على خوازيقهم إلى أن نهشت الكلاب والنسور لحمهم . وإذا كان الأتراك قد انشرحوا لهذه الأعمال المقززة المتغطرسة ، التى يطلقون عليها اسم الانتصار العسكرى ، فإن حلفاءهم البدو قد أعربوا وبصوت عال عن استيائهم البالغ ؛ ووصل الأمر إلى حد أن الشريف راجح احتج على ذلك لدى محمد على باشا ، لكن دون جدوى.

لقد وصل محمد على باشا بعد أربعة أيام من المعركة إلى تربة التى هرب فيصل منها عندما سمع باقتراب محمد على منها . وهنا استسلم سكان البلدة بعد أن تخلى عنهم حلفاؤهم ؛ وأنشأ الباشا مركز رئاسته فى تربة فترة من الوقت ، وقام بتخريب بعض البيوت ، وأخذ الأتراك منها بعض النساء العربيات الجميلات ، اللاتى أعدن إلى أسرهن بناء على أوامر الباشا شخصياً . أما غالية فقد لاذت بالفرار لدى البدو ، ولو

قبض الأتراك عليها لأرسلوها غنيمة إلى القسطنطينية ؛ لكنها لم تقتنع بكل العروض التى قدمها الأتراك . وعقب الانتصار الذى تحقق فى بيسيل ، وجّه الباشا الشريف يحيى أن يواصل سيره بطريق البر مع أعرابه إلى القنفذة ؛ وعزز الشريف يحيى قواته بقوات ماهو بك . وصدرت أوامر إلى جدة ، بتحميل وسائط النقل المتعددة بالمؤن والتموينات إلى القنفذة . ونظرا لأن قوة أعداء محمد على كانت فى بلدان الجنوب ، فقد قرر محمد على نقل التموينات والمؤن من كولاك على خمسة أو ستة آلاف جمل ، التى كانت ضمن قافلة الجيش عندما غادر مكة، فضلا عن الإبل الأخرى التى جرى الاستيلاء عليها بعد المعركة.

وشق الجيش طريقه من تربة عبر أراضى عرب، أوكلاب فى اتجاه الجنوب ، متجها إلى رانية عبر أرض مستوية ومنبسطة ؛ ورانية تبعد مسافة مسير يومين ، ويحتلها عرب سابية الذين يدعى شيخهم ابن كتنان، الذى حصن فى تلك البلدة قلعة صغيرة ، استسلمت للجيش التركى . وبعد مسير أربعة أيام من رانية وصل الجيش إلى منطقة بيشة ، تلك البلاد الخصبة التى تملكها قبيلة بنى سالم القوية . شيخ هذه القبيلة هو ابن شوكبان ، وهو من كبار الشخصيات فى الجماعة الوهابية . فى منطقة بيشة كان قد جرى بأوامر من سعود ، بناء قلعتين صغيرتين ، وكان سعود قد قوّى المواقع الرئيسية فى هذه البلدان بقلاع مماثلة . كان ابن شويكان قد لجأ بعد المعركة إلى خيام بعض البدو المجاورين من قبيلة قحطان . فتحت واحدة من تلك القلاع بوابتها ، وفى القلعة الثانية راح ابن شابان ، وهو شيخ ثان من شيوخ بنى سالم ، يدافع عن نفسه طيلة أربعة أيام ضد مشاة الجيش التركى ، بقيادة حسّان باشا ؛ فى حين قام محمد على مع خيالته باحتلال موقع لهم فى بيارات النخيل ، فى الناحية الجنوبية من بيشة .

قُدمت عروض الاستسلام لابن شابان ، على أساس إعطائه الأمان ؛ ومن سوء الطالع أن الرجل قد قبل هذه العروض ؛ وخرج هو وحاميته التى يبلغ قوامها ستين رجلا ، وتسلم الإبل المطلوبة لحمل أمتعته ، لكن بعد أن ذهب إلى خيمة حسان باشا

للتعبير عن شكره وامتنانه واحتراماته ، وبخه ذلك التركى المتزمت، واتهمه بالكفر والزندقة . ولكن شابان دافع عن نفسه وآرائه بشجاعة ، راح يرد على حسان باشا ، الذى استشاط غضبا إلى حد أنه عندما غادر شابان وأتباعه الخيمة ، أصدر أوامر لجنوده بالهجوم عليهم ، ومزقوهم جميعا إربا إربا ، لم يلق الحكام الأتراك بالا لتلك المعاملات التى كانت تحدث فى معظم الأحيان .

بقى الجيش مدة أسبوعين فى بيشة أهم المواقع فى اتجاه شرقى جبال اليمن ، والتى يطلق عليها بدو الشمال اسم مفتاح اليمن . فى بيشة انضم إلى الباشا كثير من البدو ، وجاء إليه كل أولئك الذين ادعوا أن ضررا قد لحق بهم من الوهابيين ، كما جاء إلى الباشا أيضا أقارب كل أولئك الذين طردوا من مواقعهم ومناصبهم ، الجميع جاءوا يطلبون إنصاف الباشا لهم ؛ ومن باب محاكاة المنظومة السعودية ، قام محمد على باشا بتغيير رؤساء القبائل فى سائر الأنحاء ، الأمر الذى أدى إلى خلق جماعة مؤيدة للباشا . لقد وصلت إلى محمد على - عندما كان فى بيشة - أنباء مفادها أن تامى قام مرة ثانية بتجميع جيش كبير فى الجبال التى يعيش فيها ، وأنه قرر خوض المعركة من جديد وهنا يمم محمد على نحو بلاد ذلك التامى لذا اتجه غربا من بيشة .

فى هذه المسيرة عانى جيش محمد على معاناة شديدة من التعب والجوع ، كان نصف الإبل قد نفق بالفعل قبل الوصول إلى بيشة ، كما نفق أيضا عدد كبير من الخيول ، كان حرس المقدمة قد أتى على كل الأعشاب والحشائش التى فى الطريق ؛ الأمر الذى لم يترك لمن جاء من بعدهم سوى أرض جرداء صحراء . وعندما وصل الأتراك هرب العرب فى جميع الاتجاهات ، حاملين معهم مؤنهم وتمويناتهم ، وماشيتهم ، فى حين أفاد البدو المرافقين للجيش من تلك الفوضى وذلك الاضطراب العام ، واختلسوا وسرقوا كثيرا من الأحمال . فى كل وقفة من الوقفات كان ينفق عدد من الإبل ، وكان الجنود يلتهمون لحومها . وكانت آخر كمية من البسكويت قد جرى توزيعها فى بيشة ، وبعد ذلك تُرك الأفراد يعتمدون على أنفسهم فى مسألة الحصول

على المؤن والتمـوينات . وهـنا اكتـشف البـاشـا أن من الضـرورى زيادة أجـور الجنود بواقـع قـرش واحـد يومـيـا لكل جندى من الجنود ، لكن هذه الزيـادة كـانت عـديمة الجدوى فى بلد يتكلف فيه تحويل القمح إلى خبز يكفى شخص واحد ، حوالى اثنى عشر قرشا .

على بعد مسافة تقدر بمسير يومين من بيشة دخل الجيش المنطقة الجبلية ، التى هجرها الناس وتخلوا عنهـا تمامـا . وتمتـع الأتراك بين عـرب الشُـمـران بقسط من الراحة امتد أياما قلائل . وقام محمد على باشا بإعادة حسان السلسان إلى منصبه العـائلى السـابق ؛ وحسـان السلسـان هذا شيخ بدوى من أحفـاد رجل كـان قد عين شيخا للقبيلة ، عندما قام عثمان باشا بغزو اليمن فى زمن حكم سليم الأول . فى هذه المنطقة نفق مائة حصان فى يوم واحد ، وغضب الجنود واستاءوا ؛ لكنهم عندما أدركوا أن الانسحاب يمكن أن يؤدى إلى تدميرهم تدميرا كاملا ، واصلوا التقدم . وهنا أصدر البـاشـا أوامره للرؤسـاء كلهم بالسير على أقدامـهم ، وأن يكون كل واحد منهم على رأس طابور جنوده . ووعد البـاشـا جنوده بغنيـمة قيـمة ، عندمـا يسلبـون وينهبـون ويخـربون مـدن اليـمن ، وبذلك أمكنه المحـافظة على ارتفـاع روح الجنود المعنوية . فى كل موقف من المواقف كان يجرى نصب سوق أمام خيمة الباشا ليبيع البدو إلى الجنود ذلك الذى أتوا به من العرب على الطريق ، كان الباشا بنفسه يترأس ذلك السوق ، ويفرض عليه النظام .

فى المنطقة القريبة من عسير ، كانت الجبال الوعرة تشكل عقبات كثيرة أمام تنقل المدفعية ، ودخل الجيش التركى هذه المنطقة الوعرة بعد اثنى عشرة أو أربعة عشر يوميا من مغادرته بيشة ، وتوقف الجيش بالقرب من القلعة التى يطلقون عليها اسم الطور، هذه القلعة مبنية على أرض مرتفعة ، تحيط بها الجبال . وأبو نقطة هو الذى شيد هذه القلعة ؛ وأبو نقطة هذا هو سلف تامى وقيل : إن هذه القلعة تبلغ من القوة حداً يعز معه على أية قوة عربية الاستيلاء عليها . فى هذه المنطقة كان تامى قد جمّع ما بين ثمانية وعشرة آلاف رجل ، قام الباشا بالهجوم عليهم ، ومثلما حدث فى بيسيل

أمكن صد القوات التركية فى اليوم الأول حينما فتح العسيريون نيرانهم بلا توقف الأمر الذى أدى إلى قتل ثلاثمائة تركى ، وشوهد تامى وهو يمتطى صهوة جواد فى مقدمة قواته ، وهو يشد أزرهم ويشحذ هممهم بأغانى الحرب . وبعد تجهيز قطع المدفعية للعمل في اليوم الثانى ، استسلم الوهابيون وولوا هاربين ، كما هرب تامى شخصيا ، لكنه كان آخر الذين تركوا الميدان . لقد جرى نقاش كبير حول هذه المعركة ، أكثر من النقاش الذى دار حول بيسيل ، وجرى جدل أيضا حول عدد البدو الذين رافقوا الأتراك وأنهم كانوا أقوى من أعدائهم . وعثر فى القلعة على مخزونات كبيرة من المؤن والتموينات التى كانت لها فائدة كبيرة عند الجيش التركى ، كما عثروا أيضا على ذخيرة ، وعلى بنادق أخذوها من القنفذة فى العام السابق ، كما عثروا أيضا على كمية كبيرة من البنادق الفتيلية ، وكثيرا من البنادق الفارسية القديمة ، التى يثمنها العرب غاليًا .

بعد أن كلّف الشريف راجح بمطاردة تامى ، وبعد تعيين شيخ للقبيلة هو ابن مدرى نزل محمد على باشا من فوق الجبال ، عن طريق شعاب شديدة الانحدار إلى أن وصل إلى شاطئ البحر ، وظهر جليا أن محمد على يود التقدم صوب اليمن ، عن طريق منطقة تقل فيها الجبال وتقع عند سفح سلسلة الجبال المرتفعة. بينما كان الشريف حمود (الملقب بأبى مسمار) مسيطرا على ساحل البحر . وأبو مسمار هذا كان من قبل مناصراً للوهابيين ، بعد أن دخل ضدهم كثيرا من المعارك ، لكن عندما جاء الأتراك إلى الحجاز ، أرسل أبو مسمار مبعوثا إلى الباشا محملاً بالهدايا القيمة ، ومؤكدا استعداده للوقوف إلى جانب المصلحة التركية ؛ وقام محمد على باشا بإرسال مبعوث إلى الشريف حمود ، فوجده يستعد فعلا للحرب . كان الرجل قد خطط للانضمام إلى الوهابيين إذا ما أجهضت الحملة التركية ، وكان الباشا يود منذ زمن بعيد أن يصول ويجول فى ثروة اليمن الشهيرة ، التى يبالغ الناس فى تقديرها فى الشرق ، ربما كان الباشا يود الاستيلاء على الدولارات التى كانت ترسل من مصر كل عام ثمنا لشراء البن ؛ وقد ذاع فى الحجاز أن الباشا ، فى حال انتصاره على

الوهابيين ، سيقوم بالهجوم على الشريف حمود . ولذلك بدأ الباشا المراسلات مع إمام صنعاء ، الذى سبق أن أرسل هدايا للباشا ، وكان مهتما بمشروعه ، نظرا لأن هذا المشروع يمكن أن يخلص الرجل من جارين خطيرين هما الوهابيين ، والشريف حمود معا .

يزاد على ذلك ، أن الجيش بعد هذه المسيرة الطويلة المضنية ، والخطيرة بدأ يكشف عن استيائه وعدم رضاه ، ورغبة الجنود فى العودة إلى مكة ؛ المؤكد أن محمد على باعتباره هو الوحيد القادر على تهدئة الجنود ، اضطر إلى أن يعدهم بأنهم سوف يعودون إلى مصر ، ليجرى استبدالهم بقوات جديدة ؛ وأنهم بدلا من اتجاههم جنوبا ، فإنه أصدر تعليماته وتوجيهاته بأن يتجه الجيش صوب القنفذة . كان تامى بعد المعركة التى خسرها قد لجأ إلى المنطقة المجاورة لعريش فى منزل أحد الأشراف ، فى حكم صديق له ، ومن أقارب الشريف حمود أيضا . ظن الشريف أن تلك فرصة مواتية لتجنب غزو أجنبى ، والكشف عن ولائه وخضوعه لمحمد على باشا . وجرى تقييد تامى بالسلاسل ، ثم أرسل رسولا إلى مركز الرئاسة التركية ، وكان يحمل رسالة للشريف حمود ، أعرب فيها الشريف عن أنه " عبدٌ لمحمد على " ويطلب منه أن يبلغه بالطريقة التى يمكن التعامل بها مع تامى . وصدرت الأوامر للشريف راجح الذى كان يبحث عن الهارب فى الجبال ، بالقبض على تامى وإعادته إلى القنفذة ، التى كان الجيش قد وصل إليها فى ذلك الوقت ، كما اكتشف الشريف راجح أيضا وصول كمية كبيرة من المؤن والتموينات التى جاءت من جدة عن طريق البحر .

كان محمد على باشا قد أرسل قوات من رانية لغزو الظهران من ناحية الشرق ، فى حين صعد ماهو بك الجبال من ناحية الشرق ، واستطاع عن طريق المناورة البارعة وضع عرب باخروج بين نارين ، الأمر الذى ترتب عليه إنزال الهزيمة بهم ، وجرى أسر باخروج ونقله إلى القنفذة . بقى الباشا فى القنفذة أياما عدة ، وكان أسيراه مقيدين فى خيام مجاورة لخيمته . لقد أدى سلوك تامى إلى الإيحاء للجيش كله بالاحترام والتقدير . فقد كان الباشا يتحدث معه فى معظم الأحيان من باب

التسلية ، على طريقة تلاعب النمر بفريسته قبل الانقضاض عليها ؛ لكن سلوك تامى المحترم كان يقلل من وحشية ذلك التركى ، ووعد محمد على باشا بأن يكتب للسلطان رسالة لصالح تامى ، وأن يطلب إلى السلطان الموافقة على أن يعيش تامى عيشة اعتزال فى جبال روميليا . كان تامى رجلا من أصحاب القدرات الطبيعية الكبيرة ؛ فقد كان رجلا قصير القامة ، وله لحية بيضاء طويلة ، وله عينان جريئتان ؛ ساخر الكلام بصفة عامة ، ومؤدب مع الرئيس التركى . كان باخروج على الجانب الآخر يلتزم الصمت ، وموقنا بأن محمد على باشا لن يغفر له مطلقا الرسالة التى سبق أن أرسلها إليه (راجع ص ٣٠٧ النص الإنجليزى) ، إضافة إلى أن الباشا لم يكن يود مطلقا أن يراه . وعندما اكتشف باخروج أن حراسه كانوا نائمين فى ليلة من الليالى ، تناول خنجرا وأفلح فى فك قيوده ، وهرب من المخيم ، لكن ألقى القبض عليه ثانية بعد أن قتل رجلين وجرح ثالثا . فى اليوم الثانى سأله محمد على : " بأى حق تقتل الجنود " : – ورد عليه باخروج قائلا : " أنا عندما لا أكون مقيدا أتصرف كما أشاء :– " قال الباشا : " وأنا سوف أتصرف بالطريقة نفسها . " ومن باب تسلية أتباعه طلب تقييد الأسير التعيس مرة ثانية ، ووضعه وسط حرسه الخاص ، الذين أصدر لهم أوامره بأن يصيبوا الرجل بجراح طفيفة باستخدام سيوفهم حتى يمكن أن يطيلوا آلامه . لكن الرجل راح يحتضر فى نهاية المطاف دون أن يجأر بشكوى واحدة : وجرى إرسال رأس باخروج إلى القاهرة ، ثم القسطنطينية لكى تكون بصحبة رأس تامى الذى جرى قطع رأسه فى القسطنطينية(*).

واصل الباشا تقدمه من القنفذة عائداً إلى مكة ، التى وصلها فى اليوم الحادى والعشرين من شهر مارس ، أى بعد خمسة عشر يوما من مغادرته القنفذة . وسوف

(*) وذلك نقضا للوعد الذى أعطاه محمد على باشا لتامى ، وبعد وصول تامى إلى القاهرة قيد بقيد غليظ وضعوه حول عنقه ، وحملوه على جمل ، وراحوا يزفونه فى الشوارع ، هو ورأس باخروج فى كيس معلق فى كتف تامى .

نفهم طبيعة حملة الباشا ، عندما أقول : إنه من بين أكثر من عشرة آلاف جمل ، كانت مع الجيش (والتى جرى الاستيلاء على نصفها من بيسيل) لم يتبق سوى ثلاثمائة جمل هى التى عادت إلى مكة ؛ أما بقية الإبل فقد نفقت على الطريق . كما جرى أيضا تدمير كميات كبيرة من الذخيرة ، نظرا لعدم وجود وسائل لنقلها ؛ ولم يعد من الخيول سوى ثلاثمائة حصان فقط . ومن بين الأتراك الذين بلغ عددهم عند مغادرة مكة حوالى أربعة آلاف رجل ، لم يعد منهم إلى مكة سوى ألف وخمسمائة رجل ، من بينهم الرتب الصغيرة والرتب الكبيرة ، عاد الجميع منهكين وبلا ملابس أو مال .

وبناء على الوعد الذى أعطاه محمد على عندما كان فى القنفذة ، فقد سمح للجنود كلهم بالإبحار من جدة إلى مصر باستثناء حسّان باشا ، الذى استبقاه محمد على باشا فى الحجاز مع مجموعة من الجنود الأرناءوط ؛ وعلى الفور بدأت التدعيمات تأتى من مصر .

إلى هنا تكون قوة الوهابيين قد قلت وانخفضت تماما ، وبخاصة فى الجنوب . وعندما دارت معركة بيسيل كان عبد الله بن سعود مع مجموعة من الجنود فى منطقة القصيم ، جاهزا لمنع تقدم طوسون باشا من ناحية المدينة (المنورة) ؛ لكنه عاد إلى الدرعية عندما علم بالهزيمة التى نزلت بجماعته ؛ تخوفا من هجوم يقوم به محمد على باشا ، الذى كان بوسعه التقدم بسهولة ويسر من تربة فى اتجاه نجد .

فور وصول الباشا إلى مكة ، تجمع كبار رجال المدينة وعلمائها ، وقرأ محمد على عليهم خطابا وجهه لعبد الله بن سعود يطلب فيه الاستسلام ويعرض عليه شروط السلام : وطلب الباشا من عبد الله أن يعيد الكنوز والأشياء الثمينة التى أخذها والده من قبر النبى ﷺ فى المدينة (المنورة) ، إذا أراد لنفسه ألا يؤول مصيره إلى المصير الذى آل إليه أصدقاؤه فى الجنوب . وقد أرسلت هذه الرسالة مع جندى تركى مصحوبا ببعض البدو إلى الدرعية .

بعد فترة قصيرة أمضاها محمد على باشا فى مكة ، وبعد أن عين حسَّان باشا حاكما عليها ، ترك كلا من حسين بك ، رئيس الخيالة ، وترك الشريف راجح على رأس حاميتين واحدة منهما فى تربة والثانية فى بيشة ، واتجه هو إلى المدينة (المنورة) التى وصل إليها فجأة فى اليوم الرابع عشر من شهر أبريل ، ولم يكن معه سوى ثلاثين أو أربعين مرافقا ، كانوا جميعا يركبون إبلا ، بعد أن قطعوا الرحلة كلها عن طريق البر . كان طوسون باشا قد غادر المدينة المنورة بالفعل . وكان توماس كيث أو إن شئت فقل : إبراهيم أغا ، سالف الذكر ، يتصرف كمحافظ للمدينة المنورة .

عندما ذاعت أخبار نجاح محمد على بين القبائل الشمالية ، تقدم كثير من شيوخ القبائل بعروض إلى طوسون باشا ، يعرضون فيها الانضمام إليه فى مواجهته للوهابيين ، الذين كانت قوتهم شديدة الوطأ ، على أهل الشمال أكثر من الجنوب . وفى شهر مارس ، بدأ السواد الأعظم من شيوخ القصيم يتوافدون الواحد بعد الآخر على المدينة (المنورة) ، ليؤكدوا لطوسون باشا استعدادهم لمساعدته، بينما أغدق طوسون باشا عليهم الهدايا ، وأرسل معهم أربعمائة خيال لحماية بعض قراهم . وهنا بدأت تدور فى ذهن طوسون آمال غزو نجد . وعلى الرغم من شجاعة الرجل الشخصية ، التى كشفت عن نفسها فى أحيان كثيرة ، فإن الحظ قد خالفه فى بعض الأحيان ، فقد كان دائما يتطلع إلى ما وصل إليه والده من عظمة بعد انتصاره فى حملته الأخيرة ؛ لكنه مثل الأتراك لم يحسب إمكاناته . يزاد على ذلك أن محمد على باشا ، لم يضع تحت تصرف ولده مبالغ كبيرة من المال ، لأنه كان يعلم حقيقة كرم ولده وجوده ، وربما كان يود أيضا ألا يذيع صيت أى إنسان غيره فى الحجاز . كان طوسون بحاجة ماسة إلى الإبل ، والطعام المطلوب للبدو أو المجاورين له . وكانت أسعار السلع فى المدينة المنورة أغلى منها فى مكة . وعلى الرغم من ذلك قرر طوسون تجريب حظه ، وغادر المدينة (المنورة) فى نهاية شهر مارس ، قاصدا الحناكية ، تلك القرية المهدمة

ذات الأسوار ، التى تبعد مسير يومين أو ثلاثة على الطريق المؤدى إلى القصيم . وقد صحب معه حوالى أربعمائة جمل ، تحمل المؤن والتموينات ، كما كان معه أيضا عدد من الخيالة ، بين مائتين وثلاثمائة خيال ، وحوالى أربعمائة جندى من جنود المشاة . وتبعه حوالى مائة من البدو، معظمهم من قبيلتى حرب والمطير .

بقى طوسون بضعة أيام فى الحناكية ، عندما وصل والده إلى المدينة (المنورة) . بهدف الحصول على معلومات عن شمال الحجاز ، وزيارة قبر الرسول عليه السلام . ومن المدينة المنورة أرسل محمد على أوامر عاجلة ، تطلب من طوسون باشا العودة من الحناكية ، لكى يتشاور معه فى التحركات المستقبلية . كان طوسون قد قرر بالفعل القيام بحملة ، والدخول فى المعركة ؛ وفور تسلم طوسون لأوامر محمد على ، بدأ يتجه صوب القصيم بدلا من إطاعة الأوامر والالتزام بها . ولما كان طوسون مساويا لوالده فى المرتبة (بمعنى أنه كان باشا أيضا) ، فقد أخطأ محمد على عندما جعل ولده يستشعر مثل هذا القدر من الاستقلال ؛ يضاف إلى ذلك ، أننا يجب ألا نبحث عن المشاعر الأبوية بين عليه القوم من الأتراك ، يزاد على ذلك أن الرسوم الجمركية التى كانت تجبى من جدة ، والتى كانت من حق طوسون ، حولها الباب العالى إلى محمد على للصرف منها على الحرب ، وكان طوسون باشا لا يحصل سوى على بدل محدد كان يتسلمه كل يوم ، شأنه فى ذلك شأن الرؤساء الآخرين فى الجيش ؛ وبعد أن وضع محمد على باشا شمال الحجاز تحت إمرة ولده طوسون ، أشرك معه واحداً من حاشيته ، وهو قدرى أفندى الذى كان يتولى تصريف الأمور المالية والإدارية ، والذى طلب إلى طوسون أن يستشيره فى كل الأحوال ، نظرا لأن والده كان يحس أنه ليس على المستوى المطلوب للموقع الذى يشغله .

عقب وصولهما إلى المدينة (المنورة) ، كشف قدرى أفندى عن عدم اتفاقه مع تلميذه (طوسون) الأمر الذى جعل طوسون يأمر ، فى ظل نوبة من الغضب ، بقطع رأس قدرى أفندى . وسيطر الاضطراب والفوضى على إدارة الأمور ، وأديرت المصالح التركية مع العرب المحيطين بالمدينة المنورة إدارة سيئة ، هذا يعنى أن الجنود

قد قاموا بكثير من السلب والنهب(*). أدى احتياج طوسون إلى الإبل ، إلى استيلائه على كل الإبل التى عثر عليها عند البدو ؛ وقد أدى ذلك إلى انشغال محمد على باشا – عندما وصل إلى المدينة – بتصحيح الأخطاء التى وقع فيها ولده ، بدلا من شن الهجوم على العدو . وجرى إرسال مائتين وخمسين خيالا ، بقيادة توماس كيث (أو إبراهيم أغا) ، فى أعقاب طوسون باشا ، كما أرسل أيضا فصيل من المشاة ، كان قد وصل قبل ذلك إلى ينبع ، بقيادة أحمد بونابرت ، الذى كان قد عاد من القاهرة منذ فترة وجيزة . كان طوسون قد وصل إلى منطقة القصيم فى أوائل شهر مايو بعد رحلة استغرقت عشرة أيام ، أو اثنى يومًا عشر من المدينة المنورة إلى القصيم . قام طوسون أثناء هذه الرحلة بمهاجمة بدو الحطيم ، واستولى على خمسمائة جمل من إبلهم ، أرسلها إلى المدينة (المنورة) لنقل المؤن والتموينات من ينبع . وعندما وصل طوسون باشا إلى بلدة الرس ، التى هى واحدة من البلدان أو القرى المحمية بسور من الأسوار ، لحقت به الخيالة الذين كانوا قد سبقوا بفترة زمنية قصيرة ؛ كما جاء شيوخ مختلف المناطق فى القصيم للتنسيق مع طوسون باشا : لكن شيخ القصيم ، الشيخ الحجيلان ، لم يحضر ذلك الاجتماع ، لأنه كان مواليا ولاءً شديدا لسعود من قبل ، ومواليا أيضا لولده فى الوقت الحالى، الأمر الذى جعله يقوم بتجميع العرب التابعين له فى البلدة التى يطلقون عليها اسم بريدة .

(*) فى شهر يناير من العام ١٨١٥ وصلت إلى المدينة (المنورة) ، وسرعان ما لازمت فراشى بسبب المرض ؛ فى ذلك الوقت كان عبدى يجىء وهو يبكى ويشكو من أن الجنود الأتراك أخذوا منه اللحم الذى أحضره لى ، وأنهم كانوا يضربونه لأنه حاول مقاومتهم .

عبد الله بن سعود يدخل القصيم ومعه جيش - المفاوضات بينه وبين طوسون باشا - إبرام اتفاق سلام - محمد على يعود إلى القاهرة - ويرسل ولده إبراهيم باشا على رأس جيش لتجديد، واستئناف الحرب فى الحجاز.

فى ذات الوقت لم يهمل عبد الله بن سعود واجبه ؛ فقد قام الرجل على رأس جيش مكون من البدو ومن مستوطنى نجد ، ودخل القصيم هو الآخر ، وأقام مركز رئاسته فى شنانة التى تبعد مسير خمس ساعات فقط عن خبارة ، التى أقام فيها طوسون باشا مخيمه . لكن فى شنانة وجد طوسون باشا أن موقفه متأرجح . واكتشف أن وزير ماليته ، إبراهيم أغا (توماس كيث) ، حُوصر على الطريق ، وأنه على الرغم من المقاومة الباسلة فقد قتل ، وجرى تقطيعه إربا هو وكل خيالته . كانت منطقة القصيم الخصبة قادرة على توفير المؤن والتموينات اللازمة لجيش أكبر من جيش طوسون باشا ، لكن القوات الوهابية الخفيفة كانت تحوم حول الأتراك ، الذين كانوا يعتمدون على قريتين، أو ثلاث قرى فى الحصول على الطعام اليومى ، الذى استشعروا أنه سيصبح شحيحا للغاية فى القريب العاجل . كان العدو قد احتل الطريق المؤدى إلى المدينة (المنورة) ، ولم يتمكن طوسون من الحصول على أية معلومات فيما يتعلق بالخطوات التى اتخذها محمد على .

لم يكن طوسون باشا واثقا من البدو المرافقين له ، إذ كان يعلم أنهم سينضمون إلى أعدائه مع أول هزيمة تنزل بالأتراك لذلك كان طوسون يود إنهاء هذا التعليق كله بالدخول فورا فى القتال ، لكن ضباطه وجنوده لم يكونوا راغبين فى ذلك . هذا يعنى أن تفوق الوهابيين العددى بث الخوف فى قلوب الأتراك ؛ الذين استشعروا أن الهزيمة تعنى عدم تمكن أحد منهم من الهرب ، فرأوا أن الوصول إلى حل وسط مع العدو أفضل من الدخول فى القتال . أكثر من ذلك أن محمد على أرغم ولده على الدخول فى السلم ، بشروط مناسبة ومقبولة . واستخدم طوسون بعض البدو ، لمعرفة ميول (عبد الله بن سعود) ، الذى أوفد - بعد أن علم بالظروف المحيطة - "حباب"

أحد رجاله ، للوقوف على ما ينتويه طوسون باشا ، عارضا بذلك سلامة كل من سيوفدون إلى المخيم الوهابى . وعلى الرغم من أن الظروف كانت مواتية لعبد الله بن سعود ، فقد أدرك أن تدمير قوة طوسون كلها التى تقدر بحوالى ألف ومائتى رجل ، ستكون قليلة الجدوى والنفع عنده . كما أدرك أيضا أن ذلك سيجعل محمد على باشا يوجه قوته ضد هذه النقطة ، الأمر الذى سيكون بالغ الخطورة على المسألة الوهابية أكثر منه فائدة لها . كان عبد الله بن سعود يعلم أن موارد مصر تكفى لأن يطيل محمد على الحرب إلى أمد طويل . صحيح أن الأتراك نزلت بهم هزائم كثيرة لكنهم كانوا دوما يعوضون خسائرهم ويصبحون أقوى مما كانوا عليه ، كان الأتراك يفيدون من الرشاوى ، يضاف إلى ذلك أن عبد الله بن سعود كان يعلم جيداً أن بعض رفاقه الحاليين هم فى حقيقية الأمر أعداء له ؛ يزاد على ذلك أن إبرام السلم سيضمن له اعتماد القبائل التى لم تنضم بعد إلى الجانب التركى ، عليه هو شخصيا وعلى قواته .

استقبل طوسون باشا "حباب" استقبالا طيبا ، وأوفد من قبله على الفور ، يحيى أفندى ذلك المواطن السورى الذى كان يتكلم العربية أفضل من الأتراك الآخرين ، للتفاوض مع عبد الله بن سعود . كان يحيى أفندى قد حمل معه بعض الهدايا ، وبقى مدة ثلاثة أيام فى المخيم الوهابى . ولما كان الطرفان يرغبان فى السلم ، فقد سرّع ذلك من مسألة التوصل إلى السلم وإبرام الاتفاق ، بل إن واحداً من حاشية عبد الله بن سعود يتكلم عن أحقيته فى امتلاك المدينتين المقدستين - متظاهرا بأنه أحد الرعايا المطيعين للسلطان - وحصل عبد الله بن سعود لرجاله كلهم على حق المرور المجانى فى سائر أنحاء الممتلكات التركية ، الأمر الذى سيمكنه شخصيا من أداء فريضة الحج عندما يريد . وتخلى طوسون باشا لعبد الله بن سعود عن القصيم التى كان قد استولى عليها ، وطرد من جماعته كل الشيوخ الذين انضموا إليه . كما تنازل طوسون باشا عن كل القبائل البدوية التى تقع مراعيها خلف الحناكية ، واكتفى لنفسه بتلك القبائل التى تسكن المنطقة الواقعة بين الحناكية والمدنية المنورة ، والقبائل الواقعة فى

نطاق المدينتين المقدستين . لم يرد أى شىء بشأن أتباع ابن سعود فى الجنوب ؛ وترتيبا على ذلك الاتفاق قام عبد الله بن سعود عقب مغادرة طوسون بمعاقبة البدو (وبخاصة قبيلة المطير) الذين انضموا إلى جانب العدو . ونظرا لأن الطرفين كانا يتوقعان الخيانة ، فقد نشأت بعض المصاعب حول مسألة أولوية الانسحاب . ووافق عبد الله بن سعود فى نهاية المطاف على فض مخيمه ، لكنه اشترط أن يبقى معه أربعة من كبار ضباط الباشا كرهائن إلى أن يصل إلى مكان آمن ، ثم يقوم بعد ذلك بإعادة هؤلاء الضباط . وهنا راوغ طوسون بعض الشىء ، من باب إخفاء ضعفه ، فى هذه المسألة . وجرت مراسلات بين الطرفين ، (ولدى رسائل عدة من رسائل عبد الله بن سعود) . وغالبية هذه الرسائل توضح شجاعة عبد الله وجرأته اللغوية ، تلك الجرأة التى تميز البدو بصفة دائمة ، وهذه اللغة مختلفة اختلافا تاما عن الأسلوب الاحتفائى المعتاد بين أمم الشرق فى المسائل التى من هذا القبيل . كانت تلك الرسائل تكتب بإملاء مباشر من عبد الله بن سعود ، وتعبر عن مشاعره الحقيقية التى كانت تعتمل فى داخله فى تلك اللحظة ؛ والخط الذى كتبت به هذه الرسائل يوضح أن الوقت الذى استغرق فى التعبير عن هذه المشاعر على الورق كان قصيرا جداً .

عاد طوسون باشا بعد ذلك من خبرة إلى الرّس ، وبعد أن أقام ثمانية وعشرين يوما فى منطقة القصيم ، وصل إلى المدينة المنورة فى أواخر شهر يونيو من العام ١٨١٥ الميلادى . وكان بصحبة طوسون باشا اثنان من الوهابيين ، كانا مبعوثين من عبد الله بن سعود إلى محمد على ، يحملان إليه بنود السلام ، ورسالة من رئيسهما ، عبد الله بن سعود إلى الباشا (محمد على) ، ورسالة أخرى للسلطان العثمانى الكبير .

لم يجد طوسون والده فى المدينة المنورة ؛ وإدراكا من محمد على باشا بأن موارد الحرب فى تلك المناطق الشمالية من الحجاز لم تكن كافية لشن الحرب، لذا قرر الرجل ترك هذه الفرصة غير المؤكدة لولده ، بدلا من أن يتسبب هو فى المخاطرة بأشياء قد تقلل من سمعته وذيوع صيته اللذين اكتسبهما ، وبذلك يثبت محمد على

باشا فى هذه المناسبة ، افتقاره الكبير إلى الشعور الأبوى . طوال المدة التى غابها طوسون لم يرسل والده إليه رسالة واحدة ؛ إلى حد أنه كان يجهل تماما ما كان يدور فى المدينة المنورة ، والأماكن الأخرى ، يزاد على ذلك أن محمد على لم يكن يعبأ كثيرا باحتياجات ولده ، الأمر الذى جعله يتركه بلا قرش واحد ؛ مما جعل طوسون عندما وصل المدينة المنورة مضطرا إلى اقتراض نقود للصرف منها على احتياجاته اليومية . ربما كان هناك سبب مقنع وراء مغادرة محمد على باشا للمدينة المنورة ، ثم الحجاز بعد ذلك . فى شهرى فبراير ومارس من العام ١٨١٥ الميلادى ، تعددت فى مصر مخاوف من احتمال قيام كابيتان باشا وهو من رجال السنيور الكبير بالهجوم على الإسكندرية ، بعد أن جاء بأسطول كبير من بحر مرمرة ، وراح يطوف به فى أنحاء الأرخبيل ، لذا جرى تدعيم الإسكندرية، ورشيد بعدد كبير من الجنود ، وقام كخيا بك ، محافظ القاهرة ، على وجه السرعة بإرسال مندوبين من البر وعن طريق البحر لإبلاغ محمد على بما يدور .

فى اليوم التاسع عشر من شهر مايو، أى بعد بضعة أسابيع من مغادرتى لينبع ، فى طريق عودتى إلى القاهرة ، تلقى سليم أغا محافظ ينبع ، رسالة عاجلة من المدينة المنورة ، تطلب إليه ، مع تهديده بالموت ، تجهيز سفينة للإبحار فى مساء اليوم نفسه . فى اليوم التالى ، ركب محمد على، وبعض من حاشيته الإبل إلى ينبع، وبدون انتظار لتقديم التحية على الشاطئ ، سارع الرجل إلى ركوب السفينة ، التى فردت أشرعتها وأبحرت على الفور . لم يسمح محمد على للقبطان بالإبحار محاذيا للشاطئ ، كالعادة ، على الرغم من معرفته أن الماء كان شحيحا على السفينة ولكنه أصدر أوامره للقبطان بالإبحار فى عرض البحر ، متجها مباشرة إلى القصير .

عندما نزل محمد على باشا على أرض القصير ، لم يتوفر له حصان، أو جمل لنقله ، فركب حمارا على الفور ودون مضيعة للوقت على أمل اختصار الطريق الصحراوى وصولا إلى قنا ، ومنها يسارع إلى ركوب سفينة فى النيل ، أخذ الخوف من الهجوم على الإسكندرية فى الانحسار . وصلت هذه الأنباء إلى محمد على ، وهنا

هدأت نفسه وواصل مسيره مرتاحا تجاه عاصمته التى وصلها فى اليوم الخامس والعشرين من شهر يونيه من العام ١٨١٥ الميلادى ، بعد غياب وصل إلى عامين تقريبا ، عانى خلالهما معاناة شديدة من مناخ الجزيرة العربية، ولم يكن قد علم بعد بإبرام معاهدة سلام مع الوهابيين ؛ ولكن حبا فى أن يكون وصول محمد على إلى عاصمته محاطا بهالة من الشهرة ، فقد ذاع خبر استيلاء طوسون باشا على الدرعية، وإنزال الهزيمة الكاملة بالوهابيين .

فى شهر أغسطس وبعد عودة محمد على باشا إلى مصر ، كشف القسم الأكبر من تلك القوات التى صاحبت محمد على فى حملته على الجزيرة العربية ، عن مظاهرالعصيان والتمرد، وبدأ فصيل ماهو بك، هو وفصائل أخرى يسلبون العاصمة وينهبونها ؛ ووجد الباشا أن من المناسب الاعتزال بعض الوقت فى القلعة، ثم إصدار مجموعة مراسيم قضت بتخفيض أجور تلك القوات تخفيضا كبيرا ، وزادت من متاعبها زيادة كبيرة . كان الباشا يود إدخال نظام جديد ، ذلك النظام الذى أودى بحياة السلطان سليم ؛ ولكن العصيان توقف عن الانتشار ؛ ولم يجرؤ محمد على على إنزال العقاب بالمتمردين ، وظهر أن ذيوع الصيت والشهرة التى اكتسبها الباشا فى الحجاز أحدثت تغييرا كبيرا فى شخصيته، فقد تحولت حلاوة المعشر التى اتسمت بها شخصيته إلى نوع من التعالى ؛ وبدلا من أن يكون مؤسسة بسيطة شبة عسكرية، أصبح الرجل يغرق نفسه فى العظمة والأبهة ، واحتكر لنفسه الصادرات كلها، وسخَّر الواردات كلها لمصلحته، وقد أدى ذلك إلى الإضرار بالعمال والصناع إضراراً بالغًا .

وصل المبعوثان الموفدان من قبل عبد الله بن سعود ، ضمن حاشية طوسون باشا ، إلى المدينة المنورة ، ومنها إلى القاهرة فى شهر أغسطس ، وكان أحدهما من أقارب المؤسس الكبير للمذهب الوهابى ، عبد الوهاب ؛ أما المبعوث الثانى فكان من ضباط سعود، حيث قدما لمحمد على باشا المعاهدة التى أبرمت مع ولده طوسون ، كما قدما أيضا الخطابات سالفة الذكر . كان عبد العزيز رجلا متعلما ؛ وأصدر محمد على باشا أوامره إلى أكفأ علماء القاهرة لمناقشة هذا الرجل فى المسائل الدينية . وقد

استفسر عبد العزيز عن كل الظروف الخاصة بالمؤسسات المدنية والعسكرية المصرية ، وسأل أيضا عن مواردها وتجارتها : كما اشترى العديد من الكتب العربية ، كما استثار الرجل غيرة وحسد محمد على باشا ، الذى أمر اثنين أو ثلاثة جنود بمرافقة المبعوثين طول الوقت ، فى أى مكان يذهبا إليه . وقد أدى ذلك إلى سوء موقفهما ، مما جعلهما يطلبان السماح لهما بمغادرة البلاد . وأعطى لكل منهما بعض الملابس، وثلاثمائة دولار على سبيل الهدية ، وحمل الاثنان رسالة إلى عبد الله بن سعود من الباشا ، وقد جرى تحرير تلك الرسالة على نحو غامض ، فيما يتعلق بالسلم والحرب ؛ وأكد محمد على على أهمية المعاهدة التى أبرمها ولده طوسون شريطة أن يعطيه الوهابيون منطقة الأحساء ، التى تعد واحدة من أخصب وأهم ممتلكات الوهابيين ، والتى تقع على الخليج الفارسى .

لقد أصبح واضحا عندئذ أن طوسون باشا إما أن يكون خدع الوهابيين فى القصيم ، أو أن يكون ذلك دليلا جديدا على احتقار محمد على باشا للمعاهدات والاتفاقيات بكل أنواعها . وبحكم أن طوسون كان متساويا مع والده من حيث المرتبة ، فقد أبرم المعاهدة ، التى تلزم كل أطراف جماعته ؛ إضافة إلى أنه تمتع بالميزة الكاملة لتلك المعاهدة ، من حيث السماح له بإنقاذ نفسه وجيشه من الدمار . ومع ذلك يبدو أن والده كان له رأى آخر فى الإفادة من تلك المعاهدة عند عرضها فى القسطنطينية ؛ ونظرا لأن محمد على باشا كان قد تعهد بأن يقوم هو بنفسه بالقضاء على الوهابيين ، وذلك عن طريق الاستيلاء على الدرعية فقد كان من الضرورى أن يقنع سيده صاحب الجلالة (السلطان) بأنه لم يتخل عن الهدف الذى تحدد له ؛ وأن المعاهدة التى أبرمها ولده ينبغى النظر إليها باعتبارها هدنة مؤقتة .

فى شهر سبتمبر من العام ١٨١٥ الميلادى جرى إحضار الشريف راجح ، البطل العربى ، إلى القاهرة مقيدا بالسلاسل . وتردد أنه تشاجر مع حسان باشا ، محافظ مكة ، الذى شك فى أنه قام بمراسلات خيانية مع العدو ، لكن واقع الأمر ، أن الجانب العثمانى كله كان يحسد الأمير راجح ، على الشهرة الذائعة التى اكتسبها ، وأن

الانتصار الذى حدث فى بيسيل إنما تحقق بفضل الشريف راجح . طوال الأشهر الأولى من سجن الشريف راجح فى القاهرة ، كان الأتراك يعاملونه معاملة المجرم العام ؛ لكن فى ربيع العام ١٨١٦ الميلادى ، عندما كانت الاستعدادات تجرى لشن حملة على الوهابيين ، أطلق سراح الشريف راجح ، وتظاهر محمد على باشا بإضفاء صفات التميز على هذا الرجل . وفى اليوم السابع من شهر نوفمبر من العام ١٨١٥ الميلادى وصل طوسون باشا إلى القاهرة ومعه حوالى مائة جندى . وبعد عودة طوسون باشا إلى المدينة (المنورة) ، أعيدت الاتصالات إلى سائر أنحاء الحجاز مع الوهابيين . وبدأت القوافل تفد على المدينة (المنورة) ومكة (المكرمة) قادمة من نجد ؛ وفى شهر ديسمبر ، أدى كثير من الوهابيين فريضة الحج . لم يبذل أحد من الأتراك جهداً أو يكشف عن شجاعة مثلما فعل طوسون باشا نفسه ؛ ومع ذلك لم تكلل جهوده بالنجاح فى كل المرات . جرى الترحيب بطوسون باشا فى القاهرة ، وقدمت له كل فروض التكريم والحفاوة بمقدمه وشجاعته ؛ لكنه عندما زار والده فى الإسكندرية ، استقبله والده استقبالا فاترا(*) .

فى أواخر العام ١٨١٥ الميلادى ، جاء العديد من الشيوخ العرب قادمين من الحجاز يطلبون من الباشا حمايتهم . كان هؤلاء الشيوخ من أقارب ابن مدرى الذى عينه محمد على باشا شيخا على عرب عسير بدلا من تامى ؛ لكن عندما عاد محمد على إلى القاهرة ، أجبرت جماعة تامى الشيوخ الجدد على الفرار ، ونظرا لعجز حسان باشا عن دعم هؤلاء الشيوخ، فقد استقبلهم محمد على استقبالا طيبا، ومؤدبا فى القاهرة ، فمنحهم بعض الهدايا وأعادهم إلى مكة ، لكنه فى ذلك الوقت لم يكن بوسعه توفير بعض القوات لإرسالها إلى الحجاز ؛ ونظرا لانشغاله بالتجهيزات

(*) فى شهر سبتمبر من العام ١٨١٦ الميلادى توفى طوسون باشا فى مدينة رشيد نتيجة إصابته بمرض الطاعون ، كان الرجل على رأس قوة ، كانت مخيمة فى مدينة رشيد، وذلك للدفاع عن ساحل البحر . وقد حزن الناس على طوسون لوفاته الكبير لأصدقائه ، إضافة إلى أنه كان مسرفا فى إنفاق المال .

المطلوبة للدفاع عن ساحل البحر المتوسط ضد الهجوم المنتظر ، والذى عقد الإنجليز العزم على القيام به . كان محمد على ، قد علم عندما كان فى الحجاز بأنباء أول معاهدة للسلام فى باريس ، كما علم أيضا بسقوط بونابرت ، وتملكت الرجل مخاوف احتمال قيام انجلترا بإرسال جيش كبير من جنوب فرنسا إلى مصر ، التى اعتبرها محمد على الهدف الذى تبتغى الدول الأوروبية الهجوم عليه ، تلك المخاوف ، تجددت عند إبرام معاهدة باريس الثانية ، وزادت هذه المخاوف عندما قام الإنجليز بالإستيلاء على الجزر السبع التى اعتبرها مدخلا مؤديا إلى أراضيه . تأيد رأى محمد على هذا بفعل التقارير المخزية التى قدمها مبعوثوه ، والهمس الذى كان يهمس به الفرنجة المنافقين والمتملقين فى أذنى محمد على باشا ، والمعروف أن هؤلاء الفرنجة هم أولئك الذين كان يطلق عليهم اسم الأوروبيين الزائفين المعادين عداء لدودا للكنيسة الأنجليكانية . بعد بضعة أشهر انحسر ذلك الخوف والذعر بعض الشيء ، وبدأ محمد على يوجه اهتمامه من جديد إلى الحجاز ، مصمما على إرسال حملة قوية إلى هذه البلاد ، بقيادة ولده إبراهيم باشا . وجرى إرسال منشورات دورية ، فى شهر يناير من العام ١٨١٦ إلى شيوخ القبائل الحجازية كلها ، يخطرهم فيها بتحرك ولده إبراهيم على وجه السرعة ، ويطلب إليهم مساعدته ومعاونته ؛ ومؤكدا لهم أنه سوف يقوم هو شخصيا بزيارة مناطقهم خلال فترة وجيزة ، ويتوج انتصاراته السابقة باستيلائه على الدرعية . لم يشر محمد على فى هذه الرسائل إلى المعاهدة التى أبرمت مع عبد الله بن سعود ؛ ولم يكن محمد على قد تلقى أيضا رد عبد الله بن سعود على موضوع مطالبة محمد على بالإحساء .

فى شهر مارس من العام ١٨١٦ الميلادى وردت معلومات استخباراتية تفيد نشوب بعض الاضطرابات فى جنوبى مكة . وكان قد جرى سحب الخيالة التركية التى كانت متمركزة فى كل من بيشة ، ورانية ، وتربة . وبقى بعض البدو العاملين فى خدمة الباشا بمثابة حامية لبلدة تربة . وظهر أن الوهابيين كانوا يزدادون قوة على قوتهم كل يوم فى هذه المناطق ؛ ويبدو أن هذه المناطق الجنوبية لم يشر إليها فى المعاهدة التى وقعت بين طوسون باشا وعبد الله بن سعود .

وفى شهر أغسطس من العام ١٨١٦ غادر إبراهيم باشا القاهرة قاصداً الحجاز ، وقيل إنه كانت لديه أوامر بالهجوم على الدرعية ، سالكا طريق المدينة المنورة والقصيم . كان بصحبة إبراهيم باشا ألفان من جنود المشاة ، الذين سافروا إلى ينبع عن طريق القصير ، كما كان معه أيضا ألف وخمسمائة بدوى من البدو الليبيين الذين يركبون خيولا ، سافروا عن طريق البر . هؤلاء الخيالة انتقاهم إبراهيم باشا من بين أفراد القبائل الليبية المحبة للحرب فى صعيد مصر . وكان بصحبة إبراهيم باشا اثنان من الضباط الفرنسيين ، كان أحدهما ممن عملوا مع بونابرت فى روشيفورت ؛ لكنه تنفيذا للأوامر التى تقضى بأن يغادر فرنسا ، آثر الذهاب إلى مصر ، التى استقبله فيها محمد على باشا استقبالا فيه كثير من التملق ، إضافة إلى العديد من المهاجرين الفرنسيين الذين نزحوا عن فرنسا فى العام ١٨١٥ الميلادى .



الملاحق

الملحق رقم (١)

الشهور القمرية . – (راجع الجزء الأول ص ٧٤ النص الإنجليزى)

فيما يلى نورد قائمة بأسماء الشهور القمرية ، السائدة لدى القبائل البدوية المتعددة ، وبخاصة قبيلة العنزة .

المحرم : يسمونه " آشور " – رجب : يسمونه " غرّه " – شعبان : يسمونه " قصير "

شوال، وذو القعدة : يسمونهما : " الإفطار " – شوال : يسمونه : " فطر الأول " .

ذو القعدة : يسمونه " فطر الثانى " – ذو الحجة : يسمونه " الضحية " .

الملحق رقم (٢)

عمليات البدو الحربية . – (راجع الجزء الأول صفحة ٣١٢ النص الإنجليزى)

عندما يشتد وطيس القتال ، ويدخل الخيالة، أو الجمّالة فى معركة واحدة ، أو عندما يختلط هذا مع ذاك فى حال القتال العام ، أو الفر ، أو المطاردة فإن بنى عطية (تلك القبيلة الكبيرة من الأعراب فيما بين سوريا والبحر الأحمر ، التى يدخل العمران ضمن أفرادها ، وكذلك الحويطات ، والترابين) يرددون بصوت عال الأشعار التالية : –

يا طير يا شايب الرأس يا أبو رخم وحدادى

إن كان بدّكم لحم ناس أحضروا يوم الطرادى

الرَّخم والحدادى من الطيور الجارحة – والرخم : نوع من النسور ، أما الحدادى فهو نوع من الصقور . أغنية الحرب هذه يطلق عليها اسم بوشان

الملحق رقم (٣)

الثأر. (راجع الجزء الأول صفحة رقم ٣١٤ النص الإنجليزى .)

أصل مسألة الدّية ، أو إن شئت فقل الغرامة التى تدفع عوضا عن دم القتيل ، والتى تقدر بمائة ناقة عند العديد من القبائل ، والتى يقرها الوهابيون ، هذه الدّية يمكن ردها إلى زمن عبد المطلب بن هاشم (جد محمد ص) ، الذى كان قد وعد بذبح واحد من أبنائه العشرة ، وذلك من باب تكريم صنم من الأصنام التى كانت تُعْبدُ فى الكعبة فى ذلك الزمان . ووقعت القرعة على أحب أبنائه إليه ؛ ولكن توسلات أصدقائه هى والحق الأبوى أغريا عبد المطلب وأقنعاه باستبدال القربان ، وقدم الرجل قربانا عبارة عن مائة جمل ، تكريما للصنم ، واعتبارا من ذلك التاريخ ، أصبح ذلك الرقم عرفا ضروريا فى التعويض عن القتل .

(راجع كتاب الأزرقى المعنون " تاريخ مكة .)

الملحق رقم (٤)

جشع الوهابيين . (راجع الجزء الثانى صفحة رقم ١٠٤ .)

من ابن سعود إلى سكان مكة المكرَّمين .

الحمد لله ، الواحد الأحد الذى لا شريك له ، له الملك وهو على كل شىء قدير .

بسم الله الرحمن الرحيم ! يتعين على العبد أن يتقى الله (جل جلاله) ؛ لأننا نقرأ فى القرآن : " قل هو الله أحد" " لذلك فإن البخارى (*) يرحمه الله قال : " تعلَّم أولا ، ثم تكلم واعمل . " وإذا ما سُئلنا : " ما هى أسس المعرفة الثلاثة ؟ " نجد أن الإجابة هى : " معرفة العبد لربه (جل جلاله) ، ولدينه ، ومعرفة العبد لنبيِّه . "

أولا ، وفيما يتعلق بمعرفة الله (جل جلاله) وتقواه : إذا ما سألوك ، من هو ربُّك (جل جلاله) ؟ " فقل : " الله ربى الذى نشأت وتربيت على فضله وكرمه ؛ أنا أعبده وحده ، وليس أحد سواه . " والدليل على ذلك أن (القرآن) يقول إن: " الحمد لله الخالق . كل موجود غير الله هو من المخلوقات ، وأنا شخصيا واحد من هذه المخلوقات . وإذا ما سألوك : " كيف عرفت ربك (جل جلاله) ؟ " قل : " بدلائل قدرته، وبدلائل الخلق . " ودليل ذلك أننا نقرأ فى القرآن أن من آياته الليل والنهار ، والشمس والقمر ؛ وخلقه السماوات والأرض، وما عليهم وما يحتوون . ونقرأ أيضا أن الله ربك ، خالق السماوات والأرض. وإذا ما سئلت "لماذا خلقك الله ؟ " قل: " لأعبده ". والدليل على ذلك أننا نقرأ فى القرآن:" وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون . " وإذا ما سأل سائل ، ما الذى يأمر به الله ؟ " قل : " التوحيد ؛ الذى يعنى عبادة الله وحده لا شريك له : وأن ما يحرِّمه الله هو أن لا نشرك به أحداً . " ودليل ذلك فى القرآن : " أعبد الله ولا تشرك به أحداً أو شيئا . " العبادة التى تعبد الله عليها هى أن تتبع الإسلام ؛ والإيمان، وتأتى الصدقات ، وتقيم الصلاة ، وتفى بالوعود ، وتضحى ؛ وأن تتوب إلى الله ، وتخافه ، وتعلق عليه آمالك ، وتحبه ، وأن تكون مُحْترمًا ، ومتواضعا ، واثقا بنفسك ، وتطلب منه (جل جلاله) العون .

الدليل على حتمية الصلاة فى القرآن : " صل ، أعطك ما تريد . " هذا يعنى أن الصلاة عبادة حقيقية . الدليل على الوفاء بالوعود أننا نقرأ فى القرآن : " أوف بالوعد واخش اليوم الذى حُذرت فيه من الشرور . " الدليل على حتمية التضحية أننا نقرأ فى القرآن : " فصلِّ لربك ، وانحر . " والرسول (النبى) ﷺ عليه رحمة الله ! قال : " لعنة الله على من يضحى لغير الله . "

الأساس الثانى للمعرفة هو معرفة دين الإسلام ، الذى هو الاستسلام والخضوع لله (جل جلاله) . الدليل على ذلك أننا نقرأ فى القرآن ، إن الدين عند الله الإسلام . " وكلام الرسول صلوات الله وسلامه عليه يشير إلى ذلك " الإسلام هو أصل العمل . " إذا سألوك : " ما هى الأركان الأساسية لديننا ؟ " قل : " إنها ثلاثة : الإسلام ، والإيمان ، والأعمال الصالحة . " كل ركن من هذه الأركان ينقسم إلى أجزاء مختلفة :
– فالإسلام له خمسة أركان هى : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت الله الحرام . والدليل على صدق الإيمان أننا نقرأ فى القرآن : أن الله يقول : إنه لا خالق إلا هو ؛ ومعنى التعبير الذى يقول : " لا إله إلا الله أن يؤكد أنه لا إله غير الله ، وأن لا شئ فى هذه الدنيا يُعْبدُ غير الله . والدليل على أن محمدا هو نبى الله مانقرأه فى القرآن : " وما محمد إلا نبى . " ويجب علينا أن نطيع أوامره ، وأن نؤمن بما رواه ، وأن نهجر ما منعه ؛ ونحن عندما نتبع هذه الأسس نكون قد التزمنا بطاعة الله . سبب الربط بين هذين الجانبين فى قولنا : " لا إله إلا الله ، وأن محمد نبى الله ، هو الكشف عن تقوانا ، وطاعتنا الكاملة . ونحن عندما ندلك على الصلاة والزكاة نقرأ فى القرآن : " وما أمروا إلا ليعبدوا الله ، مخلصين له الدين ، وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة . " والدليل على الصيام أننا نقرأ فى القرآن : " يا أيها الذين آمنوا ، كُتب عليكم الصيام ! " والدليل على الحج أننا نقرأ فى القرآن : " الحج لمن استطاع إليه سبيلا ؟ "

ونحن هنا يمكن أن نورد دليلا آخرٌ على تلك الأركان الرئيسية للإسلام ، ويتمثل ذلك فى حديث ابن عمر رضي الله عنه الذى يقول : " الرسول ﷺ يرحمه الله ، قال : إن الإسلام بُنى على خمس : الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، وشهادة أن لا إله إلا الله. " ثانى المبادئ الأساسية للدين هو الإيمان . والإيمان تسع وسبعين شعبة(*)

(*) المخطوطة العربية ليست دقيقة تماما فى هذه المقطوعة ؛ قد يكون الصحيح سبع وسبعين .

أعلاها إعلان : " شهادة أن لا إله إلا الله ؛ " وأدناها إماطة الأذى عن طريق المؤمنين . الحياء واحد" من هذه الشُعب . الإيمان ينقسم إلى ستة أقسام . هذه الأقسام هى : الإيمان بالله، وملائكته ، وكتبه، ورسله ، واليوم الآخر ، والقضاء والقدر ، حلوه ومره . والدليل على ذلك أننا نقرأ فى القرآن : " ليس البر أن تولوا وجوهكم شطر المشرق أو المغرب ؛ (*) وإنما البر أن تؤمن بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتاب المقدس والنبيين . " وفى التدليل على القضاء والقدر يقال : " لقد خلقنا كل شىء بقدر ." ثالث الواجبات الدينية الرئيسية يتمثل فى الأعمال الصالحات . هذه الأعمال الصالحات تندرج ضمن مفهوم واحد هو : " اعبد الله ، كأنك تراه ؛ فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك . " والدليل على ذلك أننا نقرأ فى القرآن : " من يسلم وجهه لله ويثق به ، فهو من الصالحين ، ويتمسك بحبله المتين . "

الأساس الثالث من أسس المعرفة ، يتمثل فى معرفة نبينا محمد ﷺ ! محمد بن عبد الله ، ولد عبد المطلب ، ولد هاشم ، بن عبد مناف ، الذى يمتد نسبه إلى عدنان ، الذى هو من خلف إسماعيل ، ولد (سيدنا) إبراهيم رضى الله عنهم جميعا وأرضاهم ! محمد ﷺ ! رسول ولا يمكن أن نعبده . وهو نبى ولا يمكن أن نكذّبه ؛ يتعين علينا اتباعه وطاعته ، ومحتم على الروح والبشر اتباعه . لقد وُلد واختير نبيا فى مكة ؛ وهربه، ووفاته كانا فى المدينة المنورة . وقد وصلنا منه ﷺ قوله : " أنا النبى ، لا كذب ، أنا بن عبد المطلب ! " وإذا ما سُئلت : " أهو فانٍ ؟ " قل نعم : " إنه فانٍ . " والدليل على ذلك أننا نقرأ فى القرآن : " قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد . " وإذا ما سُئلت ، هل هو مرسل إلى طبقة معينة من الناس ؟ " قل : " هو مرسل للناس كافة " وإذا ما سُئلت : " هل هناك دين مقبول غير دينه ؟ " قل : " لا يقبل دين غير دينه : " لأننا نقرأ فى القرآن : " ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه : " وإذا ما سألوك : " هل سيأتى نبى بعده ؟ " قل : " لن يأتى بعده نبى ؛ إذ

(*) المقصود هنا هو أداء الصلاة .

سيأتى بعده يوم القيامة". والدليل على ذلك أننا نقرأ فى القرآن أنه لم يكن أبا أحد من رجالكم ، وإنما رسول الله ، خاتم الأنبياء والمرسلين .

الملحق رقم (٥)

رسالة محمد على باشا(*) إلى أكابر سكان المدينة المنورة ، ليعلمهم بتفاصيل انتصاره العظيم على الوهابيين فى بيسيل . (يناير ١٨١٥ .) (راجع الجزء الثانى صفحة ٣٢٢ النص الإنجليزى .)

بسم الله العلى العظيم !

إلى أهلنا المحترمين ، سكان المدينة المنورة .

إلى جيران نبينا ﷺ المحترمين وكبار الزعماء ، جيران أول الأشراف ، وأولى العلم ، المحترمين والمبجلين شيوخ المدينة ، سلمهم الله ، ورعاهم بعنايته وحفظه ، وفاض عليهم بإحسانه ! آمين .

لكم منا أفضل التحية والسلام ، ونقول لكم إن الله (جل جلاله) الذى يمنحنا القوة ، وفقنا إلى تحقيق مطامح سلطان سلاطين الإسلام ، فى التعجيل بنقل وتحريك جيش المؤمنين الحقيقيين من مكة ، مزوداً بالمؤن والتموينات الضرورية ، والأمتعة والذخيرة ، حتى يمكن لنا نقل مركز رئاستنا من مكة إلى كولاك ، ومن أجل تحقيق هذا الهدف غادرنا مكة يوم السبت الموافق للسادس والعشرين من شهر المحرم ، ووصلنا إلى كولاك يوم الأربعاء المصادف لليوم الأخير من شهر المحرم . كان هدفنا الإسراع بالتوجه إلى تربة ، لكى نلاقى فيها قوات المهرطقين المجمعة ، بقيادة شيخهم

(*) هذه الرسالة نموذج للأسلوب العربى ، وقد قرئت هذه الرسالة على اجتماع عام فى المسجد النبوى فى المدنية المنورة . (أصل هذه الرسالة كان بحوزة بوركهارت .)

فيصل بن سعود ، وبصحبته ابن شوشان ، وابن دحمان ، وابن كاتنان ، وابن ماهى ؛ وأيضا باخروج ، وابن حتامل ، إضافة إلى شيوخ عرب بيشة كلهم ، والدواسر ، والبقوم ، وعرب العتبان ، وشيوخ الحجاز ، وسبيا ، والعارض . كل هؤلاء جرى دعمهم من قبل بعشرة آلاف من عرب عسير ، الأمر الذى زاد قوتهم إلى أن أصبحت حوالى أربعين ألف رجل ، ودخل الشيطان مجالسهم ، وعقدوا العزم على الهجوم علينا . تركوا تربة ، ووصلوا إلى مكان قريب منا ، بالقرب من قرية بيسيل الشهيرة . هاجمناهم بألف وخمسمائة من خيالينا ، جرى انتقاؤهم من بين المؤمنين الحقيقيين ، وقطعتان من مدفعية الميدان ، وكان هدفهم الرئيسى هو الاستطلاع . وعندما وصلنا ، انتشروا فوق الجبال ، وأبدوا مقاومة صلبة . لكن جنودنا كرسوا جهودهم لمهمتهم ، وبعد مذبحة كبيرة طردوهم إلى نقاطهم القوية .(*) وواصلنا هجومنا عليهم تحت وابل لم ينقطع من النيران ، محاولين بذلك جرهم إلى السهل . اشتبك جنودنا فى القتال من شروق الشمس إلى غروبها . ووضع دخول الليل حداً للقتال . وهنا استولينا على الممرات التى قد يحاولون الهرب منها . لكن الله أعطانا القوة والصبر(**). أرسلنا عندئذ فى طلب تعزيزات من كولاك مقدارها ألفا جندى من جنود المشاة ، ومعهم المدفعية الميدانية الخاصة بهم ، ورحنا نهاجم العدو من جديد مع طلوع النهار (***). لم يصمدوا أمام هجومنا الأول ، وهربوا ، وشاء الله أن تبتل سيوفنا بدمائهم . هجروا مخيمهم ، وما يزيد على خمسمائة خيمة ، وخمسة آلاف جمل ، وإبل للحمل ، مع كل الأمتعة والمؤن والتموينات ، كل ذلك وقع فريسة لقواتنا ، التى قوضت مخيمهم وسمعتهم، وشرفهم .(****) راحت قواتنا تطارد الهاربين ، الذين خسروا أعدادا كبيرة

(*) الحقيقة هى أن الخيالة التركية جرى صدها فى اليوم الأول .

(**) جرى التعبير عن ذلك باللغة العربية على النحو التالى " إلى أن حال بيننا الليل ولزمنا دروب فرارهم وبالله القوة والحيل .

(***) لم يرد شيء هنا عن البدو الذين كانوا فى خدمة الباشا ، الذين كانوا عناصر رئيسية فى قوة الباشا وبخاصة المشاة .

(****) هذه كناية عربية " عرضيهم وعرضهم " .ordyham wa ardehom

بين قتيل وجريح ؛ قام حلفاؤنا من عرب الحجاز بالهجوم عليهم أيضا فى الشعاب الضيقة . وهرب تامى شخصيا ومعه خمسة من الخيالة ، وخمسة من الجمّالة وهكذا استأصل الله الأعداء بقدرته وقوته . غادرنا كولاك يوم الأحد ، ونحن نطارد العدو مطاردة ساخنة ، ووصلنا إلى منطقة قريبة من تربة يوم الثلاثاء . كان فيصل قد لجأ إلى تربة ومعه خمسين خيالا ومائة جمّال ، تلك كانت البقية الباقية من قواته ؛ لكنه عندما علم بوصولنا هرب على الفور . وهنا خرج أهل تربة ، والجزء المتبقى من حاميتها من المدينة للقائنا وطلب السلام منا . وعدناهم بالأمن ، وأقمنا مركز رئاستنا في مدينتهم . وانضم إلينا هنا كل العرب المجاورين لتربة ؛ وبذلك شاء الله تحقيق رغبتنا فى تطهير هذه البلاد من ظلم الظالمين المجرمين . وبمشيئة الله ، سوف نغادر هذا المكان خلال ثلاثة أو أربعة أيام إلى رانية وبيشة ، ونيمم المسير إلى البقية المتبقية من عرب عسير ، حتى يمكن إرساء النظام فى سائر أنحاء البلاد ، ونقضى على المتمردين كلهم .

أردنا إبلاغكم بهذه الأخبار الطيبة ، ونبلغكم أن الله بفضله وكرمه مكننا من تحقيق آمالنا كلها . وليتم الله فضله، وينقى بلاد الحجاز كلها من دنس الأشرار ، بالقضاء عليهم واستئصال شأفتهم . ونحن ندعوكم أن تدعوا لنا عند قبر سيدنا ، وشفيعنا ؛ ولعل الله (جل جلاله) بفضله وكرمه يشملكم برعايته ! وهذا هو ما أردنا إبلاغه لكم .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، وآله ، وأصحابه !

فى السابع من شهر صفر ! الموافق ١٢٣٠ من الهجرة .

الملحق رقم (٦)

رسالة من عبد الله بن سعود إلى طوسون باشا ، بمناسبة رحيل طوسون

باشا عن القصيم متجها إلى المدينة المنورة . (راجع الجزء الثانى صفحة ٣٤٥)

بسم الله الرحمن الرحيم ! والسلام والتحية ، والتكريم لسيد الخلق محمد ﷺ ! وإلى النبيل أحمد طوسون باشا ، أعانه الله على عمل الخير ! وبعد ، وصلتنا رسالتك ، وأدعو أن يصيبك رضا الله وفضله ! لقد سعدنا لخبر رفاهك وتمام صحتك . وفيما تقوله تبريرا لمطالبك ، فأنت لديك التفهم والتعمق ؛ وأنت تعلم يقينا أن مطالبك لا يمكن السماح بها ، وهى على العكس من السلام . ونحن إذا لم نكن راغبين فى المحافظة على صداقة حقيقية ودائمة ، والوفاء بالوعود التى قطعناها ذات يوم ، كنا قد أعطيناك ما طلبت . نحن رجال إيمان وصدق، ونحن لا نتراجع عن الأعراف، والمواثيق ؛ ونحن ننفذ هذه المعاهدات والمواثيق ، حتى وإن كنا قد خُدعنا بها . فيما يتصل برحيلك ، نحن على ثقة أنك لن تسىء النية بنا ، ولن تصغى لما يقوله أعداؤنا ، أو المتآمرون المخادعون . اسأل البدو الذين معك ، وهم إن أرادوا قول الحق ، سيقولون لك ، إنهم حتى إن قتلوا واحدًا من آل سعود ، وكنت أعطيتهم السلام ، فإنهم لن يشكوا مطلقا فى كلامى ، وإنما سيثقون به تماما . نحن هنا نخشى على أرضنا ؛ هذه هى بلادنا . وأنا أنصحك ألا تشك فى نوايانا ، وأن تثق بإيماننا . وأنا أقسم بالله ، وبالامتيازات التى منحها للجنس البشرى ، وأنا أعد بألا أضايقك أنت أو جيوشك بأى شكل، أو على أى نحو قد يغضبك . أنت موضوع فى رعاية الله وعونه، ثم فى رعايتى . وفى اللحظة التى ستنهى فيها مخيمك فى طريق عودتك ؛ سوف أقوم أنا أيضا بإنهاء مخيمى ، وأنسحب مع جيشى فى اتجاه عنيزة (*) لكنك إن صدقت تقارير أعدائك ، وتشككت فى أمانتنا ، فسوف ننهى على الفور مخيمنا ونتجه إلى عنيزة ؛ وسوف نفعل ذلك من باب التوقير لك ، ولوالدك .(**) لكننا نطالب بألا ترسل لنا رسالة تتعهد فيها بسلام الله ، وسلام السلطان ، وسلامتك أنت ، لكل العرب الذين

(*) واحدة من مدن القصيم.

(**) حرفيا : لك ولمن خلفك بمعنى " كرامة لخاطركم واللى وراك "

فى جانبنا سواء أكانوا مستقرين أم بدوا . وأن ترسل أيضا رسالة سلام لسكان كل من شنانة ، وبتاح ، والنبهانية (*) وسوف نقوم على الفور بتوصيل تلك الرسالة إليهم . وسوف نتسلم ردك هذا المساء بمشيئة الله ؛ ومن ثم لا تدع مبعوثنا يتأخر عندك . وإذا أردت إرسال جمَّالة بشأن الموضوع الذى ذكره أحمد ، فلن يكون لدينا مانع فى ذلك . ونحن نتعهد لك بذلك أمام الله .

عندما يصل الأمر إلى حل وسط محبب ، فلن يريح قلب المسلمين (**) ولن يهدئهم ، فيما يتعلق بالجماعة كلها ، سوى وجود رهائن يُرسلون إلينا . وسيكون هؤلاء الرهائن فى حمايتى ؛ وعند وصولك إلى دات(***) سنعيد هؤلاء الرهائن إليك ؛ وسوف يعاملون معاملة كريمة وطيبة . سوف يبلغك إبراهيم بأسماء هؤلاء الرهائن وهم على النحو التالى : محمد دالى باشى ، وعثمان السلحدار ، وإسماعيل جوخدار، وأحمد أغا . أمان الله وأمانى مكفول لهم . سيكونون بصحبة بعض رجالنا إلى أن يصلوا إليك فى المنطقة التى تكون فيها إذا ما أرسلوا إلينا ، فسوف ننهى مخيمنا على الفور. وإذا ما أردت أن ترحل قبلنا ، على العكس مما نقول حاليا ، فسوف نرسل لك من جانبنا رهائن ، سيكونون معك . الأمر معروض عليك ولك الخيار . إما أن ترسل لنا هؤلاء الناس ، وسوف نرحل نحن ، أو تبدأ أنت بالرحيل وتأخذ أنت الرهائن المرسلين من طرفنا . لعلنا نتلقى منك رداً اليوم . ونحن ندعو الله أن يتم الاتفاق على ذلك ، وسنفرح لذلك . يجب أن تثق أن الرهائن سيكونون فى رعايتى الخاصة . والصلاة والسلام على محمد وعلى آله وصحبه .

(*) من بلدان منطقة القصيم .

(**) يجدر بنا الاهتمام بهذا التعبير . الوهابيون يطلقون على أنفسهم اسم " المسلمين " (أو مؤمنى الإسلام)؛ تمييزا لأنفسهم عن الأتراك العاديين . وهنا نجد أن جماعة الوهابيين تسمى أيضا المسلمين ، التى يمكن أن تقول للباشا " أنت لست بمسلم " . قد يكون ذلك خطأ من جانب كاتب الرسالة ، نظرا لأن أصل هذه الرسالة ، فيه من الأدلة ما يشير إلى العجلة والتسرع .

(***) دات : اسم لقرية من قرى القصيم ؛ وهذه القرية هى الأقرب للمدينة المنورة .

الكلمات العربية عند بوركهارت

الجزء الأول

Aeneze:	عنزة	Szoleyb:	صليب
Would Aly:	ولد على	Feheily:	فحيلى
El Teyar :	الطيار	Serdye:	سرديّة
Meshadeka:	مشادقا	Ledja :	ليجة
Merreykhat:	مريخات	Djolan:	الجولان
Meshatta:	مشطًا	:Kanneitera	قنطيرة
Auadh:	عوض – أواض	Beni szakhr:	بنى صخر
:Hamamede	حمامدة	Abs:	عبس
:Djedalema	جدالمة	:Belkaa	بلقاء
:Tolouhh	طلوح	:Ghour	غور
Hessenne:	حسنة	Haueytat:	حويطات
Messaliekh:	مساليخ	Sherarat:	الشرارات
Rauaila:	الروالة	Dowar:	دوار .
Djelaes:	جلاس	Nezel:	نزل
Beshher:	بشر	Fereik:	فريق
Ahl el Shemal:	أهل الشمال	Kabeile:	قبيلة

Maualy:	الموالى	Fende:	فندة
Hadedyein:	الحديديين	Tayfe:	الطاف
Turkman:	التركمان	Beni:	بنى
Arab Tahht Hammel Hamah	عرب تحت حمّل حماه	Sulf:	سلُف
Medhour:	مضهور	Touman:	تومان
Dhaan:	ضعن	Dora:	دُرُع
Ghazou:	غزو	Kaldjak:	قلجق
Shauke:	شوقة	Dafen:	دافن
Kheroub:	خرُب	Lebs:	لبس
Matrek:	مترك	Ftita:	فتيتة
Sefife:	سفيفة	Khafoury:	خافورى
Kowak:	رواق	Ayesh:	عيش
Sefale:	سفاله	Behatta:	بحتّة
Mereis:	مريس	Heneyne:	حنينة
Khelle:	خله	Khubz:	خبز
Kateaa:	قاطع	Sadj:	صاج
Sahhe:	ساحة	Burgol:	برغل
Markoum:	مرقوم	Kemmaye:	كماية
Redjoud:	رجود	Khelasy:	خلاصى
Roffe:	رفه	Jebah:	جباه
Makszar:	مقصر	Zebeidy:	زبيدى
Ketteb:	قتب	Szona:	صنُع
Rawouye:	رواية	Oerk:	عُرُق
Zeka:	زقا	Meghzel el souf:	مغزل الصوف

Udel: عدل
Harres: حرّس
Mesoumy: مسومى
Meshlakh: مشلخ
Shauber: شوبر
Mekroune: مقرونة
Terkie: تركية
Teraky: تراكى
Remahh san: رمح سان
Kennah: قنّاه
Harbe: هربه
Szahdje: صهجة
Hadou: حدو
Moszana: مصنع
Sindian: سندبان
Hetout: حتوت
Welouloua: ولولوا
Zekawah: زكوة
Zekka: وكّا
Talab: طلب
Kheteb: ختب
Ent talek: أنت طالقة
Tamehhe: طامحة
Mebesshae: مبشّع

Bakheil: بخيل
Wakhad helale: وخد حلاله
Khadhere: خاضره
Nekhouet: نخوة
Koualeh: قوالة
Asaamer: أسامر
El kheil djeitna , ..: الخيل جيتنا يا ديبا
الخيل جيتنا حطيبا
Elkheil , & c: الخيل ضوحى يا نيبا
Hodjeiny: حجينى
Dawireh: دويرة
Kahtan: قحطان
Rababa: رباب
Asamer: أسامر
" Get up, o camel, - " walk fast - " the poor camel , " & c. - come and take . " & c: قوم يا جمل – سُوق تعبان وعطشان قرّب حتى نعلق لك
" None shall cover , ": ما يغطيك إلا فولان
Ent taleka: أنت طالقة
Rowadjeh: الرواج
Mebesshae: مبشّع
Shahhr: شحّر
Djerba: جربة

Metras: متراس

Daly: دالى

Keffie: كفيه

Ares: أرس

Shebeyka: شبيقة

Mezrak: مزراق

Orarel Deyghemy: عرار الديغمى

Mashhour: مشهور

Fetita: فتيتة

Medjelleh: مجللة

Merekeda: مرقدة

Djereisha: جريشة

Nekka: نقعة

Shyh: شيح

Kurs: قرص

Ayesh: عيش

Kahkeh: كهكة

Gharad: غرض

Melha: ملحة

Othman el Medhyfe: عثمان المضايفة

El Medhegan: المضيّان

Abeyt , & c. : أبيت وحيد
ولا عند أولاد سعيد

Sheidje: شيجة

Beney: بَنيَّة

Agyd: عقيد

Kefyl: كفيل

" to dig up and to bury ," الحفز والدفن

Thar : ثأر

Hhasnai: حَسْنَاى

Wallahy inny ma, & c. والله إنى ما
شقيت جلد وما يتّمت ولد

Dhebahh: ذبح

Baikeh: باقية

Zeben: زبن

Tezebbenet: تزبنت

Dakhelet: دخلت

Mezbene: مزبنة

Tayeb: طيِّب

" May your day be white ," نهارك أبيض

"May your day be like milk," نهارك لبن

"ha, uncle ," & c. يا عمنا ألّى
ماشى معكم موية

"In Truth," & c. آه والله يا خوى
مرحبا بك

Syredje:	سيرجة	Athr:	أثر
Ghafeyr:	غفير	Djahelye:	جاهلية
Hasnay:	حسناى		
Hasneh:	حسنة		

الجزء الثانى

Hessenne:	الحسَّين	Owadje:	عوَّاجه
Ahsenne:	الحسَّين	Wayl:	وعيل (وايل)
Wady:	وادى	Howehtat:	حويطات
Djelas:	جلاس	Atye:	عطية
Rowalla:	روالة	Heywat:	حيوات
Ktaysan:	القطيان (قتعيان)	Tarabein:	الطرابين
Doghama:	الدُّغمة (الدُّغامة)	Maazi:	معازى
Feregge:	الفريج (الفريقة)	Tyaha:	تياهة
Omhallef:	أمحلف	Moeyleh:	مويلح
Maudjel:	المعجل	Hadnan	حدنان
Abdelle:	عبد الله	Dedour:	دبور
Fersha:	فرشا	Bedoul:	بدول
Bedour:	بدور	Seyayhe:	السيايحة
Sowaleme:	السوالمة	Hekouk:	الحكوك
Tana Madjed:	طنا الماجد	Azzeme:	عزازمة
Fedan:	الفيدان	Wahydat:	وحيدات

Sebaa: السبّاع
Selga: السلّقة
Djaafere: الجعافرة
Sayd: صعيد
Owarem: عوارمة
Gerashy: قراشى
Gereish or Koreish: قريش
Raham: رحمى
Mezeyne: مزينة
Aleygat: عليقات
Waszel: واصل
Sherkyeh: الشرقية
Ayayde: العيايدة
Satatene: السلاطنة
Djerbene: الجرابنة
Maazy: المعازى
Mowalle: الموازة
Ghanayme: الغنايمة
Shedayde: الشدايدة
Zerayne: زرعينة
Heteym: هيتيم
Djeheyne: جهينة
Bily: البلى (بلّوى
Hanady: حنادى

Oulad el Fokra: أولاد الفُقره
Reteymat: الرتيمات
Sowaleha: صوالحة
Shammar: شمّر
Degheyfat: دغيفات
Djaafer: جعافر
Rebaay: رباعى
Orar Deyghmi: عرار الديغمى
Zegeyrat: زقيرات
Selge: سلقا
Sahhoun: سحون
Zogoraty: زقرتى
Djemamyel: جماميل
Meteyr: مطير
Alowa: عَلاَوة
Dowysh: دويش
Boray: براى
Harabeshe: حرابشة
Borsan: برسان
Harb: حرب
Mezeyne: مزينة
Wohoub: وحوب
Gharban: غربان
Djenayne: جناينة

Howamede:	حوامدة
Oulad Mousa:	أولاد موسى
Lebadye:	لبادية
Megna:	مقنع
Okaba:	عُقبة
Mesayd:	مساعيد
Wodje:	وجه
Bily:	البلى (واحدة "بلوى")
Hassany:	حسّانى
Abs:	عبس – جمعه
	("عبوس")
Khadhera:	خضيرة
Elowf:	العوف
Rabegh:	رابغ
Haib:	حيب
Dwy Dhaher:	ذوى ظاهر
Ghor:	غور
Zebeyde:	زبيدة
Sedda:	سدّه
Djemmela:	جمّلة
Saadyn:	سعادين
Ateybe:	عتيبة
Beni Fahm:	بنى فهم
Djehadele	جهادلة

Safar:	سفر
Ammer:	عمّر
Fera:	فرع
Doyny:	دوينى
Hamede:	حامدة
Salem:	سالم
Howaseb:	حواسب
Sobh:	صبح
Shokban:	شقبان
Rehalat:	رحالات
Oklob :	أقلب
Sabya	سبيعة
Salem	سالم
Kahtan	قحطان
Es-sahama:	السماحة
Gormola:	قرملة
Aasy	عاسى
Dowaser	دواسر
Yam:	يام
Okman:	عكمان
El marra	المرّه
Sad (saad)	سعد
Naszera:	ناصرة
Malek:	مالك

Koreysh: قريش

Ryshye: ريشية

Kabakebe: كباكبة

Adouan: عدوان

Harreth: حرٌث

Thekyf: ثقيف

Hodheyl: هذيل

Djebel Kora: جبل كرا

Alowyein: غلويين

Nedowyein: نوديين

Beni Khaled: بنى خالد

Toweyrtek: طويرق

Beno Sofyan: بنى سفيان

Modher: مضر

Rabya: ربيعة

Ossoma: عُسمة

Begoum: بقوم

Birsim: برسيم

Om el Bel : أم البل

Djam: جعم

Hedjein: هجين

Oshary: عشارى

"His back is so soft,"& c ظهره ليّن تشرب عليه

:

Ghamed: غامد

Zohran: زهران

Shomran: شمران

Aabely: عابلى

Ibn el Ahmar: ابن الأحمر

Ibn el Asmar: ابن الأسمر

Beni shafra: بنى شفرة

Asyr: عسير

Abyde: أبيدة

Senham: سنحان

Wadaa: وادعة

Sahhar: صحّار

Bagem: باقم

Thamerye: تامرية

Keraye: قرية

Nezahhy: مزخّى

"Go and wash the feet of your mare" & C. اغسل رجلى الفرس

Abou Showareb Faysal Naszer El Turky وأشرب موتيها أبو شوارب فيصل ناصر التركى

Oulad es` sheikh: " O does , " : أولاد الشيخ

"will feed upon the fa فنجان قهوة .

its own hump," : يأكل في شحمه

Ras: راس

Ghabeit: غبيط

Gissa: قصة

Shaghour: شغور

Shaghaore: شغاورة

Hawye: حاوية

Shedad: شداد

Shebrye: شبيرة

Shekdef: شقدف

Takht rawan: تخت روان

El Aasab: العصب

Fekek: فقق

Serrar: سرّار

Hellel: هلل

Fahoura: فاهورة

Sedreh Khorban: صدرة ربان

Abd el Wahab: عبد الوهاب

Temym: تميم

El Howta: الحوطة

Keffar: كفار

Messalykh: مساليخ

" O leaver - off ." يا فاعل – يا تارك

Zeka : زكى

Nawab: نواب

Mezekki: مذكى

Aamil: عامل

Sylle: سلة

Meradif: مراديف

Mendjyeh: منجية

El Sabr: السّبر

Haret el Abasieh: حارة العباسية

Aman ullah: أمان الله

Halka: حلقة

Thadj: ثاج

Zebeyr: زبير

Thoeny: ثوينى

Szebeyhy: صبيحى

El koweyt: القويط

Abou Nokta: أبو نقطة

Othman elmedhayfe عثمان المضايفة

Moabeda: معبدة

Abd el Mayen: عبد المعين

Ibn Name: ابن نعمة

Ras el Kheyme: رأس الخيمة

Seyd Mohammed el Mahrouky:	سيد محمد المحروقى
Ibn Khorshan:	ابن خُرشان
Bakhroudj:	باخروج
Bedjile:	بجيلة
Oklab:	أُكلبُ
Rass:	الرس

Gwasim (ordjowasim)	قواسم
Refeydha :	رفيضة
Ghalye:	غالية
	تركت دين المسلمين
" I have aband	ودخلت فى دين
	الخوارج ودين
oned the religion,"& c	محمد على
Hedjeylan	حجيلان

المؤلف فى سطور
جون لويس بوركهارت:

هو سويسرى من مدينة بازل وتوفى ودفن فى القاهرة فى أواخر العام ١٨١٥ الميلادى.

- تلقى الرجل تعليمه فى لندن وأوفدته الرابطة البريطانية إلى الشرق ، ومن خلال إقامته مدة تزيد على عامين فى حلب، ومن خلال التجوال فى كل من سورية والنوبة ، أمكن لذلك لارجل أن ينتحل بصورة متدرجة بصورة متدرجة شخصية الرجل الشرقى وطابعه ، واشتهر باكتشاف بيترا إلى كانت عاصمة للأقباط ومركزاً من مراكز تجارة القوافل .
- كان بوركهارت يتكلم العربية بطلاقة وكانت لغته سليمة، وكان ضايعًا فى الأعراف الإسلامية .
- لم يذكر إنه أوروبى ولكنه كان يدعى ادعاءاً منطقيًا بأنه مرتد عن دينه ودخل فى الإسلام منذ بضع سنين .
- انتقل بوركهارت تحت اسم إبراهيم بن عبد الله من جدة إلى الطائف ماراً بذلك على ركن من أركان مكة المكرمة كما مر أيضًا فوق جبل قدره.
- تحسنت علاقته بمحمد على باشا وعاد فى ثوب التقوى والدين إلى مكة ليكون فى انتظار مجئ قوافل الحج.
- أدى فريضة الحج فى شهرى نوفمبر وديسمبر وضاعت منه فرصة العودة وغادر مكة مع بعثة الحج السورية نظراً لهروب الجمَّالة الذين كانوا يرافقونه .

المترجم فى سطور

صبرى محمد حسن

أستاذ اللغويات غير المتفرغ ، له أكثر من عشرين بحث ومقال نشرت فى المجلات والصحف العربية المحلية والدولية منها :

له مقالات وأبحاث نشرت بمجلات الفيصل - الرياض - المملكة العربية السعودية، ومجلة كلية الملك عبد العزيز الحربية - الرياض - المملكة العربية السعودية، والمجلة العربية - الرياض - المملكة العربية السعودية - ومجلة الهلال - القاهرة - جمهورية مصر العربية .

وله كتب مترجمة إلى العربية منها :

(أ) كتب نشرتها دور نشر عربية .

١ - التفكيكية : النظرية والممارسة ، تأليف : كرسيتوفرنورس ، دار المريخ، الرياض، المملكة العربية السعودية .

٢ - الشاعر والشكل ، تأليف : جدسون جيروم ، دار المريخ .

٣ - الاستراتيجية العربية والإسرائيلية وجها لوجه ، دار المريخ .

٤ - الأطفال والمخدرات ، دار المريخ .

(ب) كتب نشرتها دار أفاق الإبداع العالمية للنشر، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

١ - الموظف المشاكس .

٢- عمل الفريق الفعال .

(جـ) كتب نشرت ضمن كتب الهلال، القاهرة ، جمهورية مصر العربية.

١ - هاون الرشيد ، تأليف ، فيلبى .

(د) روايات مترجمة نشرت ضمن روايات الهلال.

١ – حلم لينة إفريقية .

(هـ) كتب وروايات مترجمة نشرها المجلس الأعلى للثقافة ، جمهورية مصر العربية.

١– سمة أنماط من الغموض ، تأليف : وليمن أمبسون .

٢ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ، تأليف : بالجريف (جزءان).

٣– حركات التحور الإفريقى ، تأليف : ريتشارد جبسون .

٤ – إرادة الإنسان فى علاج الأدمان .

٥ – قلب الجزيرة العربية (جزءان).

٦ – سيرتى الذاتية ، تأليف : أحمد بللو.

(و) روايات مترجمة نشرها المجلس الأعلى للثقافة ، جمهورية مصر العربية.

١– مسكين واحد لكل رجل .

٢ – نجوم حظر التجوال الجدد .

٣ – المهمة الاستوائية.

المراجع فى سطور

محمد صابر إبراهيم عرب

أستاذ تاريخ العرب الحديث بقسم التاريخ والحضارة – جامعة الأزهر ١٩٩٤ – حتى الآن .

– أستاذ بمعهد البحوث والدراسات العربية ١٩٩٤ – ٢٠٠٥.

– رئيس دار الوثائق القومية ١٩٩٩ حتى نهاية ٢٠٠٤.

– رئيس مكتب النادى العربى للمعلومات – مكتب القاهرة.

– عضو مجلس أكاديمية الفنون .

– رئيس مجلس إدارة الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية يناير ٢٠٠٥.

من أهم مؤلفاته :

١ – المتغيرات الاجتماعية فى المجتمع المصرى خلال الحرب العالمية الثانية".

٢ – "نهاية مملكة هرمز ١٦٢٢".

٣ – المنهج التاريخى فى كتابات المؤرخ العمانى سالم بن حمود السيابى".

٤ – المنهج التاريخى فى كتابات المؤرخ العمانى حميد بن رزيق ".

٥ – "تجارة الخليج العربى فى ظل السيطرة البرتغالية ".

٦ – "رؤية نقدية فى مصادر التاريخ العمانى ".

٧ – "دولة اليعاربة بين الوحدة الوطنية والانتصارات الخارجية".

٨ – "الدكتور محمد حسين هيكل بين الاعتدال والتطرف".

٩ - "العرب فى الحرب العالمية الأولى".

١٠- "العلاقات المصرية العمانية فى عهد السيد سعيد بن سلطان ".

١١ - "العمد والمشايخ فى الريف المصرى خلال ثورة ١٩١٩".

١٢- " الحقوق التاريخية لدولة الإمارات العربية فى الجزر الثلاث (طنب الكبرى والصغرى وأبو موسى)".

١٣ - "العلاقات العربية فى ظل الحرب الباردة ".

١٤ - "دور الثقافة العربية فى دعم العلاقات العربية ".

١٥ - "رواق المغاربة فى الجامع الأزهر خلال القرن التاسع عشر ".

١٦ - "قراءة فى أوراق الشيخ محمد الخضر حسين (شيخ الأزهر)".

١٧- "برامج الأحزاب المصرية ١٩٢٢/١٩٥٣" (رؤية مقارنة).

١٨- "التواطؤ الثلاثى فى حرب السويس ١٩٥٦".

١٩- "الحركة الوطنية فى مصر ١٩٠٨ - ١٩١٤ "، القاهرة . ١٩٨٤ .

٢٠- حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ والعلاقات المصرية البريطانية حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، القاهرة ١٩٨٥.

٢١- "المدخل إلى تاريخ أوروبا الحديث".

٢٢ - "تاريخ العرب الحديث"، ١٩٨٩.

٢٣ -" موجز تاريخ عمان ".

٢٤- "الفكر السياسى عند عباس العقاد ".

٢٥ - "أزمة مارس ١٩٥٤ فى الوثائق البريطانية ". تحت الطبع .

٢٦ - " أوراق الدكتور طه حسين ". الجزء الأول ، أما الثانى فتحت الطبع .

٢٧ - الدين والدولة فى الفكر الإباضى " تحت الطبع ".

التصحيح اللغوى : **أحمد عبد الباسط .**

الإشــراف الفنى : **حســـــن كامـــــل .**



سبق بوركهارت الرحّالة كلهم وزار الجزيرة العربية فى العام 1810 الميلادى؛ ليؤلف الكتاب فى جزأين على الرغم من عدم نشره إلا فى العام 1928. يقسم المؤلف الجزأين إلى قسمين يوضحان ويشرحان بعضهما، ويظل كل منهما مؤلفًا مستقلاً ومتميزًا.

يعد أحد هذين الجزأين دراسة وصفية تحليلية، أما الثانى فهو رصد تاريخى.

الجزء الأول لا يقتصر على ذكر القبائل البدوية، ولا على تناول مجالسها ومنازلها المحلية المتباينة أو أعدادها أو قوتها العسكرية فقط، وإنما هو سرد أمين لعادات وتقاليد وأعراف غير عادية بيننا وبينها الآن قرابة قرنين من الزمان.

فى الجزء الثانى من الكتاب نجد بوركهارت يجمع من هذه المعلومات الأصلية سواء المدون فيها أو الشفاهى تاريخًا أصيلاً ومؤصلاً ودقيقًا وأمينًا للوهابيين المتحمسين تحمسًا شديدًا. والرجل يطلق العنان لمشاعره الصادقة بلغة سليمة سمحت لبعض المصطلحات والتراكيب العربية بالتوغل فيها والنفاذ إليها.

